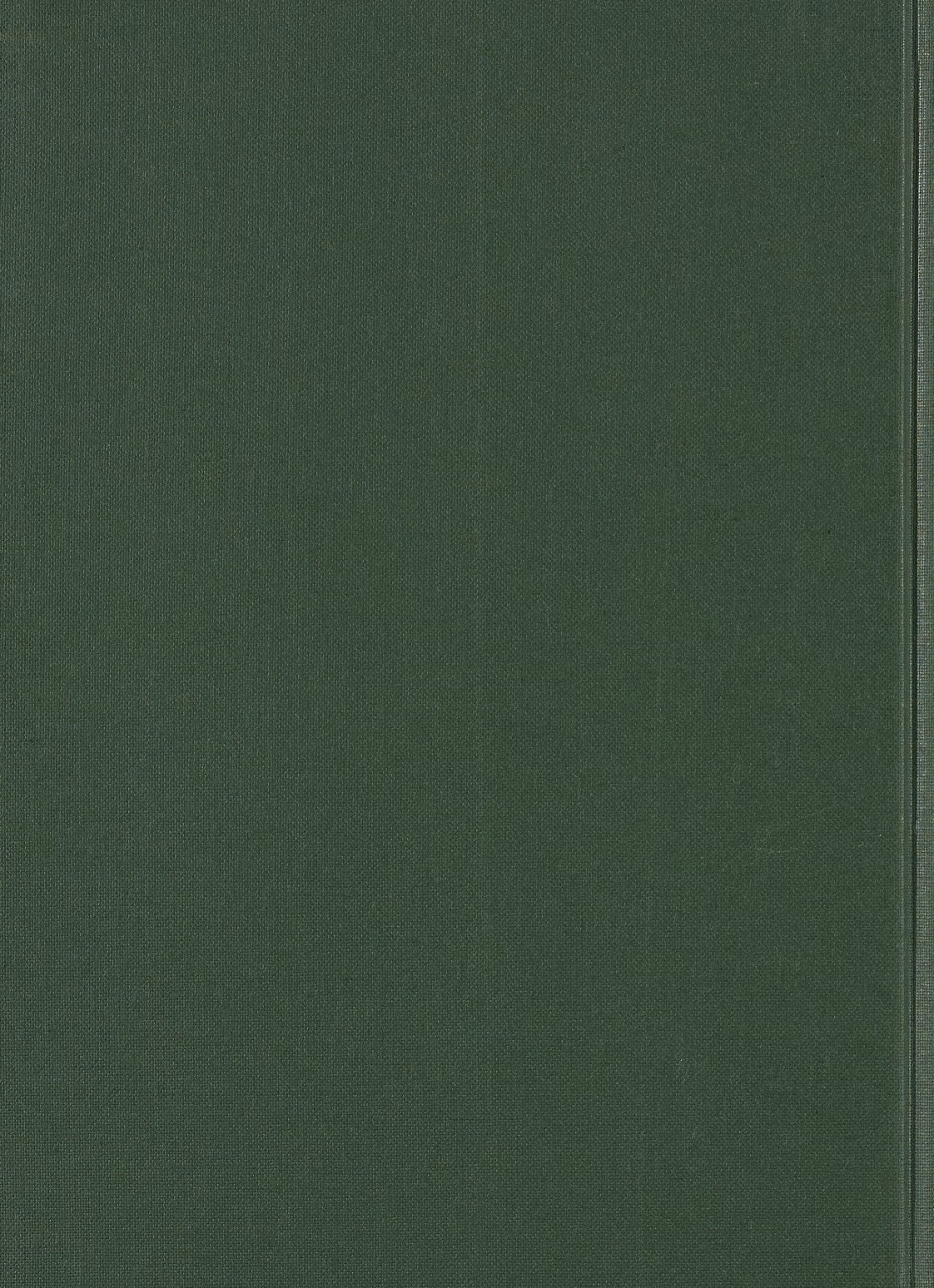
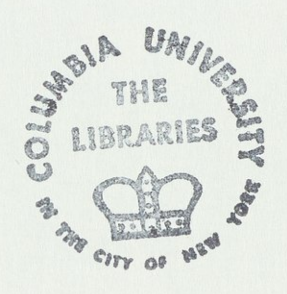
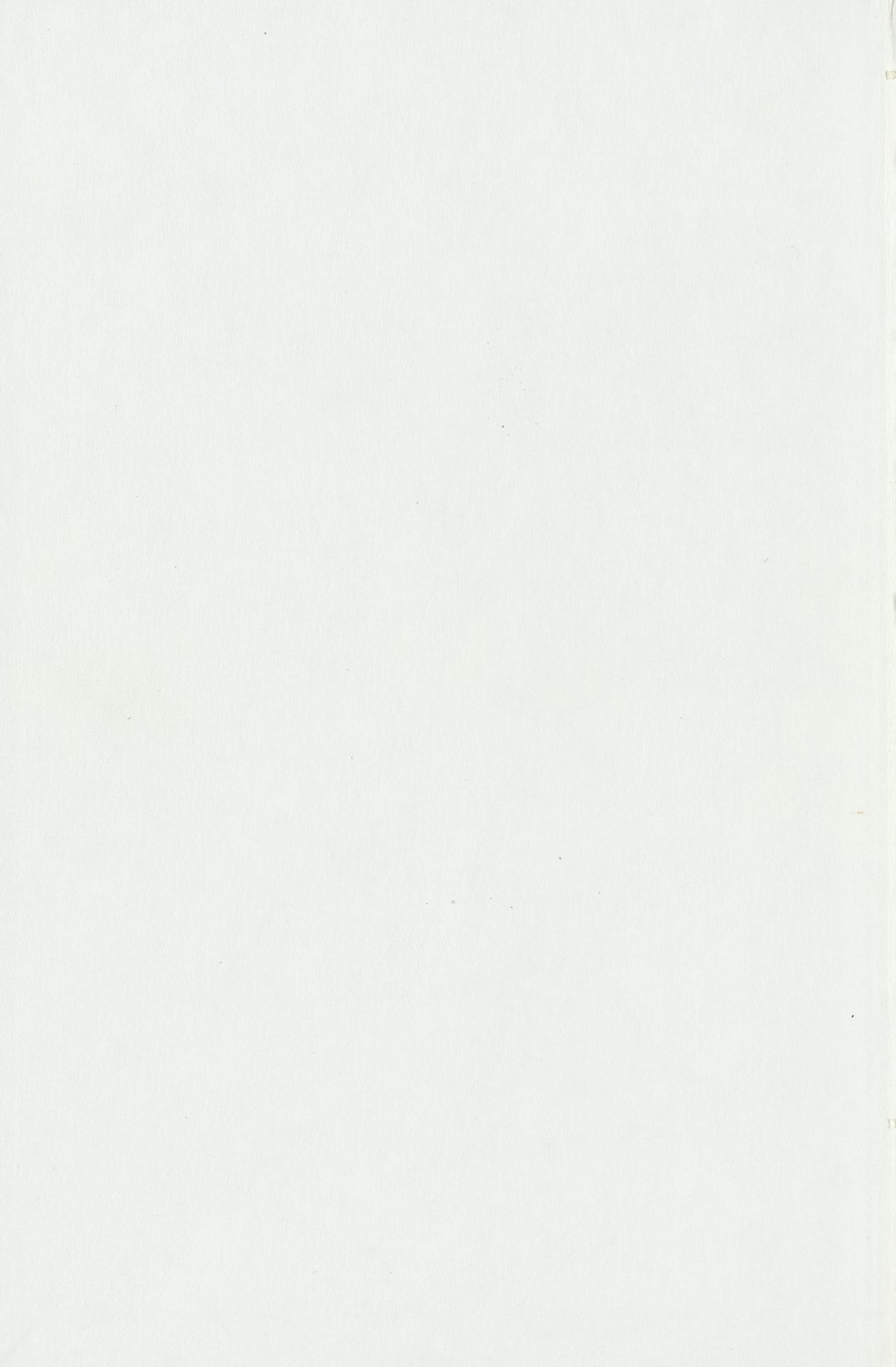



COLUMBIA UNIVERSITY
THE
LIBRARIES
IN THE CITY OF NEW YORK





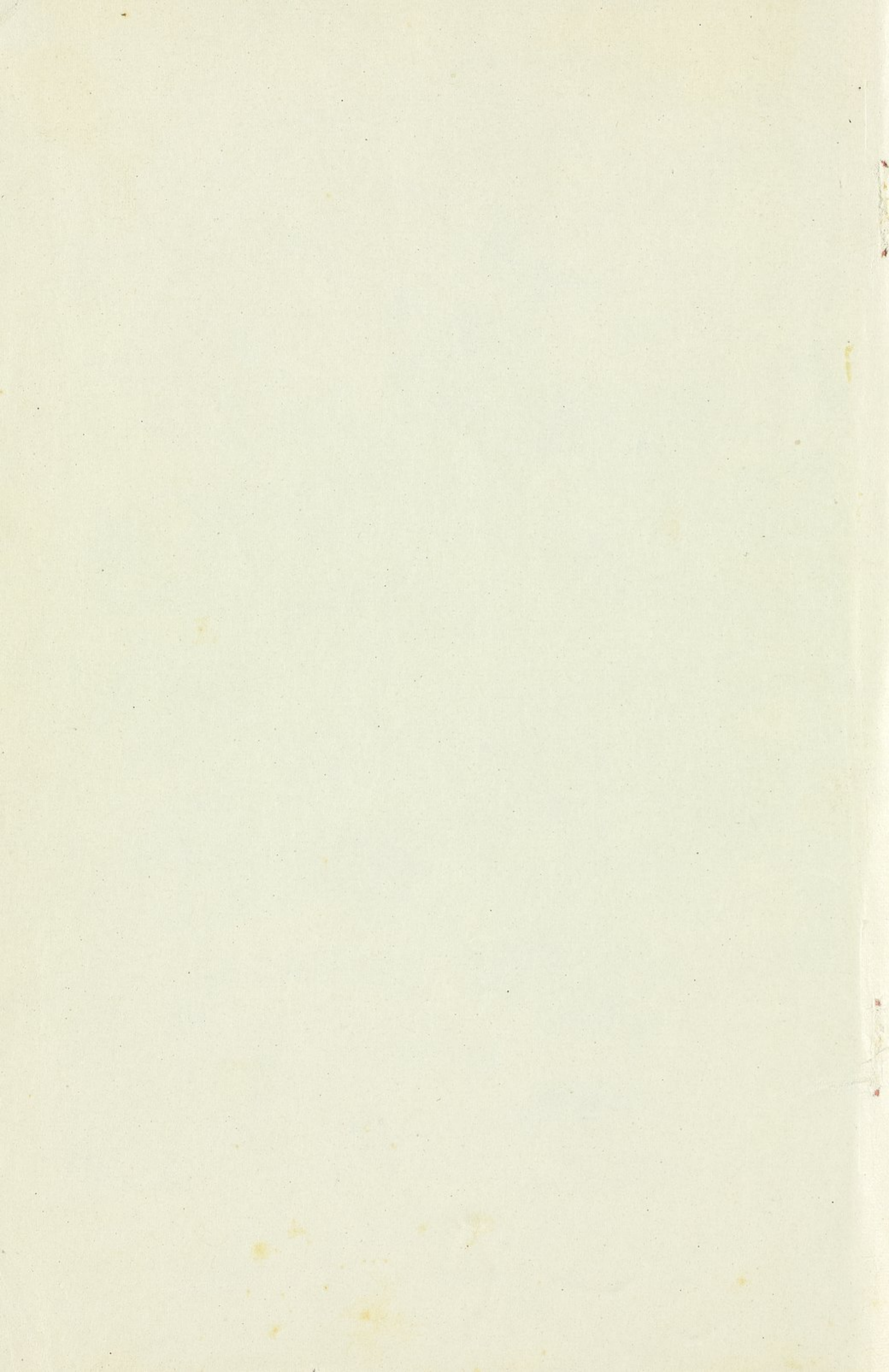
الفريق عفيف البزري

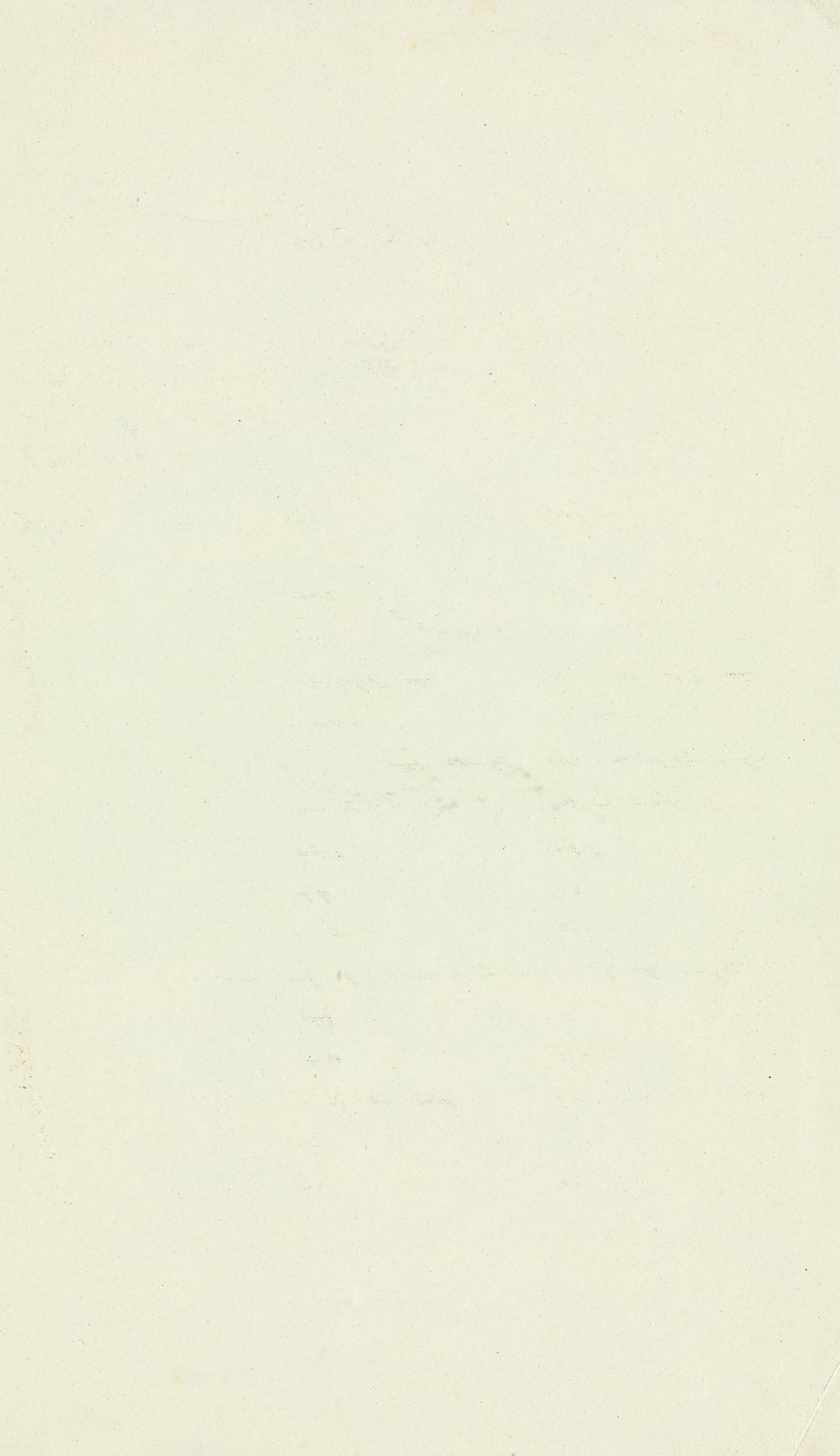


النّاصريّة

في جملة الاستعمار الحديث









الخطأ والصواب

ملاحظة : نعتذر اليك أيها القارىء الكريم ونرجوك تصحيح الاخطاء التالية قبل قراءة الكتاب • وهنالك أخطـاء أخرى ستصادفها أثناء المطالعة وهي لا تخفى على انتباهك • ونحن اذ نشكرك جزيل الشكر نكرر اعتذارنا اليك •

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩	٢٠	الغليان	الغيلان
٩	٢١	سمعوا	سموا
٢١	١٠	حلف جنوبي آسيا	حلف جنوبي شرقي آسيا
٢٦	٨	« شهدت »	« تعهدت »
٢٦	٩	في نهب مواطنيهم فحصلوا بهذه المشاركة على	جلب هذه الحاجات من الولايات المتحدة ومن
٤٨	٨	البشرى	الشرس
٥١	٢٠	بيرنو	بيرلو
٥٣	١٤	من كتنغا	لكتنغا
٦٢		احذف السطر الرابع باجمعه مع الكلمات الثلاث في آخر السطر الثالث	
٧٣	٦	البيع	البيت
١٥٣	١٠	لتوجه	لتوجيه
٢٤٤	٦	ما كان عبد الناصر	ماكان باستطاعة عبد الناصر
٢٤٤	١٣	بايرو	بايرود
٢٤٦	٥	خطى	خط

الفريق عفيف البزري

الناصرية في جملة الاستعمار الحديث

دار الشرق للنشر والتوزيع
دمشق .

الطبعة الاولى ـ ١٩٦٢

مقدمة

يختلف الاستعمار الحديث عن الاستعمار القديم اختلافا شديدا كما تختلف طرق النضال ضد الاستعمار القديم عن طرقها ضد الحديث بالشكل والمحتوى • فقد كان الاستعمار القديم يؤلف جملة عالمية من المستعمرين الذين كانوا يمارسون النهب الاستعماري عن طريق احتلال العالم بجيوشهم الاستعمارية • بينما يؤلف الاستعمار الحديث جملة عالمية من المستعمرين الذين يمارسون النهب الاستعماري بوسائل تتناسب مع ظروف الاستقلال السياسي للبلاد المتخلفة ، البلاد التي كانت تشكل الى وقت قريب مستعمرات الاستعمار القديم • ومن الطبيعي لذلك ان يختلف النضال بالشكل وبالمحتوى ضد الاستعمار الحديث عما كان عليه ضد جيوش الاحتلال • الا ان حداثة اساليب المستعمرين الجدد ، وشدة تعقد هذه الاساليب ، مع بقاء الآثار المادية الفظيعة التي اورثها الاستعمار القديم للبلاد المتخلفة ، كل هذا وغيره مما لا مجال لشرحه هنا يوحي بتصورات خاطئة الى الكثيرين من أبناء الشعوب التي ذاقت وتذوق الامرين من المستعمرين •

ان الدجالين الانتهازيين في الصفوف الوطنية العربية كثيرا ما يسترون سكوتهم هذه الايام ، عن الاستعمار الحديث بتركيز الحملة فقط على المستعمرين القدماء• وهم بهذا يتناسون عن عمد ان الخطر

الاساسي ، بل الخطر الوحيد ، على استقلال بلادنا وعلى ثرواتها الهائلة يأتي من الاستعمار الحديث . انهم يغفلون عن عمد انهيار الاستعمار القديم ، او على الاقل يتناسون ان هذا الاستعمار يلفظ آخر انفاسه . وهم يضللون الناس فلا يوضحون لهم ان المستعمرين القدماء ، كالانجليز والفرنسيين والالمان الغربيين وغيرهم ، اصبحوا الآن أجزاء متممة في جملة استعمار حديث تتزعمه اميركا ، وان كان هؤلاء المستعمرون يعيشون في جو عقلية قديمة لا تتناسب مع ظروف العصر الراهن ، فيتناقضون لذلك مع زعيمهم الاستعمار الاميركي ، الذي يعي ويدرك تمام الادراك التغيرات التي طرأت على العالم . فالدجالون الانتهازيون يفصلون بين المستعمرين ويوجهون جهود الجماهير ضد بعض الاستعمار خدمة لبعضه الآخر ، وعلى الاغلب خدمة لاكبرهم الذي هو اميركا . مع أن النضال ضد الاستعمار الحديث يعني بالبداهة النضال ضد جميع المستعمرين المشتركين في تكوين جملة هذا الاستعمار . وهو على الاخص يجب ان يوجه ضد نهب المستعمرين ومشاريعهم السوداء التي يخططون لها لابقاء سيطرتهم على العالم المتخلف .

ان الناصرية الماهرة في التستر على الاستعمار الحديث هي مرض الثورة العربية الحديثة ضد هذا الاستعمار ، وهي مرض خطير مميت . ولمقاومة هذا الخطر المميت وجب علينا دراسته ودراسة أسبابه ، وليس فقط تعداد ما ارتكبه من جرائم وآثام بحق أمتنا . ذلك لان الكثيرين من أبناء شعبنا آمنوا بالشعارات الناصرية الفارغة عن حسن نية ، فلم ينتبهوا الى الدجل الناصري وظنوا أن تلك الشعارات هي شعارات حقيقية . وفي مثل هذه الحالة لا يفيد تعداد جرائم الناصرية ، وقطعا لا يفيد شتمها ، وانما الذي يفيد هو وضعها في مكانها الحقيقي كخادمة حديثة لاستعمار حديث . فشعبنا يكره الاستعمار ، كل استعمار ، ولا يغفر لخدم الاستعمار عندما يفتضح امرهم . لذلك يجب

فضح أمر الناصرية بالدراسة لا بالشتم • وان من يناضل ضدها بشتمها فقط ، دون فضحها وتعريتها ، انما يفعل مثلها عندما تشتم هي جزءاً من الاستعمار وتنسى فضحه كله وفضح خططه اللئيمة •

وبعد ، فان هذا البحث محاولة لدراسة الناصرية في مكانها الذي اعتقدت انه مكانها الصحيح • وكان لا بد لي ، لايضاح الامور ، من ان أعود الى الاستعمار فأحاول ابراز بعض ملامحه بشكل خاطف ، بشكل يهدف الى التنبيه والتذكير ، ولا يهدف الى الشرح والاطناب • وكان لا بد لي من أن أضرب بعض الامثلة عن « فعال » هذا الاستعمار في أقطار بعيدة أو قريبة منا ، وفي كثير من الاحيان ، في أقطارنا العربية• ذلك لأن ما يحدث على كوكبنا الآن لا يمكن تجزيئه على حسب المناطق ، ولا بد من النظر اليه ككل متكامل مترابط • ان ما يحدث في الكونغو مثلا ، بالاضافة الى انه يبين لنا ناحية من نواحي الاستعمار المعقد فيسهل علينا فهم طبيعة هذا الاستعمار ، لا ينفصل عما يحدث في بلادنا العربية ما دام الاستعمار واحدا في كل بقعة من بقاع الارض وما دامت الشعوب تخوض في صف واحد معركة واحدة ضد الاستعمار العالمي •

ان اسرائيل قاعدة الاستعمار الحديث في منطقتنا ، تستأثر بانتباهنا في نضالنا ضد المستعمرين وضد أعوانهم • وهي أيضا تشكل في الدعايات الاستعمارية موضوع مغالطات سمجة يستفيد منها الانتهازيون والرجعيون من أبناء جلدتنا في خداعهم ودجلهم وكذبهم • وطالما حاول الاستعمار والدجالون ايهامنا « بنفوذ الصهاينة وجبروتهم » الذي يسير الدول العظمى « لخدمة اسرائيل » • وكأن نشاط الاستعماريين يقتصر على تقديم « الخدمات » !••• وكأن روكفلر ، هذا الغول البترولي ، يتسلى فقط « بالعطف » على الصهاينة وليست لديه مشاغل اخرى اكثر أهمية من هذه « الانفعالات النفسية » الفارغة ، ليست لديه مثلا مشاغله

في « سد شهيته » البالغة لبترولنا ٠ فتجد لذلك ، بكل أسف ، الادب الديبلوماسي العربي ملآن بعبارات الادب الرومانطيقي : بخيبات الامل ، بالصدمات ، بالعدل الخ ٠٠ فهنالك مثلا من يقول لك أن الدعاية الصهيونية في أوربا وأميركا (ولا يقول لك في بلاد الاستعمار تسترا على الاستعمار) قوية ، أي أن وجود اسرائيل هو مجرد نتيجة لدعاية ، ويقول لك ان علينا أن نقوم بالدعاية ، مثل اسرائيل ، كي نكسب « عطفهم » ٠٠٠ وتجد منا من يكتب الى كندي او ايزنهور فيقول له شيئا شبيها بما قاله عبد الناصر في كتابه الذي أرسله الى الرئيس الاميركي والذي نشرته الاهرام في ٢١ ايلول ١٩٦٢ :

« كانت الصدمة الكبرى في العلاقات العربية الاميركية هي غلبة اعتبارات السياسة المحلية الاميركية على اعتبارات العدل الاميركي (كذا !٠٠) والمصلحة الاميركية في تقرير موقفهم من الظروف التي أهدر فيها الحق العربي في فلسطين اهدارا كاملا ٠٠٠ »

وكأن أميركا بحسب منطق عبد الناصر الآنف الذكر ليست لها مصالح بترولية أكبر من « الاعتبارات السياسية المحلية » ، وكأن اسرائيل ليست قاعدة لحماية هذه المصالح ٠

اننا لا نستهين أبدا بمفعول الدعاية لقضايانا في العالم ، الا اننا نعتقد ان بناء الدعاية يقوم على أساس نضعه في بلادنا أولا ٠ ان كاسترو مثلا تمكن من اثارة انتباه الشعب الاميركي ، فغطى على جبال الدعايات الاستعمارية الاميركية التي تعمل في حشو ادمغة الاميركيين بالضلال ، أكثر بكثير من أي دجال تافه من (دجاجلتنا) « الباكين المستجدين » ٠

لقد كان علي أن أحاول وضع الحركة الصهيونية في مكانها التاريخي الصحيح كعميلة للاستعمار منذ نشأتها ، وأن أحاول بيان

تبعية تطور الحركة الصهيونية لتطور الاستعمار وتقلباته التاريخية ٠
وكان هذا ، على ما اعتقدت ، مفيدا في فضح الاستعمار الذي يتظاهر
بالبراءة من جريمته في سلب العرب قطعة غالية من ارضهم ، والذي
يجهد في الفصل بين نهبه لثرواتنا وبين قيام اسرائيل ٠ وكان هذا
أيضا ، على ما اعتقدت ، مفيدا في فضح الناصرية التي تتظاهر بالعداء
لاسرائيل في الوقت الذي تخنع فيه للمستعمرين أسياد اسرائيل وتنفذ
لهم مخططاتهم في ضرب كل حركة شريفة في وطننا ، وفي نهب ثرواتنا ،
وفي تأخيرنا عن التقدم ، تماما كما تفعل اسرائيل ٠

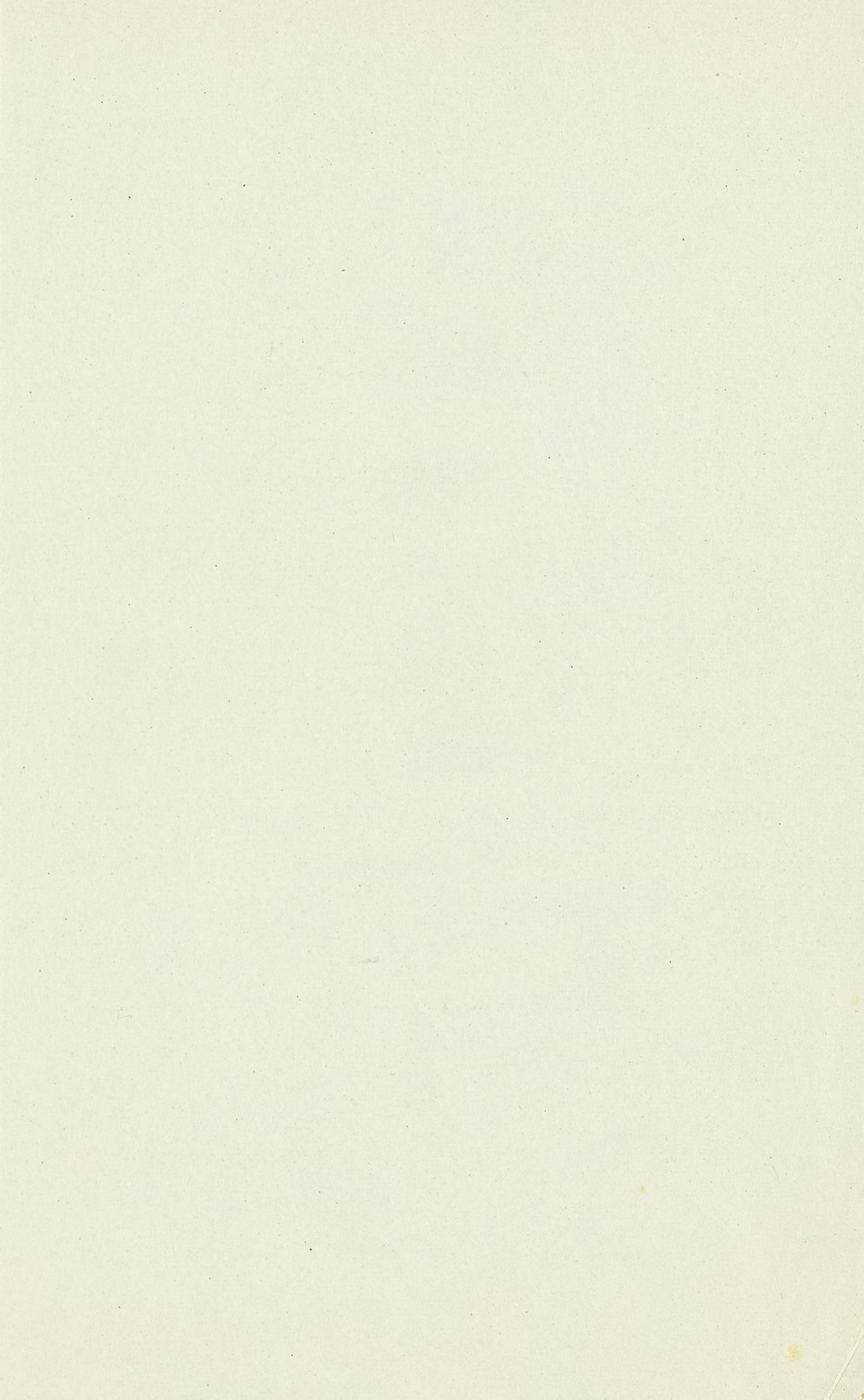
* * *

انني لا أكتم أبدا كرهي للاستعمار والمستعمرين ، الكره الذي
يملأ جوارحي كما يملأ جوارح كل انسان شريف من أفراد شعبنا ، وما
أكثر الناس الشرفاء في هذا الشعب ٠ فما العيب في هذا الكره عندما
يحاول الانسان دراسة الاستعمار ودراسة أعوانه وخدمه ؟ اننا لا نكره
الا بعد التجربة التي قاسينا منها ما قاسينا ، فلا نكره اذن عن جهل
وتعصب ٠ ونحن لا نكره ايضا الا المستعمرين في الوقت الذي نحب
فيه ونحترم الناس الطيبين في بلاد المستعمرين أنفسهم ٠ نعم اننا
نحب ونحترم كل أولئك الذين ساهموا ويساهمون في بناء القيم المادية
والروحية العظيمة في أوربا وفي اميركا ونعتبرهم اخوة لنا ٠ بل ان
محبتنا لهؤلاء تزيد من كرهنا للآخرين الذين يستغلون كل ما يبدعه
الانسان في بلادهم من امكانيات رائعة ليحولوه الى وسائل لقهرنا وقهر
شعوبهم ٠ فنحن نميز جيدا بين الغليان من آل روكفلر ودوبون ومورغن
ورتشيلد وكروب وو ٠٠٠ وبين الآخرين الذين سمعوا بعملهم وعبقريتهم ،
في الحقول والمعامل والمخابر والمعاهد ، فانتجوا محيطات من القيم المادية
ومحيطات من الروائع الفكرية ٠ نعم اننا نميز جيدا بين الحسن والقبيح

في تلك البلاد ، ولا نميز فقط بعقولنا وانما بعواطفنا أيضا ، فنحب ونكره • والدراسة لعمري على هذا الاساس أصح بكثير من الدراسة « الباردة » شكلا و « الحارة » كثيرا ، محتوى واتجاها ، في « محبة » من هم أصل بلائنا •

كانون اول ١٩٦٢ عفيف البزري

القسمُ الأوّل



الاستعمار الحديث

الخطوط العامة للاستعمار والتخلف

يقوم الاستعمار الحديث على العلاقات الاقتصادية المجحفة التي تفرضها كتلة الدول الاستعمارية على كتلة الدول المتخلفة • فهذه البلاد التي نالت استقلالها السياسي مؤخرا ما زالت بنظر المستعمرين مستودعا هائلا للمواد الاولية الثمينة وللايدي العاملة الرخيصة • وفي هذه الايام ، التي لا تسمح للقوي باحتلال بلد الضعيف والاقامة فيه بحماية جيش استعماري ، لا يتمكن المستعمر من نهب ثروات البلد المتخلف الا عن طريق استعماره اقتصاديا بربطه بعلاقات اقتصادية مجحفة بمصالحه • والاستعمار ، في هذه الحالة ، يستعيض عن جيش الاحتلال الدائم ، باقامة جملة استعمارية حول البلد المتخلف • تحاصره من داخله وخارجه • وتتألف الجملة من أعوان الاستعمار في داخل البلد المتخلف ، ومن القواعد العسكرية من بقايا الاحتلال الاستعماري القديم في منطقة البلد المتخلف ، ومن الاساطيل الاستعمارية ، والاحلاف الاستعمارية ، ودور السفارات والمؤسسات الاستعمارية ، والمخربين والدساسين الخ ••

المال والتقدم للمتخلف

ان التخلف هو النتيجة التاريخية للاستعمار القديم الذي استفاد من اوضاع اجتماعية بالية ، كانت توجد في أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية ، فأقام في هذه القارات امبراطوريات استعمارية واسعة ونهب منها محيطات من الثروات والقيم وسبب تخلف شعوبها عن ركب التقدم . كذلك كان النهب الاستعماري سببا في زيادة سرعة التقدم المادي في بلاد الاستعماريين .

ان البلد المتخلف ، البلد الذي تمكن أخيرا من انتزاع استقلاله السياسي ، هو بالتعريف بلد يفتقر الى رؤوس الاموال الكافية والملاكات الفنية الضرورية لتشغيل اليد العاملة في استثمار ثرواته باسلوب حديث عقلاني . أي أن البلد المتخلف يحتاج الى المال والتقدم العلمي الضروري ؛ ورأس المال ، بالنسبة لجميع المذاهب الاقتصادية ، هو مجموع قيم متراكمة ينتجها الانسان ويدخرها . فاذا تعطل ادخار القيم ، لسبب من الاسباب ، في بلد ما ، فان رأس المال لا يظهر في هذا البلد اذ عندما تذهب القيم الناتجة بين استهلاك البلد ونهب المستعمر فان المال لا يتجمع في هذا البلد ، واذا تفاقم نهب المستعمر انخفض استهلاك البلد وانخفضت سوية أهله ، فيحرم من المال والعيش الكريم . لذلك كان من مصلحة البلد المتخلف أن يفعل كل ما باستطاعته ليمنع تسرب القيم التي تنشأ فيه الى جيوب المستعمرين الجدد ، أي أن يقيم علاقاته الاقتصادية مع الاخرين على قدم المساواة ، فعندما تخرج قيم ما من البلد يجب أن تدخل اليه قيم أخرى تساويها . ثم ان التقدم العلمي يحتاج الى بذل المال ، أي انه يحتاج أيضا الى حماية ادخار القيم الناتجة من أن ينهبها الاستعمار ،

وهو أيضا يحتاج الى الوقت اللازم ، ولا يتمكن البلد المتخلف من الحصول على الملاكات الفنية بين ليلة وضحاها كما انه يتعذر عليه الحصول على هذه الملاكات في زمن قصير ، نظرا لجو التآمر الاستعماري عليه •

الاستعمار لا يساعد المتخلف

ان البلد المتخلف يتمكن من تغطية تخلفه في زمن أقصر عندما يتمكن من الاستفادة من مساعدات البلاد المتطورة صناعيا ، المساعدات النزيهة والمقدمة بشروط معقولة • الا أن حكام البلاد الاستعمارية لا يقدمون مثل هذه المساعدات ، لان القضاء على التخلف في العالم يقضي على الفرص التي تمكنهم من اتباع سياسة نهب ثروات الغير ، فعندما تقوم صناعة وطنية ضخمة في السعودية مثلا ، لا يتمكن الاستعمار الاميركي من سرقة بترول هذا البلد الذي يصبح عندئذ في سوية تمكنه من استثمار ثرواته بنفسه • والمستعمرون يفضلون دوما ان يقيموا بأنفسهم المشاريع الاقتصادية في البلاد المتخلفة : المشاريع التي تكون ملكا خاصا بهم ، وعندما يتعذر عليهم هذا فانهم يشاركون في المشاريع الوطنية لهذه البلاد بشروط ملائمة لهم وغير ملائمة للمتخلف • وهم لا يقدمون القروض الا بشروط اقتصادية مجحفة جدا ، والا بشروط سياسية تنتقص من سيادة البلد المستقرض • فاذا اضفنا الى ما سبق اغراقهم اسواق البلاد المتخلفة بانتاجهم الاستهلاكي ، غير المفيد في التطوير الصناعي ، واذا علمنا ان اسعار هذا الانتاج الاستهلاكي تكون مرتفعة جدا بالنسبة الى سعر اليد العاملة في البلد المتخلف ، أي بالنسبة الى منتوجات البلد

المتخلف التي يشتريها الاستعمار بأبخس الاسعار ، نفهم جيدا كيف تخرج القيم الناتجة من العالم المتخلف الى الدول الاستعمارية الحديثة ، وذلك على حساب الادخار لتغطية التخلف :

« ... تقول الصحافة البرازيلية انه كان من الممكن سنة ١٩٢٨ شراء سيارة فورد بعشرين شوالا من القهوة في الولايات المتحدة الاميركية ، أما الان فمن الضروري تصدير ٢٠٠ شوال من القهوة (البرازيلية) الى الولايات المتحدة لشراء مثل هذه السيارة . ان البرازيل اليوم تتسلم سلعا من الولايات المتحدة مقابل صادراتها بمتوسط قدره ٣٧٪ أقل مما كانت تتسلمه في سنوات ١٩٢٥ - ١٩٢٩ ، وكذلك صارت هندوراس سنة ١٩٤٨ تصدر أكثر من ثلاثة أضعاف ما كانت تصدره من الموز للولايات المتحدة في سنة ١٩٣٩ مقابل متر واحد من قماش القطن .

وتكون نتيجة هذه السياسة التجارية اللصوصية بالطبع هي أن تحصل احتكارات الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا وفرنسا والقوى الاستعمارية الاخرى على ارباح طائلة . لقد جنت احتكارات الولايات المتحدة الاميركية عام ١٩٤٨ وحده ٣ر٧ مليار دولار كصافي ربح من البلدان المستعمرة والتابعة ، عن طريق بيع السلع بأسعار تفوق قيمتها وشراء غيرها بأسعار تقل عن قيمتها » .

القانون الاقتصادي للرأسمالية الحديثة صفحة ٦٢ - ترجمة اسماعيل عبد الرحمن . دار الفكر في القاهرة .

ان ٣ر٧ مليار دولار ، أرباح أميركا الانفة الذكر ، تنشأ كما هو واضح من فرق الاسعار المجحف بين السلع الاميركية وبين سلع البلاد المتخلفة التي تنهبها أميركا • فيجب أن نضيف الى هذا الرقم ارقاما أخرى تبين أرباح الاحتكاريين التي تتضمنها السلعة الاميركية في أميركا ، قبل تصديرها الى البلاد المتخلفة • ذلك لان السلعة الاميركية تضمن ربحا للاحتكاري حتى ولو باعها بقيمتها الحقيقية في السوق الاميركية •

العدوان الاستعماري الحديث

ولعل هنالك من يتساءل فيقول : ما دام الامر على هذه الحال ، وما دامت البلاد المتخلفة قد بلغت استقلالها السياسي الذي يمكنها من وضع الاستعمار عند حده ، فلا يتمكن في هذه الايام من شن العدوان عليها واحتلال أراضيها ، فما بال الكثير من هذه البلاد يسمح للمستعمرين بالتدخل في شؤونه فيفرضون عليه قيودهم الاقتصادية ؟••

ان المسألة ليست بهذه البساطة فاذا كان التقدم من مصلحة الغالبية العظمى من سكان البلد المتخلف ، كالفلاح والعامل والحرفي والمثقف والتاجر والصناعي ، فان في هذا البلد تيارات رجعية وتيارات انتهازية يزيد التخلف والجهل وقلة التجارب من شدتها وخطورتها • ثم ان الاستعمار الحديث يقيم سلسلة من الاحلاف العسكرية العدوانية التي تغطي جميع مناطق العالم المتخلف ، كما ان أساطيله وقواعده العسكرية تنتشر في كل البحار والامكنة الستراتيجية من هذا العالم • فبالضغط الخارجي والتهويل بالعدوان ، مع التآمر الداخلي المستمر على الحكم الوطني لبلد متخلف ، قد يصل المستعمرون الى الاطاحة بهذا الحكم • وقد يثير هؤلاء المستعمرون الحروب الاهلية او النزعات

الاقليمية ، ثم يتدخلون تحت ستار حماية « الشرعية » في البلد المقصود الخ ..

لقد بلونا نحن في سورية الكثير من أنواع التآمر الاستعماري ، وعانينا تدخل المستعمرين في شؤوننا الداخلية ، وتعرضنا لتهديداتهم ، فنحن اذن في وضع ملائم جدا لادراك هذا الامر بوضوح .

ان العالم المتخلف يشكل في استراتيجية الكتلة الاستعمارية وحدة تتوزع على أراضيها مختلف أنواع الثروات . وليس ثمة بلد في هذا العالم لا يثير اهتمام المستعمرين ، مهما كانت قيمة هذا البلد ضئيلة من الناحية الاقتصادية . ذلك لان تحرر بلد متخلف ليس مهما في ذاته بقدر أهميته بالنسبة الى المنطقة التي يوجد فيها هذا البلد ، فتحرر سورية مثلا ينعكس دوما على البلاد العربية ويهدد مصالح المستعمرين البترولية في هذه البلاد . ثم ان المستعمرين اذ يشكلون كتلة واحدة تجاه البلاد المتخلفة ، كتلة تخضع لاكبرهم واخطرهم ، وهو الاستعمار الاميركي ، يتناقضون فيما بينهم تناقضا وحشيا عند تسابقهم لنهب ثروات الشعوب المختلفة .

الاستعمار الاميركي
أميركا في طليعة المستعمرين

كان الاستعمار الاميركي يأتي بعد الاستعمارين البريطاني والفرنسي من حيث تصدير رؤوس الاموال قبل عام ١٩١٤ . وفي أواخر الفترة الفاصلة بين الحرب العالميتين اصبح هذا الاستعمار مساويا لبريطانيا في تصدير رؤوس الاموال ، فبلغت استثماراته الخارجية في عام ١٩٣٩ مبلغ ١١ مليار دولار . أما اليوم فان ما تستثمره أميركا خارج حدودها

يبلغ أكثر من ٣٠ مليار دولار • فاذا علمنا ان الدول الاستعمارية القديمة ، انجلترة وفرنسا وبلجيكا وهولنده •• لم تتقدم في تصدير رؤوس الاموال منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية ، بل تأخرت وحل مكانها الاميركان في كثير من الدول المتأخرة التي كانت مستعمرة أو خاضعة لها قبل عام ١٩٤٥ ، نجد الاستعمار الاميركي يفوق بكثير الدول الاستعمارية مجتمعة في استثمار الشعوب المختلفة •

« لقد أقام احتكاريو الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا وفرنسا وبعض البلدان الاستعمارية الاخرى السكك الحديدية والمؤسسات الصناعية والمناجم في البلدان المستعمرة والتابعة ، كما انهم انشأوا البنوك وشركات التأمين ، وزرعوا القطن والمطاط والشاي والقهوة والكاكاو ، وغرسوا الفاكهة والمحصولات الغذائية والصناعية الاخرى (وذلك لاستغلال قوى الانتاج في تلك البلدان) • هذا بالاضافة الى ان حكومات وبنوك القوى الرأسمالية الرئيسية تمنح البلدان المستعمرة والتابعة اعتمادات باهظة وقروضا طويلة الاجل ، لا لشيء الا لتسهم هذه الاعتمادات والقروض في (ضمان النهب الاستعماري لهذه الاحتكارات) •

لقد احدثت الحرب العالمية الثانية تغيرات جذرية في ظروف تلك البلدان التي تصدر رأس المال ، فوقع الجزء الاكبر من استثمارات المانيا واليابان وايطاليا المغلوبة على أمرها في أيدي الرأسماليين الاميركيين بطرق مختلفة • كما

اضطرت بريطانيا وفرانسا ، وهما في مسيس الحاجة الى المال لشراء الاسلحة والمواد الحربية أثناء الحرب ، الى بيع جزء من معاملهما ومصانعهما في الخارج للاميركيين ٠٠٠)

عن كتاب من القانون الاقتصادي للرأسمالية الحديثة ، الذي سق ذكره ٠

أميركا تستثمر أوربا والعالم الرأسمالي

ان رأس المال الاميركي لم يوفر الدول الاوربية المتقدمة ٠ فمنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وتحت ستار مشروع مارشال للمساعدة تمكن رأس المال هذا من التسلل الى قطاعات اقتصادية برمتها في المانيا الغربية وبريطانيا وفرانسا وايطاليا وبلجيكا وهولنده واليابان ٠ وقد حققت الاحتكارات الاميركية بهذا فائدة مزدوجة : فهي من جهة تستثمر التكنيك الاوروبي واليد العاملة الاوروبية الرخيصة بالنسبة الى اليد العاملة الاميركية ومن وجهة اخرى تتمكن من التسلل الى البلاد المتخلفة تحت عدد من الاقنعة المختلفة ، كالقناع الالماني والقناع الياباني والقناع الايطالي الخ ٠٠

ان رأس المال الاميركي مثلا مساهم كبير في الاحتكار الالماني الشهير كروب منذ عام ١٩٥٢ ، فهو لذلك يساهم في مصنع حلوان للصلب الذي أقامه الاحتكار الالماني المذكور ويساهم فيه بنسبة عالية ٠ وهنالك امثلة لا حصر لها حول هذا الموضوع ٠ ويكفينا الان أن نعلم ان العائلات الاميركية الثمان ، التي تدعى مجموعة « الكاديلاك » والتي تشرف على

الاقتصاد الاميركي بأجمعه ولا يفلت من رقابتها في أميركا أي نشاط اقتصادي مهما كان ضئيلا ، تشرف في الوقت ذاته على عدد ضخم من الاحتكارات والكونسورسيومات الدولية ، التي تضم احتكارات اوربية والتي تنشط في القارات الخمس . ان عائلة واحدة من هذه العائلات الثمان ، آل روكفلر ، تشرف على كل قطرة بترول تنبع في العالم الرأسمالي ، وأن نلسون روكفلر هو السيد الاكبر للعصابة الاميركيةالتي تنهب جزءا ضخما من بترول العرب .

الصورة السياسية للاقتصاد الاستعماري

ان الاحلاف العسكرية والاشكال السياسية التي تتزعمها أميركا : الحلف الاطلسي وحلف جنوبي آسيا وحلف البلقان والحلف المركزي وحلف الدول الاميركية ، هذه الاحلاف التي تضم جميع الدول الاستعمارية بدون استثناء مع عدد من الدول المتخلفة التي تسير في ركاب الاستعمار ، هي الصورة السياسية للواقع الاقتصادي الاستعماري الذي اشرنا اليه قبلا ، أي انها تشكل البناء الفوقي لذلك البناء التحتي الاقتصادي . وصحيح ان هذه الاحلاف تحيط بالدول الاشتراكية ، الا انه أيضا ليس من قبيل المصادفات ان نجد القواعد العسكرية التابعة لها ، وان نجد اساطيلها ، في كل مكان يتضمن ثروة تنهبها دول هذه الاحلاف الاستعمارية وعلى رأسها زعيمتها اميركا . وليس من قبيل الصدفة ان تتسلل الاحتكارات الاميركية الى جميع مناطق العالم الرأسمالي ، المتقدمة والمتخلفة ، في الوقف الذي تتزعم فيه أميركا جميع الاحلاف العدوانية فتساهم في هذه الاحلاف بأكبر قسط . ان أية منطقة من مناطق العالم

الرأسمالي لا تخلو من القواعد العسكرية الاميركية والاساطيل الاميركية التي تتردد بالقرب منها .

النهب الاستعماري الحديث
رأس المال الوطني يتناقض مع النهب الاستعماري

ان رأس المال الوطني الواعي ، الذي تحميه حكومة تتبع سياسة اقتصادية وطنية ، يشكل عقبة كبيرة أمام غزو رؤوس الاموال الاستعمارية . ذلك لان اضطراد النمو لرأس المال هذا يمتص القيم الجديدة المدخرة التي ينتجها أو يساعد على انتاجها العمال والفلاحون والمستخدمون والمهندسون الخ .. فتضيق لذلك مجالات النهب أمام رؤوس الاموال الاستعمارية فاذا ما اتبعت سياسة اقتصادية حكيمة ، فان نمو رأس المال الوطني لا يتوقف ، ويرافقه في ذات الوقت توسع نشاط رأس المال هذا في جميع القطاعات الاقتصادية بحيث لا يبقى للاستعمار أي منفذ لممارسة النهب . وعلى العكس فان الادخار يتناقص أو يذوب تماما عندما تكون هنالك رؤوس أموال اجنبية تمتص القيم الناتجة وتخرجها من البلد . كما ان التجارة الخارجية المجحفة تساعد ايضا على اخراج القيم من البلد وضرب الادخار . وعندما لا يوجد من يوقف هذا النهب الاستعماري نجد ان المشاريع الوطنية المفيدة تذوب الواحد تلو الآخر ، وتذوب معها رؤوس الاموال الوطنية ، ويحل في النتيجة الخراب في الاقتصاد الوطني . وعندئذ يتحول الجهاز الناشيء عن هذا الاقتصاد الاستعماري الى آلة جهنمية لاستغلال جماهير العبيد الجائعين لصالح الاجانب المستعمرين ، تماما كما يحدث في أميركا اللاتينية .

الاقتصاد الوطني

ان الاقتصاد الوطني الصحيح ينشأ عن كائن اقتصادي متكامل ومنسجم يشبه أي كائن عادي لا يشوهه نقص في الاعضاء . ولكل بلد كائنه الاقتصادي الخاص به : الكائن الذي يتعلق بامكانيات هذا البلد المادية والثقافية ، ويتعلق أيضا بعلاقاته الاقتصادية الخارجية : فكل أنواع الزراعة الملائمة والمفيدة للبلد ، وكل المشاريع الصناعية والتعدينية الممكنة فيه ، وكل العلاقات التجارية الداخلية والخارجية اللازمة له ، وكل المؤسسات المالية والمصرفية الضرورية الخ .. كل هذه تشكل عناصر كائنه الاقتصادي . ثم ان هذا الكائن الاقتصادي ينمو ويشتد بسرعة أو ببطء ، بحسب العوائق التي تعترضه أو النكسات التي تصيبه . وأخطر فترة يمكن ان يمر بها اقتصاد بلد هي فترة البدء في بنائه على أسس حديثة : تحوله من اقتصاد زراعي اقطاعي متأخر الى اقتصاد رأسمالي مثلا . ففي هذه الفترة يكون البلد متخلفا بسبب ما خلفه النهب الاستعماري فيه من فقر وجهل فيسهل عندئذ وقوعه فريسة في براثن الاستعمار الحديث . وعندئذ يفعل الاستعمار ما باستطاعته ليمنع السير الطبيعي التقدمي لهذا الاقتصاد وليحوله الى تابع ذليل لمؤسساته الاستعمارية ؛ وبينما تفترض عودة منافع اقتصاد البلد على البلد ، تعود منافع الاقتصاد التابع ، الى المستعمرين ويعود نكاله على المواطنين . وهذا بالضبط ما حدث لبلاد أميركا اللاتينية التي وقعت فريسة لاحتكارات الولايات المتحدة بعد خروج المستعمرين الاسبان منها مباشرة ، وقبل ان تتنفس وتقف على رجليها ، فتعطل تقدمها طيلة هذا القرن ، على

الرغم من غناها ووفرة امكانياتها • وهذا المصير يهدد أيضا كل البلاد المتخلفة التي تخلصت مؤخرا من الاستعمار • وهنا يجب ان لا يفوتنا ان المستعمرين الاميركان تغلغلوا في أميركا اللاتينية تحت شعارات الحرية والاستقلال وفي ظروف طـرد المستعمرين الاسـبان • وهم الان يستعيرون شعارات مشابهة للسيطرة على العالم المتخلف في آسيا وافريقيا•

وفيما يلي سنعطي بعض الامثلة عن النهب الاستعماري الحديث ، وعن كيفية تخريب الاقتصاد الوطني الناشيء ، وعن سيطرة الاقتصاد الاستعماري الاقوى على اقتصـاد استعماري أضعف • وهـذه الامثلة ليست الا عينة من عدد لا يحصى من نوعها ، الا انها تكفي لايضـاح ملامح الطبيعة الوحشية للاستعمار الحديث •

١ ـ مرض السكر الكوبي

في مطلع هذا القرن احتلت الولايات المتحدة الاميركية جزيرة كوبا وساعدت الثوار الكوبيين على طرد المستعمرين الاسبان • وبعد عدد قليل من السنين خرجت أميركا من هذه الجزيرة ومنحتها الاستقلال • وليس في ظاهر هذا الا ما يستوجب الحمد والشكر (لهذه الدولـة العظمى المحبة للحرية) • الا ان الناظر عن قرب الى هذه القضية يجد أنها تتعلق بالاعمال أكثر بكثير من تعلقها بمكارم الاخلاق • فالاحتكارات الاميركية كانت تنتج السكر بكميات لا تكفي اسـتهلاك بلادها وبأسعار ترتفع كثيرا عن الاسعار العالمية لهذه المادة • ولكي تحمي هذه الاحتكارات أرباحها كانت تضغط على حكومة بلادها لرفع الرسوم على السكر الاجنبي المستورد الذي كان يرتفع بهذا سعـره ليصبح

مساويا لسعر السكر الاميركي • الا انه عندما وقعت كوبا تحت الاحتلال الاميركي ، رأت تلك الاحتكارات أن هنالك امكانية أفضل في تموين السوق الاميركية بكفايتها من تلك المادة ، وذلك دون المساس بأرباحها • لذلك قامت سلطات الاحتلال الاميركية بتشجيع زراعة قصب السكر في كوبا الى أبعد الحدود ، وأقدمت احتكارات السكر الآنفة الذكر على شراء المزارع الواسعة لهذه الغاية • ولقد كانت الاسعار مغرية جدا بادىء الامر في كوبا ، والسبب كما قلنا للاحتفاظ بسوية أسعار الانتاج في الولايات المتحدة •

كان بامكان الاحتكارات الاميركية مثلا أن تستغل تفاهة اليد العاملة الكوبية فتشتري القصب الكوبي بسعر زهيد • الا أن هذا كان يؤدي الى انقاص أرباح أصحاب مزارع البنجر « الشوندر السكري » في الولايات المتحدة ، عندما تنخفض أسعار بنجرهم مع أسعار القصب الكوبي • أضف الى هذا ، ان احتكارات السكر الاميركية كانت تهدف الى تحويل الاراضي الزراعية في كوبا الى مزارع لزراعة قصب السكر • فرفعت أسعار هذه المادة لاغراء المزارعين الكوبيين على زراعتها • ثم ان السوق الاميركية كانت تبتلع السكر المستخرج من القصب الكوبي والسكر المستخرج من البنجر الاميركي • فارتفاع الاسعار لا يضر الا بالمستهلك ، وعندما يمنع استيراد السكر من مناطق العالم الاخرى ، يضطر المستهلك الاميركي الى شراء سكر الاحتكارات (الكوبي والاميركي) ، بالاسعار التي تفرضها هذه الاحتكارات • وهذا ما تم بالفعل •

وقد اجتاحت جزيرة كوبا موجة من الجنون السكري • اتلفت كــل زراعة لتحل محلهـا زراعة السكر ، فحطمت الغابات للحصول على أراض لزراعة السكر ، ولم تمض برهة قصيرة من الزمن حتى فقدت هذه الجزيرة كل نشاط اقتصادي تقريبا الا زراعة السكر • وعندئذ ظهرت امكانيات جديدة للاحتكارات اياها في ابتزاز ارباح كبيرة تسترد بها ما دفعته من أسعار مرتفعة في القصب الكوبي • فأهل الجزيرة بحاجة الى أشياء كثيرة أخرى غير قصب السكر الذي يغرق أراضيهم ، فهم يحتاجون الى الخضار واللحوم والملابس الخ •• و قد « شهدت » الاحتكارات الاميركية في نهب مواطنيهم فحصلوا بهذه المشاركة عــلى مزارعها الاخرى المنتشرة في دول أميركا اللاتينية ، لتبيعها الى الكوبيين بأسعار باهظة •

ان قصبة السكر تعطي خمسة مواسم دون الحاجة الى تجديد زراعتها • وهي لا تتطلب عملا كبيرا للعناية بها • وهذا الامر يعني ، من الناحية الاجتماعية ، ان عمال قصب السكر لا يعملون الا في موسم قطع هذا القصب • وقد رأينا ان الاقتصاد الكوبي ضاق الى درجة كبيرة بسبب هذه الزراعة • لذلك كنت تجد الملايين مــن سكان الجزيرة البائسة يطوون الاشهر بدون عمل ، بانتظار موسم القصب • وقد بلغ البؤس بهؤلاء الناس مبلغا لا يوصف •

لقد ناضل الشعب الكوبي طويلا للتخلص من هذه الحالة المحزنة ، فكان الاستعمار الامريكي يوقعــه في دوامة لا تنتهي مــن الانقلابات العسكرية وكان يساعد هــذا الاستعمار نفسه الكوبيون الذين شاركوا

الاحتكارات الاميركية في نهب مواطنيهم فحصلوا بهذه المشاركة على بعض فتات المائدة • وقد استحال كل اصلاح تحت ضغط هذا الاستعمار ، فكان مجرد التفكير بتنويع الاقتصاد الكوبي ، سواء باقامة مصنع او زراعة أو أي شيء لا يمت الى السكر بصلة أو يخرج عن نطاق سلطة الاحتكارات الاميركية ، يؤدي الى انقلاب ينسف الحكومة او الديكتاتور المتخاذل •

ملاحظة : لقد أخذنا هذه المعلومات عن بحث كتبه الكاتب الفرنسي الشهير جان بول سارتر تحت عنوان ، عاصفة على السكر • ومن الجدير بالذكر ان هذا الكاتب قضى عمره في كره الشيوعية والشيوعيين ، وهو في كتابه هذا لا ينسى أيضا الغمز من الحزب الشيوعي الكوبي •

الاخطبوط الاستعماري يلف القارة اللاتينية

ان قصص الدول اللاتينية الاخرى لا تختلف كثيرا عن قصة كوبا ، من حيث تأثير النهب الاستعماري الاميركي على شعوب هذه الدول • فاحتكارات البن واللحوم و الفواكه والبترول الاميركية لا تختلف كثيرا عن احتكارات السكر الآنفة الذكر في معاملتها لشعوب القارة اللاتينية • بل ان جميع هذه الاحتكارات ، بما فيها احتكارات السكر تعود الى جماعة واحدة من الاحتكاريين القابعين في حي الوول ستريت • وليس من انسان على ظهر البسيطة لم يسمع بالانقلابات التي لا تنتهي في هذه البقعة من العالم ، وبالفوضى السياسية التي لا حدود لها والتي سببها الاول والاخير هذا الاستعمار الشرس • والنتيجة ، ان في بلاد الخيرات هذه يموت الانسان من الجوع • ان في الارجنتين مثلا مليونا من اللاجئين

الريفيين يتضورون من الجوع على أرصفة المدن ؛ وفي بلاد اللحوم هذه دفع الجوع بامرأة ، عام ١٩٦٠ ، الى أن تذبح غلاما لتطعم أولادها من لحمه .. أمر فظيع مذهل لا يصدق لولا ان ضجت به صحف العالم بأجمعها (عدا صحف عبد الناصر طبعا) . ومنذ بضعة أيام نجد في الاخبار العالمية ان الفلاحين والعمال في هذا البلد بالذات يتظاهرون مطالبين بالطعام ..

لكن ما هو نصيب أميركا من هذه المصائب وهذا البؤس ؟ ان للاحتكارات التي مر ذكرها آنفا دولارا من كل سبعة دولارات من الدخل القومي لشعوب أميركا اللاتينية . والدخل القومي هنا محسوب على أساس دوران العملة وليس على أساس انتاج القيم الحقيقية الجديدة . ففي هذه الحالة ، أي عندما لا نحسب الا القيم الاخيرة ، يصل نصيب تلك الاحتكارات بسهولة الى ربع الدخل القومي المذكور . يضاف الى هذا أيضا ما تنهبه الدول الاستعمارية الاخرى من هذه القارة التعيسة .

ان كنيدي ، رئيس الولايات المتحدة ، عندما أعلن في الاسبوع الماضي حالة الحصار على كوبا وارسل أساطيله حول هذه الجزيرة لتنفيذ هذا الاعلان ، كان يخشى تحرر الشعب الكوبي ويخشى انعكاس هذا التحرر على بقية الشعوب اللاتينية ، لا القواعد السوفييتية على أرض كوبا . انه يخشى زوال عهد النهب الذي تمارسه احتكارات بلاده في أميركا اللاتينية وفي بقاع العالم الاخرى ، انه يخشى قواعد صواريخ الحرية من ان تنزل على رؤوس اولئك الاحتكاريين الاشقياء المتاجرين بأرواح الناس . لكن هيهات أن يتوقف دوران الارض عند يوم ثابت ،

وسيعصف التاريخ به وباستعماره كما عصف بظلام قبله • وان نصر الشعب الكوبي قدر •

٢ ـ ثروات كندا توحي بالاشتراكية للمستعمرين

ان كندا ، المستعمرة البريطانية القديمة ، كانت قد بلغت عند استقلالها تقدما ملحوظا • فلم يكن لذلك من السهل على الاحتكار الاميركي ان يتسلل الى اقتصادها ويخضعه عن طريق مشاركة رؤوس الاموال الخاصة او عن طريق اقامة مشاريع جديدة • ان الرأسماليين الكنديين كانوا لا ينظرون بعين الرضى الى هذا الجار الجشع الذي يريد مزاحمتهم في عقر دارهم • فتفتق ذهن الاستعمار الاميركي عن حيلة التأميم وتوسيع القطاع الاقتصادي العام ، واتجه لذلك الى استعمال زمرة من الانتهازيين ادعياء الاشتراكية في هذا البلد ودفع بهم الى الحكم • وقد قام هؤلاء الاعوان تحت ستار الاقتصاد « الشعبي » و « الاشتراكية » بتأميم عدد كبير من المشاريع وتوسيع القطاع العام حتى أصبح هذا القطاع يغطي معظم النشاطات الهامة للاقتصاد الكندي ، الامر الذي يعني أيضا أن هذا القطاع أصبح يتحكم تماما باقتصاد كندا • وكل هذا حسن لولا ان هذا القطاع العام « الشعبي الاشتراكي » وقع فريسة للمساهمة الاحتكارية للولايات المتحدة • اذ ان الاحتكارات الاميركية تساهم بنسب كبيرة في جميع مشاريع ذلك القطاع العام ، الامر الذي يعطي هذه الاحتكارات امكانية الاشراف على مجمل اقتصاد كندا ، وبالتالي امكانية تسخير هذا الاقتصاد كليا لمصالحها •

ان هذه التجربة ، والحق يقال ، فريدة في نوعها ، وهي تسجل

اسلوبا مدهشا للنهب الاستعماري . فالتأميم سهل عمل الاحتكار الاميركي الى أبعد حد ، ففي هذه الحالة لا يحتاج هذا الاحتكار الى بذل أي مجهود كبير في اقناع عدد ضخم من الناس ورشوتهم ليسمحوا له بمشاركتهم في أعمالهم ، بل تكفيه حكومة كندية طيعة ويكفيه وزير اقتصاد كندي طيع لتيسير أعماله . ومن الواضح أن الحصول على مثل هذه الحكومة لا يشكل صعوبة كبيرة بعد أن يقع اقتصاد البلد في براثن المستعمر .

ومن هنا نفهم جيدا خطورة الخطوات التي خطاها عبد الناصر في طريق تسليم مصر الى الاحتكاريين الاميركان . فهو قد أصدر منذ مدة طويلة قانونا يسمح بموجبه لرأس المال الاجنبي بالمساهمة في مشاريع القطاع العام بنسب يمكن ان تبلغ ٥١٪ . والقانون المصري هذا يسمح أيضا باخراج ارباح الاحتكارات الاستعمارية المساهمة في القطاع العام وفي غيره من القطاعات الخاصة بالقطع النادر ، ونقل الارباح الى بلد الاحتكار . ثم ان عبد الناصر وسع القطاع العام بتأميم الكثير من المؤسسات الصناعية الوطنية التي لا يساهم فيها الا المال المصري واصبحت الآن تحت رحمة رؤوس الاموال والقروض الاستعمارية التي تنهال على مصر في هذه الايام . يضاف الى هذا قبول عبد الناصر مؤخرا بالاشراف الاميركي على اقتصاده . ان مأساة كندا تتكرر في وادي النيل تحت شعار « الاشتراكية » .

٣ ـ مشروع مارشال للمساعدة

عندما كانت القنابل تنهال على مدن أوربا في الحرب العالمية الاخيرة ،

وعندما كان لهيب هذه الحرب يأتي على اقتصاد الدول الاوربية وعلى علاقاتها التجارية في العالم ، كانت الاحتكارات الاميركية تفرك اليدين سرورا بالفرصة الذهبية للسيطرة على العالم ونهبه . لذلك لم تكد تلك الحرب تضع أوزارها حتى طلعت أميركا على العالم بمشروع مارشال . وكان ظاهر هذا المشروع مساعدة الدول الاوربية على ترميم اقتصادها الذي خربته الحرب ، أما غايته الحقيقية ، وقد ظهرت بنتيجة التطبيق ، فكانت اخضاع الاقتصاد الاوربي نهائيا للاحتكار الاميركي ، والحلول مكان الدول الاستعمارية القديمة في الكثير من أسواق البلاد المتخلفة وفي نهب ثروات هذه البلاد .

ان النقطة الهامة في هذا المشروع كانت فرض الرقابة الاقتصادية والمالية الاميركية على الدولة التي تقبل به . وكان بامكان الاحتكارات والشركات الاوربية الخاصة ان تدخل مباشرة في نطاق هذا المشروع ، دون توسط حكوماتها ، فتخضع للاشراف الاميركي المباشر . أو للرقابة الآنفة الذكر . فقد كانت توجد في فرانسا مثلا دائرة اميركية ضخمة تضم آلاف الموظفين الذين يراقبون الكبيرة والصغيرة في بناء اقتصاد هذا البلد . لقد كانت ، والحق يقال ، فرصة العمر بالنسبة للاحتكار الاميركي . فكان باستطاعة جهاز مارشال :

- أن يتجسس على اقتصاد أوروبا الرأسمالية .

- ان يعرقل قيام أي مشروع اقتصادي في أوروبا لا يتلاءم مع مصالح الاقتصاد الاميركي ، لان الاوروبي كان يفتقر في أعقاب الحرب الى رأس المال ، فاذا رغب بالاستعانة بأموال مشروع مارشال في اقامة

مؤسسة أو شركة أو مصنع وجب عليه بطبيعة الحال ، وبحسب شروط مارشال ، ان ينال الموافقة المسبقة من المراجع الاميركية .

- أن يسهل على الاحتكارات الاميركية أمر المساهمة في المشاريع الاوربية الدسمة . وبالفعل تضاعفت التوظيفات الاميركية الخاصة في اوروبا الرأسمالية بفضل هذا المشروع .

وهنا يجدر بنا أن نلاحظ أن أموال المساعدة في هذا المشروع تأتي من الخزينة الاميركية ، أي من الشعب الاميركي الذي يمول هذه الخزينة بالضرائب التي يدفعها . أما فوائد هذا المشروع فتعود مباشرة الى جيوب الاحتكارات الامريكية بتسهيل اعمالها هناك ، فان على كل أوربي يستفيد من أموال المشروع لاقامة مؤسسة ما ان يشتري جميع تجهيزات هذه المؤسسة من أميركا ، بأموال المشروع وبأمواله التي يمكن أن يضعها في الاستثمار في المؤسسة فتعود اذن أموال مارشال مع أموال الاوربيين الى جيوب الاحتكاريين الاميركان . ان هذا يعني أن الشعب الاميركي الذي يمول الخزينة الاميركية : دافعة مساعدات مارشال ، والشعوب الاخرى التي تبني اقتصادها الذي خربته الحرب ، كل هذه الشعوب ، تدفع أرباحا خيالية بلعبة مارشال الى الاحتكاريين الاستعماريين الاميركان .

وأخيرا يجب ان لا ننسى أن هذا المشروع كان نقطة الانطلاق في بناء الحلف الاطلسي الاستعماري بزعامة أميركا . هذا الحلف الذي قتلت أسلحته وجنوده مليون جزائري ، والذي هددت قواته شرقنا العربي مرارا وتكرارا .

٤ ـ « المساعدات » العسكرية الاميركية

تشكل المساعدات العسكرية الاميركية موردا ضخما لتجار الاسلحة الاحتكاريين في الولايات المتحدة الاميركية • ذلك لان الدولة التي تقبل بهذه المساعدات مضطرة ، بموجب شروطها ان تشتري من أميركا أسلحة جيشها ، بعد أن ترصد في ميزانيتها لشؤون الدفاع اضعاف المبالغ التي تتناولها من المساعدات المذكورة • فتركيا مثلا مضطرة ، بحكم مسايرتها للسياسة الاستعمارية الاميركية ، لأن تحتفظ بنصف مليون جندي تحت السلاح في أيام السلم • وهي تصرف على التسلح من ميزانيتها مقدار دولارين مقابل كل دولار مساعدة تتناوله من اميركا • ويبلغ ما ترصد لجيشها من الميزانية العامة ، ما يزيد على ٦٠٪ من هذه الميزانية • وبموجب شروط المساعدة يجب عليها ان تشتري كل ما يحتاج اليه جيشها من اسلحة وعتاد وتجهيزات من الولايات المتحدة • أي أن ما تأخذه من مساعدات يعود مع جزء من ميزانيتها الى جيوب الاحتكاريين الاميركان تجار الاسلحة • وهنا يجب ان نلاحظ أن دافع الضرائب في أميركا هو الذي يمول الخزينة التي تدفع المساعدات ، وان دافع الضرائب في تركيا هو الذي يمول ميزانية الجيش ، بينما يقبض الاحتكاريون الاميركان ثمن الاسلحة من أموال المساعدات ومن ميزانية تركيا • يضاف الى ذلك ان هذه الدولة مضطرة لان تقبل ألوف الفنيين الاميركان في جيشها ، ولان تسمح باقامة القواعد العسكرية الاميركية على أراضيها • وهؤلاء الفنيون لا يتوقفون عند حد التدريب العسكري ، بل يتدخلون في الكبيرة والصغيرة ويطلعون

على جميع الاسرار المفيدة لحكومتهم • يضاف الى هذا ، أن خبرة الفنيين لا تنحصر في النواحي الفنية ، بل تتعداها الى أعمال السلب والتهريب وغيره • ان المحكمة العسكرية التركية في أزمير لا تجد متسعا من الوقت لرؤية مئات القضايا الجنائية المرفوعة اليها ضد أولئك « الفنيين » •

ولدينا مثل آخر على هذه المساعدات • انه من بلد عربي • فقد ألقى نوري السعيد في ٢٢ / ٦ / ١٩٥٧ خطابا في مجلس النواب في بغداد ، فقال :

« ••• لقد تأخر برنامج الاعمار بسبب اضطرارنا لاملاء التزاماتنا الناشئة عن قبولنا للمساعدات العسكرية الاميركية ••• »

ان هذه العبارة ، من فم نوري السعيد ، كافية لشرح طبيعة المساعدات الاميركية المزعومة • فأموال الاعمار الضرورية لمشاريع الشعب العراقي المتخلف ، كانت ترافق اموال المساعدات لتذهب الى جيوب الاحتكاريين الاميركان •

يقول الاقتصاديون الاميركان ان سعر الجندي الاجنبي أرخص بكثير من سعر الجندي الاميركي ، فمن مصلحة أميركا ان تساعد على بعث الروح العسكرية في البلاد التي تقبل الارتباط بها • ونحن نرى ان الجندي الاجنبي ليس رخيصا فحسب ، بل هو مصدر أرباح كبيرة لهؤلاء السادة الاستعماريين : انهم يقاتلون بدمه ويسلبون أموال شعبه بحجته • وكل منا يعلم النتائج الوخيمة التي حلت بالشعوب التي رضيت

حكوماتها بمسايرة سياسة أميركا وقبلت المساعدات الاميركية ، العسكرية منها وغير العسكرية ، فالاقتصاد التركي مثلا في أزمة مزمنة ، والليرة التركية التي كانت تعادل ليرة سورية وربع لا تساوي الآن ربع الليرة السورية . ان عبقرية حكام هذا البلد التعيس ، التي تتفتق عن تغطية المنشآت العسكرية تحت قناع « الاجراءات الاجتماعية » ، لخدمة مآرب الاستعمار الاميركي ، تتعطل تماما أمام مسألة التعليم . فقد نشرت الصحف مؤخرا بمناسبة افتتاح المدارس لعام **١٩٦٢ - ١٩٦٣** ، ان في تركيا أكثر من مليون طفل لا يجدون مدرسة لهم في هذا العام ، وهنالك نقص في المدارس الابتدائية يبلغ **١٥٤٧٧** مدرسة ، وتبلغ نسبة الامية في هذا البلد **٦١٪** كما يوجد فيه أكثر من **١٦** مليون أمي .

أما في ايران ، البلد الآخر الذي « ينعم » بالمساعدات الاميركية ولا ينعم ببتروله الذي يسرقه المستعمرون ، فان الناس فيه يتساقطون بالآلاف من الجوع .

٥ ـ أنواع أخرى من المساعدات الاميركية

في عهد الشيشكلي ذهب مندوب سورية الى بيروت ليحضر اجتماع مؤسسة غوث اللاجئين الفلسطينيين . وفي تلك الاثناء ، أي في خريف عام **١٩٥٣** ، كانت سورية تلاقي صعوبات كبيرة في تصريف محصول الحنطة . وقد تلقى المندوب السوري المذكور تعليمات الحكومة السورية كي يبذل كل ما باستطاعته لتشتري مؤسسة الغوث حاجتها من الدقيق من سورية . لقد كانت حجتنا وجيهة : ان المنطقي أن تحصل المؤسسة المذكورة على ما تحتاج اليه من أغذية اللاجئين من البلد الذي

يعيش فيه هؤلاء • وعندما عرض مندوبنا هذا الامر في الاجتماع الآنف الذكر رفضه المندوب الاميركي بفظاظة وهدد بقوله ان حكومته مستعدة لقطع مساهمتها في تمويل مؤسسة الغوث فيما اذا جربت هذه المؤسسة عدم شراء الاغذية من أميركا • وعندما قال المندوب السوري ان المقدار المطلوب شراؤه من حنطتنا لا يتجاوز بضعة آلاف من الاطنان ، وهو مقدار لا يشكل شيئا من الانتاج الاميركي ، بينما يشكل نسبة محسوسة من انتاجنا من هذه المادة ، أجاب المندوب الاميركي ، ان أميركا تهتم بتصريف كل حبة تنبت في بلادها •

لقد كان حكم الشيشكلي حكما خانعا للاميركان كما هو معلوم ، وأميركا هي القوة الاساسية في العالم في دعم بقاء الصهيونية في فلسطين وفي دعم بقاء اللاجئين في بؤسهم مشردين عن وطنهم • ومع ذلك يضن هؤلاء الاميركان علينا ببيع منتوجاتنا الزراعية الى وكالة الغوث • صحيح ان الولايات المتحدة الاميركية تساهم بأكبر نصيب في تمويل هذه الوكالة ، الا أن هنالك دولا أخرى في الامم المتحدة تساهم أيضا في هذا التمويل • وعندما تجبر الوكالة على صرف معظم أموالها في الولايات المتحدة نرى أن المستفيد الوحيد من بؤس وتشرد اللاجئين هو محتكر الاغذية الاميركي اذ تدفع الحكومة الاميركية من أموال الشعب الاميركي مساعدتها الى وكالة الغوث ، وتدفع حكومات أخرى من اموال شعوبها مساعداتها الى هذه الوكالة ، ثم ان معظم ما يتجمع من أموال هذه المساعدات يذهب الى احتكارات الاغذية في أمريكا •

اوتوستراد الخليج العربي

وقد وقع حادث آخر في زمن قريب من زمن القصة الآنفة الذكر •

وملخص هذا الحادث ، ان مندوبي الدول العربية اجتمعوا في القاهرة بدعوة من الامانة العامة للجامعة العربية ، وكان هذا في زمن حكومة الاستاذ سعيد الغزي التي أتت بعد طرد الشيشكلي من سورية • وكان موضوع البحث عرضا أميركيا بانشاء اوتوستراد يخرج من الخليج العربي ويتجه نحو منطقة الجزيرة السورية • وكان يجب أن يتفرع عن هذا الاوتوستراد ثلاثة فروع : فرع يذهب باتجاه لبنان وينتهي بجونية ، وآخر يذهب من جوار حلب باتجاه ميناء اسكندرون ، وثالث يذهب باتجاه الموصل ـ كركوك • ومن هذا يتضح تماما أن الاغراض السلمية بعيدة جدا عن هذا المشروع :

فلأميركا قاعدة عسكرية بحرية في اسكندرون ، وهي تطمح دوما الى أن تقيم قاعدة بحرية لها في خليج جونيه الهادىء ، قرب بيروت •

ـ والخليج العربي هو منطقة ينابيع البترول المستثمر في الشرق الاوسط : بترول السعودية ، والكويت ، والبصرة ، وعبدان والمنطقة الحرة •

ـ وفي الجزيرة ، حيث ينتهي الاوتوستراد ، يوجد البترول السوري •

ـ والفرع الثالث للاوتوستراد ينتهي الى منطقة العراق في كركوك •

أي أن الاوتوستراد العتيد ، ما هو في الواقع الا شريان يصل جميع مناطق بترول الشرق الاوسط بقاعدتين عسكريتين أميركيتين ، في اسكندرون وجونيه : لبنان ، وهو بالاضافة الى هذا يشكل مطارا

جبارا يغطي منطقتنا بأسرها (يمكن استقبال جميع أنواع الطائرات على الاوتوستراد) •

كان العرض الاميركي لبناء هـذا الاوتوستراد يتلخص بـدفع الولايات المتحدة ثلث تكاليف المشروع البالغة ٦٠٠ مليون دولار ، على أن تدفع سورية ولبنان والاردن والعراق الثلثين الباقيين • (٢٠٠ مليون دولار تدفعها أميركا و ٤٠٠ مليون دولار تدفعها البلاد العربيـة المذكورة) • وكان على الدول العربية الآنفة الذكر أن تقوم بصيانة هذا الطريق بعد انشائه ، الامر الذي يكلف العرب على الدوام مصاريف باهظة • ثم ان الولايات المتحدة هي التي تنفذ المشروع بواسطـة شركات الانشاءات الاميركية • وهذا يعني بكل بساطة ان ال ٢٠٠ مليون دولار التي تدفعها الخزينة الاميركية تعود الى جيوب احتكاريي أميركا ، مع ٤٠٠ مليون دولار تدفعها الشعوب العربية الاربعة • وهذه الشعوب التي كان عليها دفع مبلغ يعادل في تلك الايام مجموع موازنتها ، لفتح طريق في صحار خالية ليست لها فيه أية فائدة ، بحاجة الى كل قرش من هذا المبلغ الضخم لتعليم ابنائها ولبناء اقتصادها الوطني أمـا أميركا فلا تحصل مجانا فقط على طريق حربي ضخم وعلى مطـار استراتيجي هائل وعلى قاعدة انطلاق جبارة لنهب ثروات البلاد العربية ، بل ان العرب يدفعون لها أيضا ٤٠٠ مليون دولار • فمن هو الذي يقدم المساعدة الى الآخر نحن أم الاميركان ؟••

ويجدر بنا أن نذكر أن مندوب العراق ومندوب الاردن لم يكونا متحمسين في الاجتماع الآنف الذكر ، لمشروع الاوتوستراد ، الامـر

الذي يعني عدم حماس بريطانيا له ويبين بالتالي التناقض الاستعماري البريطاني الاميركي • فأميركا كانت وما زالت تتلمظ لمنظر ما يصيب شريكتها انجلترة من نهب بترول العرب ، وتتمنى لو انها تنفرد لوحدها بوضع اليد على هذه الثروة البترولية الهائلة • ان طعم النصر الـذي حققته في ايران « بتشليح » الشريكة حصتها ، يتجدد أبدا مع كل برميل ينبع في عبدان من الذهب الاسود •

ملاحظة : كان حماس المندوب المصري لقبول مشروع الاوتوستراد كبيرا جدا ، في اجتماع المندوبين العرب في الجامعة العربية • والمـرء يتعجب كثيرا في تلك الايام من حماس بلد كمصر لهذا المشروع الذي يبعد كثيرا عن أراضيها • الا ان العجب يزول عندما نعلم أن عبد الناصر كان قد صفى اللواء نجيب في ذلك الوقت ، وأقام حكمه الديكتاتوري الخانع للمشاريع الاميركية في البلاد العربية • ونحن نعلم الآن أن عبد الناصر كان يضغط في تلك الايام بالذات ، أيام حكومة الغـزي المذكورة ، على الدول العربية المجاورة لاسرائيل لتقبل هـذه الدول مشروع جونستون الاميركي ـ الاسرائيلي • وقد رفضت سوريـة مشروع الاوتوستراد كما رفضت مشروع جونستون •

٦ ـ بترول العرب

ان نصف احتياطي البترول في العالم مدفون في الارض العربية • يضاف الى هذا أن تكاليف استخراج البرميل الواحد في البلاد العربية لا تتجاوز ١٠ سنتات ، بينما تبلغ هذه التكاليف ٧٨ سنتا في الولايات

المتحـدة و ٤٣ سنتا في أميركا اللاتينية • وقد بلغ متوسط انتاج البئر الواحدة كل يوم :

- ٤٠٠٠ برميل في المنطقة العربية •
- ٢٣٠ برميلا في فنزويلا •
- ١١ برميلا في الولايات المتحدة الاميركية •

(انظر بترول العرب لمحمود الشرقاوي)

حاولت انجلترة ، بعد الحرب العالمية الاولى ، ان تقتسم بترول منطقة الشرق الاوسط مع كل من فرانسا وهولندا ، على أن يكون لها حصة الاسد ، وان تبعد الولايات المتحدة الاميركية ، المنافس الخطر ، عن هذه الشركة • فبموجب اتفاقية سان ريمو المعقودة في ٢٤ نيسان ١٩٢٠ ، استولت فرانسا على حصة ألمانيا ، المهزومة في الحرب العالمية الاولى ، من شركة نفط العراق (شركة البترول التركية سابقا) ، وتقدر هذه الحصة بمقدار ٢٥٪ من مجموع الاسهم • بينما بقيت معظم الاسهم الباقية ملكا لبريطانيا ، وأخذت هولندة حصة لائقة • وقـد احتجت الولايات المتحدة بعنف على هذه « الانانية » المفرطة من جانب حلفائها ، وعلى رأسهم انجلترة ، اذ لم يترك لها هؤلاء الحلفاء أيـة حصة من الغنيمة الدسمة • ومع أن أميركا لم تكن ، في تلك الظروف ، ظروف ما بعد الحرب العالمية الاولى ، من القوة العسكرية بالقـدر الكافي لفرض « هيبتها على آلهة الحرب الفرنسيين والانجليز » ، ولتحتل المكان الاول مكان بريطانيا ، في النهب الاستعماري للمنطقة العربية ، فان بريطانيا هذه قبلت تحت ضغط الدولار أن تتنازل لها في النهاية عن

جزء من حصتهـــا • وتمضي الايام ، ويظهر معها تصدع الجملة الاستعمارية القديمة ، ويزداد تسلل الاحتكارات الاميركية البترولية في مناطق الشرق الاوسط ، في السعودية والبحرين والكويت وتركيا • ولم تكد الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها ، حتى بتنا نرى أن أميركا تأتي في الطليعة مع بريطانيا في نهب البترول العربي والايراني • وفي هذا الوقت أصبحت الولايات المتحدة الاميركية أول دولة عسكرية في العالم الرأسمالي وزعيمة هذا العـــالم ورائدته • لذلك أصبحت وسائلها في الصراع الوحشي مع غريمتها بريطانيا على نهب ثروات الشرق الاوسط تختلف كثيرا عما كانت عليه في عام ١٩٢٠ • انها تطمح الآن ، بعد أن « شلحت » بريطانيا بترول عبدان ، لان تضع يدها على بترول الجزائر ، ولان تستقل دون المستعمرين الاخرين بمعظم البتـــرول العربي ، ان لم نقل كله •

كتب المستر هارولد اكس ، رئيس هيئة احتياطيات البتـــرول الاميركية ، في « المجلة الاميركية » :

« •• اذا كان علينـــا أن نحافظ على حضارتنـــا (الحضـــارة هنـــا تعني الارباح الاسطورية) على أساس البترول فواجب علينا أن نكون على استعداد للسير نحو المناطق التي يتوافر فيها البترول ••

ان عاصمة البترول تتجـه نحو الشرق ، وخير للولايات المتحـــدة أن تسرع بالدخول في هذه الامبراطورية • وحتى يتسنى لهـا ادراك

هذه الغاية يتعين عليها أن ترسم لنفسها سياسة بصدد مسائل البترول » .

ويقول المستر برتون ، عضو مجلس الشيوخ الاميركي :

« ان الشرق الاوسط وافريقية ، ميدان ثابت وطيد لسياسة انشائية حازمة من جانب الولايات المتحدة » .

ان ٧٠٪ من احتياجات بريطانيا البترولية تسد من بترول الشرق الاوسط . وتبلغ أرباح الاحتكارات الانجليزية من بترول منطقة الخليج العربي فقط مبلغ ٦٠٠ مليون دولار سنويا . أما الشركات الاميركية فقد اعترفت بأرباح من بترول منطقة الشرق الاوسط ، في الفترة المنقضية بين تأسيس اسرائيل عام **١٩٤٨** وبين عام **١٩٥٨** ، بلغت **١٠** مليارات دولار . وتتجاوز هذه الارباح حاليا المليار دولار سنويا بينما يبلغ مجموع ما تنهبه الاحتكارات الاستعمارية الاميركية من القارة الافريقية كلها ٤٥٠ مليون دولار سنويا ، أي أقل من نصف أرباح بترولنا المنهوب . أما ما تتناوله اسرائيل من مختلف المساعدات الامريكية والالمانية الغربية فيبلغ في المتوسط ٢٠٠ مليون دولار سنويا . الا أن هذه المبالغ لا يدفعها روكفلر ، الذي تستولي شركاته على أرباح تتجاوز المليار دولار سنويا من بترولنا ، بل تدفعها الخزينة الاميركية والخزينة الالمانية الغربية . أي أن هذا الاجير الذي هو اسرائيل ، والذي يساعده الاستعمار الاميركي على البقاء بكل وسيلة ليؤخرنا عن بناء بلادنا ويطعننا في الظهر كلما رغب الاستعمار بذلك وكلما اقتربنا

من الحصول على حقوقنا منه ، أجير نشيط ومجاني بالنسبة لآل روكفلر ، وبالنسبة للسياسة الاستعمارية في المنطقة .

وعندما سدت قناة السويس ، ونسفت أنابيب البترول المارة في سورية ، أثر العدوان الاستعماري على قناة السويس ، كادت تتوقف الحركة في أوربا الغربية ، التي عادت الى القرن التاسع عشر في أساليب الحصول على القوة الحرارية . فالصناعة الحديثة لا تتمكن من الوقوف على رجليها وتصاب بالشلل التام عندما تحرم من البترول . لذلك كان احتكار هذه المادة موضع صراع وحشي بين الدول الاستعمارية : ان من يحلم باحتكار البترول بمفرده في العالم ، يفسر حلمه برغبة متأصلة في نفسه لبسط نفوذ لا حدود له على الصناعة الرأسمالية . فلو ان أميركا مثلا تمكنت من تشليح انجلترة حصصها من بترول العرب ، كما فعلت بها في ايران ، لاصبحت هذه اكثر طواعية وخضوعا لها . ثم ان الفرنسيين الواقعين تحت رحمة أميركا وانجلترة في سد حاجاتهم من البترول يرجون الكثير من بترول الجزائر . الا أن الاميركان يضعون أنوفهم أثرهم أيضا في هذه المنطقة ، وهم يرجون حرمانهم من تحقيق هذه الاحلام السعيدة .

عبد الناصر يفتح خليج العقبة للبترول الاميركي

ان موافقة عبد الناصر على فتح خليج العقبة للتجارة الاسرائيلية لها نتائجها أيضا على تطور قضايا البترول في المنطقة . فقد مددت شركات روتشيلد ، ذات العلاقات الوثيقة جدا باحتكارات البترول الاميركية ، خطا للانابيب من ميناء ايلات الاسرائيلي على العقبة الى ميناء اسدود

الاسرائيلي على البحر المتوسط . فأصبح بامكان الناقلات الاميركية الضخمة من حمولة ٩٠ الف طن ، الناقلات التي لا تستطيع حاليا أن تمر عبر قناة السويس ، لان ارتفاع غاطسها ، أو الجزء الغاطس منها تحت الماء ، كبير على عمق القناة ، نقول أصبح بامكان هذه الناقلات أن تفرغ بترولها في ايلات لينتقل هذا البترول عبر الانابيب الآنفة الذكر الى ناقلات أخرى في البحر الابيض المتوسط .

وقد يظن البعض ان هذا العمل مزاحمة لقناة السويس التي يشكل وارد مرور ناقلات الزيت عبرها ٩٠٪ من وارداتها السنوية . ان هذا صحيح في حالة وجود حكم معاد للاستعمار الاميركي في مصر . ففي هذه الحالة تصبح أنابيب روتشيلد الاسرائيلية وسيلة ضغط اقتصادي على مصر ، بالاضافة الى الجيش الاسرائيلي الذي هو وسيلة ضغط عسكري . الا أن السياسة البترولية الاستعمارية تتجه نحو استنزاف أكبر كمية من البترول العربي في السنوات القريبة ، ذلك لان الاستعمار يخشى حركة التحرر في هذه المنطقة ويخشى بالتالي عودة البترول الى أصحابه . أضف الى هذا أن التقدم الصناعي الهائل يتطلب أكثر فأكثر استعمال الاستطاعة الحرارية البترولية ، أي أن هنالك امكانات كبيرة لتحقيق المزيد من الارباح الخيالية لاحتكارات البترول . فاذا لم يكن هنالك حكم معاد للاستعمار في مصر ، فان من مصلحة تلك الاحتكارات أن تستعمل أنابيب روتشيلد وقناة السويس معا في نضح بترول الشرق الاوسط . وحكم عبد الناصر ليس معاديا للاستعمار الاميركي .

جملة الاستعمار الحديث وتناقضاتها

أمريكا وجه الاستعمار الحديث

يمثل الاستعمار الاميركي الوجه الصحيح للاستعمار الحديث .
وان الامثلة السابقة لا تكفي في الواقع لاعطاء الفكرة الكاملة عن وحشية وشراسة هذا الاستعمار ، ولا تكفي لتعريف طبيعته تعريفا دقيقا ، وان أعطت لمحات ذات دلالة كبيرة عن هذه الطبيعة . ولو أن البحث الذي نحن في صدده يقتصر فقط على هذا الاستعمار ، لكان علينا ان نكتب الكثير والكثير عنه . ثم ان الدول الاستعمارية الاخرى ليست بريئة من الصفة الاستعمارية الحديثة ، من الطراز الاميركي : الاعتراف بالاستقلال سياسيا وسلبه اقتصاديا ، أو الاعتراف بالاستقلال شكليا وسلبه عمليا بايصال العملاء الى الحكم ومساندتهم . وهذا أمر طبيعي ، لان جميع المستعمرات القديمة قد استقلت أو هي في طريقها الى الاستقلال ، وسوف لا يبقى بلد محروم من استقلاله السياسي ، فلا بد للمستعمرين القدماء ، من أن يغيروا جلودهم ليسايروا تطورات العصر مع ضمان استمرار نهبهم للبلاد المتخلفة ، أي لا بد لهم من ان يتزيوا بزي الاستعمار الحديث . الا أن هذه الدول القديمة لا تزال واقعة تحت تأثير قوي جدا لعقلية استعمارية قديمة بالية : عقلية الاعتماد على الفئات المفضوحة جدا من سكان البلاد المتخلفة لابقاء النفوذ الاستعماري في هذه البلاد ، مع مسلك غير مرن للمستعمرين يستند الى التقليد البالي أكثر مما يستند الى الواقع . أضف الى هذا أن التطور التاريخي لم يترك لهؤلاء المستعمرين المهلة الكافية ولا القدرة الكافية لاقامة كل ما يلزم من الترتيبات المادية الضرورية لممارسة سياسة استعمارية جديدة .

ان الاستعمار الاميركي ، على عكس ما يتصوره البسطاء من الناس ، هو من أشد أنواع الاستعمار دهاء ولؤما ، بالمقارنة مع المستعمرين الآخرين ، كالانجليز والفرنسيين والالمانيين الغربيين والهولنديين وغيرهم ، على ما يتصف به هؤلاء من مكر ولؤم كبيرين • فهو يخصص المبالغ الطائلة على جملة متماسكة من المؤسسات التي تقوم بمختلف الدراسات العلمية في الاقتصاد والسياسة وعلم النفس والدعاية والتجسس والتخريب الخ •• ونحن لا نبالغ أبدا اذا قلنا أن ما تصرفه الولايات المتحدة الاميركية على الحرب الباردة الاستعمارية ، الحرب الموجهة الى البلاد المتخلفة لنهبها بحجة مقاومة المعسكر الاشتراكي ، يتجاوز بكثير ربع ميزانية جيشها التي تبلغ سنويا مقدار ٥٠ مليار دولار • ولا نبالغ اذا قلنا ان المؤسسات المختصة في الولايات المتحدة تملك معلومات تامة وجديدة عن كل بلد في العالم الرأسمالي ، المتقدم والمتخلف • وتصل هذه المعلومات الى درجة السؤال عن الاشخاص الثانويين الذين يمكن أن يكون لهم شأن ، ولو صغير ، في حكومة بلدهم : ان ضابط شرطة صغير مثلا ، في بلد متخلف او متقدم ، له شأن في المخطط العام الاستعماري الاميركي ، شأن ايجابي أو سلبي ، لا فرق • وليس من العجيب مثلا ان تجد السفارة الاميركية في بلد صغير تعج بمئات الموظفين تحت مختلف الاسماء والنعوت ، وهم في الواقع لا يعملون الا في جمع المعلومات عن البلد الذين هم فيه ، ثم رفع هذه المعلومات الى مراجعهم في المنطقة ، التي تتصل بدورها ، اذا لزم الامر ، بالمراجع العليا في واشنطن ، بتلك المؤسسات الرئيسية الانفة الذكر ، المؤسسات التي تقوم بتحليل كل ما

يردها ثم باصدار ردود الفعل اللازمة • وعلى العكس فان لكل من هؤلاء الموظفين في السفارات (أو غيرها من المؤسسات الاميركية كمؤسسة النقطة الرابعة ، أو من مؤسسات المساعدة الاميركية) دوره في التآمر على سلامة البلد الذي هو فيه ، عندما تكون حكومة هذا الاخير غير طيعة لهم ، أو لدعم السلطات القائمة ، عندما تكون هذه طيعة •

يقول وليم ج• ليديرر ، في كتابه « أمة من خراف » في معرض شكواه من تقصير جواسيس دولته المنتشرين في فرموزة :

« ••• اننا أنا وأنت لا ندرك حركة الاضطراب التي جرت في فرموزة في هذه الصورة أو تلك • ولكن لنا مئات الموظفين الاميركيين ممن يعيشون في تلك الجزيرة • فوظيفة هؤلاء الاساسية أن يعرفوا ما يجري حولهم •• ووكالة الصحافة المتحدة الاستشيتدبرس عندها مراسل ضليع في مهمته ، موجود في فرموزة على مقربة من جميع الاحداث ، وهو الى ذلك مكلف باطلاع الولايات المتحدة الاميركية على كل ما يجري •• »

ان الاستعماريين القدماء (الذين يحاولون اليوم أن يتزيوا بزي الاستعمار الحديث ، بعد فقدهم مستعمراتهم بنتيجة نضال الشعوب وتطور العصر) ، بالنسبة الى الاميركان ، كأهل الحرفة في القرون الوسطى بالنسبة الى رأسماليي هذا العصر • انهم يعتمدون على ما لديهم من تقليد وتجربة ، ولا يملكون كل تلك المؤسسات التي تقدم للاستعمار الاميركي أكوام الدراسات الموضوعية • فالدنيا بتغير مستمر ، والتجربة

وحدها لا تكفي ان لم يرافقها البحث الذي ينبىء بتغيرات الواقع . لذلك نجـد الانجليز والفرنسيين ومن هم عـلى شاكلتهم يبنون سياستهم الاستعمارية على العرجان من القبائل المتخلفة والاقطاعية المتفسخة . ونجدهم أبدا ينحسرون عن مناطق نفوذهم القديم يلاحقهم الخزي والعار ولعنة الشعوب . ولا يعني هذا ان الانسانيـة تتقبل الاستعمار الاميركي عن طيبة خاطر . ان الاستعمار يبقى أبـدا عنوان الهمجية والعدوان على حقوق الشعوب وأمنها . ويكفينا ما أشرنا اليه قبلا عن الملامح الشنيعة لهذا الاستعمار البشري .

وفي هذا العصر الذي تعصف فيه رياح التحرر بشدة ، حتى تكاد تقتلع من جذوره كل شكل للاستعمار ، من قديمه وحديثه ، لا تتمكن دولة استعمارية وحدها من الوقوف في وجه الموجات المتلاحقة لتقـدم الشعوب و تقدم الانسانية بأسرها . ولا بد لكل مستعمر من ان يستند الى جملة استعمارية تسند سياسته في التآمر على الشعوب ، وذلك مهما كان هذا المستعمر قويا وجبارا . أي لا بد للمستعمرين من ان يتفقوا على أمر اساسي ، هو ضرورة وقف تقدم الشعوب من أجل استمرار امكانية النهب الاستعماري ، ومن أجل أن ينظموا أمورهم على هـذا الاساس في كل أنحاء العالم ، وان اختلفوا فيما بعد على اقتسام الغنائم . ذلك لان المهم بالنسبة للمستعمر هو استمرار جو النهب : نهب العالم باتفاقهم فيما بينهم ، ثم نهب بعضهم بعضا . وبالفعل ، نجد أن الدول الاستعمارية سارت ، منذ نهايـة الحرب العالميـة الاخيرة ، في طريق التكتل ، بعضها مع البعض الآخر ، ضد جميع حركات التقدم والتحرر

في العالم • فقامت فيما بينها الاحلاف العسكرية العدوانية والتكتلات الاقتصادية والاسواق المشتركة الخ •• وذلك تحت زعامةأقواها واعتاها ، الولايات المتحدة الاميركية ، وقد رأينا فيما سبق من البحث كيف توصلت هذه الدولة عمليا الى هذه الزعامة •

قاد الاستعمار الاميركي جملة الاستعمار الحديث ، الجملة التي تضم كل الدول الاستعمارية ، الى شن جميع الحروب الاستعمارية ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى اليوم • وقد تكلفت الانسانية من جراء هذه الحروب (في أيام السلم •••) أكثر من ثلاثة ملايين قتيل : في الجزائر وفي أفريقيا البرتغالية وفي الهند الصينية وفي كوريا وفي الصين الخ •• ثم ان هذا الاستعمار ينزح من شتى أنحاء العالم المتخلف من الثروات والقيم ما يفوق بكثير ما تنزحه جميع الدول الاستعمارية الاخرى مجتمعة • وهو لهذا يبتكر على الدوام أكواما من الوسائل والحيل لخداع وتخدير الكثيرين من الناس في العالم • انه يبتكر الكثير من الطرق لنسف كل ما هو شريف وبناء في العديد من بلاد العالم • وهو يتصرف في كل مرة على حسب الحالة الراهنة التي تظهر له بنتيجة الدراسات الموضوعية :

فهو تارة يحالف الفئات المتخلفة من الاقطاعية عندما تكون هذه قوية ومتحكمة ، وليس لمجرد كونها الطبقة الحاكمة الكلاسيكية • وعندما يبدو له ان هذه الفئات الرجعية تتجه الى الزوال تجده سرعان ما يتخلى عنها الى غيرها ، بل انه يساهم في تدميرها وقتلها وتشريدها كما فعل بفاروق وحاشيته في مصر ، وكما فعل بمندريس

وجماعته في تركيا ، وكما فعل بسينغمان ري في كوريا . وتارة اخرى تجده يحاول خداع اصحاب رؤوس الاموال الوطنيـة لينفـذ فيهم وينحرف سيرهم الطبيعي في البناء والتقدم ، ثم ليبقي منهم قلة تغتني بمساعدته على حساب خراب الآخرين ، تماما كما فعل ويفعل في أميركا اللاتينية . ومرة نجده يحالف الانتهازيين الذين يحملون الشعارات البراقة الزائفة ، الشعارات التي يصل زيفها الى ادعاء الاشتراكية والديموقراطية والحرية ، ليجعل منهم مخلوقات فاشستية تنقض على أبناء وطنهم لتنهش فيهم وفي أعراضهم وكراماتهم ، في الوقت الذي تقدم فيه له أجل الخدمات في فتح وطنهـا أمام رؤوس أمواله وأمام أطماعه الاخرى الخ ..

تناقضات الاستعمار

وصحيح أن الاستعمار يشكل جملة واحدة ضد تقدم الانسانية ، وانه يخضع الى زعامة الاميركيين ، السياسية والاقتصادية والعسكرية . لكن هذا لا يعني ان تلك الجملة الاستعمارية متماسكة فيما بين أجزائها المختلفة ، الاجزاء التي هي دول استعمارية متباينة ومختلفة الاطماع . فالاستعمار يشكل جملة متناقضة ومتهافتة بزعامة أميركا . انه يحمل في طياته ، وأمام الانسانية الزاحفة أبدا الى الامام وتحت الضربات الساحقة التي تنزلها به الشعوب ، عوامل موته وزواله .

ان الاحتكارات في بلد واحد في أميركا مثلا ، تتزاحم فيما بينها على الارباح وعلى الاسلاب الاستعمارية الى درجة التوحش في افتراس بعضها البعض . وتتزاحم الشركات ضمن الاحتكار الواحد على اقتسام الغنائم ،

فهي لاتنضوي تحت علم الاحتكار الذي يضمها الا في غاية ابقاء هـــذه الغنائم ضمن هذه الاحتكار ومنعها من التسرب الى احتكار آخر ، وليس لتوزيعها بالعدل فيما بينها • وتنتهي عمليات التزاحم هذه بين احتكارات وشركات ومشاريع البلد الواحد الى تمركز الاقتصاد في أيدي نفر ضئيل من عمالقة الاحتكاريين : (يفوز الاقوياء دوما في ظروف التزاحم ، فيصعدون باستمرار •)

قلنا فيما سبق ان ثماني عائلات في الولايات المتحدة الاميركيـة تشرف على الاقتصاد الاميركي بأجمعه ، فلا يفلت من اشرافها أي نشاط اقتصادي ، مهما كان تافها هذا النشاط • ان « الديومفيرا » (وتعني سلطة الاثنين) ، التي تتألف من عائلتي روكفلر ومورغن ، والتي تعرف في الولايات المتحدة بهذا الاسم ، تشرف على احتكارات وشركات ومشاريع ومصارف يغطي نشاطها اكثر من ثلثي النشاط الاقتصادي للولايات المتحدة الاميركية • أما روكفلر فانه يشرف وحده على احتكارات ومؤسسات اقتصادية تقدر رؤوس اموالها بمبلغ ٦٥٠ مليار دولار ، أي ما يوازي تقريبا ثلاثة أضعاف الدخل القومي للولايات المتحدة • بينما لا تتجاوز الثروة العائلية لال روكفلر مبلغ ٦٥ مليار دولار ، أي عشر رؤوس الاموال الخاضعة لهذه العائلة عن طريق نظام الاحتكار •

(أخذنا هذه المعلومات من بحث بعنوان « الطفيلية » في اقتصاد الولايات المتحدة الاقتصادي الاميركي فيكتور بيرنو ، المستشار الاقتصادي للرئيس روزفلت) •

وفي فرانسا يفهم من كلمة المائتي عائلة معنى تبعيـة اقتصـاد هذا البلد لاشراف هذا العدد المحدود من العائلات • وفي انجلترة والمانيا

الغربية يخضع الاقتصاد ، في كل منهما ، الى عدد من العائلات لا يتجاوز العشرات • والجدير بالانتباه ان تمركز الاقتصاد ، بأيدي نفر قليل من الناس ، يشتد مع الاغراق في اسلوب الاحتكار الاستعماري ، فتأتي الولايات المتحدة أولا ، ثم انجلترة وألمانيا الغربية ، ثم فرنسا •

ومن الطبيعي ان لا يكون بقية الرأسماليين من غير الاحتكاريين ، من صناعيين وتجار ومساهمين متوسطين وصغار الخ •• في البلاد الاستعمارية المار ذكرها ، مسرورين من هذا التمركز الهائل في اقتصاد بلدهم بحيث تتجه الفوائد والارباح دوما نحو قمة الهرم • ومما لا شك فيه أن هؤلاء لا يتبعون كثيرا قواعد الانضباط باطاعة « الكبار » طاعة عمياء ، بل انهم يفعلون كل مابوسعهم لعرقلة خطط ملوكهم الاحتكاريين ، علهم يتمكنون من ايقاف سير بعض الارباح في اتجاه قمة الهرم وتوجيه هذا السير الى انفسهم • فتدب الفوضى في قواعد وأجسام الاهرامات الاحتكارية العملاقة ، لان الاكثرية الساحقة من الناس الذين يساهمون في بناء هذه الاهرامات يتأذون من جشع الاحتكاريين الجالسين على القمم • فاذا أضفنا الى هذا شدة التناقض بين مختلف الاحتكارات والشركات ، التناقض الذي أشرنا اليه آنفا واذا أضفنا التناقضات الفنية الناشئة عن ركض الجميع وراء الربح ، وليس وراء المصلحة العامة للاقتصاد الوطني في البلد ، اتضحت لنا صورة اقتصاد استعماري ضخم تهزه التناقضات وتسير به نحو اجله المحتوم •

ان التناقض بين احتكارات تنتمي الى دول استعمارية مختلفة يأخذ

شكل الخصومة بين دولتين استعماريتين أو أكثر . فكل من بريطانيا وأميركا مثلا يشترك في كونسرسيوم عالمي واحد يحتكر بترول العالم الرأسمالي بأجمعه تقريبا . الا أن هذه الشركة لا تمنع التنافس حتى الموت بين احتكارات البترول الاميركية وبين احتكارات البترول الانجليزية في الكونسرسيوم المذكور . ويتبع هذا التنافس اجراءات سياسية تتخذ من قبل دولة كل فريق ضد دولة الفريق الاخر . فأميركا مثلا نسفت حكم مصدق في ايران لتضع على رأس الحكم في هذا البلد عميلا سلمها حصص انجلتره في بترول عبدان ، الحصص التي أممها مصدق وأعادها الى الشعب الايراني . ولا تزال أميركا تلاحق انجلتره في منطقة الشرق الاوسط ، علها تحرمها من نصيبها في نهب هذه المنطقة .

وهنالك مثل آخر على درجة كبيرة من الاهمية ، يتعلق بثروات الكونغو الهائلة من الاورانيوم والنحاس ، فعلى اثر احتلال بلجيكا في الحرب العالمية الماضية من قبل الالمان ، التجأ مجلس ادارة شركة التعدين البلجيكية من كتنغا من بروكسل الى لندن . وكان هذا بمثابة هدية حسنة وغير منتظرة للاحتكاريين الانجليز ، وتعزية جميلة لهم عن الهزائم المنكرة التي كانت تنزل بجيوش بلادهم أمام الغزو الهتلري . وسرعان ما احتلت انجلترة مستعمرة الكونغو ، كي لا تقع في أيدي « الاعداء » البعيدين جدا : بعد المانيا عن الكونغو .. وفي النتيجة انتقلت ملكية نسبة كبيرة من أسهم شركة التعدين البلجيكية في كتنغا من أيدي الاحتكاريين الاستعماريين البلجيكيين الى أيدي الاستعماريين الانجليز . ولم يكن الامريكان مسرورين كثيرا من هذه العملية ، فاذا كان للبترول أهمية

صناعية فائقة في أيامنا هذه ، فان للاورانيوم والذرة مستقبلا لا يمكن التغاضي عنه ، بالاضافة الى خطورة استعمالات هذا المعدن في الجيوش الحديثة ، الاستعمالات التي تدر المليارات من الدولارات على الاحتكاريين تجار أسلحة الدمار الشامل • اما النحاس فهو ابدا معدن ثمين جدا •

ثار الشعب الكونغولي وأجبر البلجيكيين ، في النهاية ، على الخروج من بلاده • ونشطت شهية الاحتكارات الاميركية التي وجدت في تلك الفترة الحرجة ، في الايام الاولى لاستقلال الكونغو وقبل توطد استقلال هذا البلد ، فرصة حسنة لاجهاض هذا الاستقلال وربط الكونغو بعجلة الاستعمار الاميركي • وذلك بأمل تصفية البلجيكين والبريطانيين ، لا لحساب شعب الكونغو ، بل لحساب الاحتكار الاميركي ، الطامع في الاورانيوم والنحاس • وسرعان ما تنبه الاستعمار الانجلو بلجيكي الى الخطر الاميركي المميت • الا انه كان هنالك خطر عام على اطماع جميع المستعمرين ، الاميركان والبريطانيين والبلجيكيين : شعب الكونغو بقيادة باتريس لومومبا • فاتفق ، من جهة ، جميع هؤلاء المستعمرين على القضاء على الحكم الوطني الكونغولي الغض ، بقتل لومومبا مع عدد من صحبه ، وبتشتيت كل العناصر الوطنية • ومن جهة ثانية ، وفي ذات الوقت ، أخذت كل فئة من هاتين الفئتين الاستعماريتين ، فئة الاميركان وفئة الانجلو بلجيكيين ، تعمل على توطيد مراكزها بانتظار المعركة المقبلة بينهما • فأميركا التي اشتركت مع أصدقائها اللدودين ، الانجليز والبلجيك ، في قتل لومومبا وصحبه تحت راية الامم المتحدة وبمساعدة همرشولد ، استعملت هذه الراية لاقامة حكم أجير لها بقيادة شقيين ، كازافوبو

وموبوتو . الا أن الانجليز والبلجيك كانوا قد ساعدوا شقيا ثالثا ، تشومبي ، ينقذون به ثروات كتنغا . وبالفعل فان هذا الشقي الاخير كان قد أعلن انفصال كتنغا ، التي تحوي جميع ثروات الكونغو الهامة وعلى الاخص الاورانيوم والنحاس ، عن بقية اجزاء الكونغو منذ الايام الاولى لقيام حكم لومومبا . ان أمريكا بهذا لا تحصل الا على قبض الريح من مغامرة الكونغو ، وهي لا تنام على الضيم ، وراية الامم المتحدة ما زالت بيدها ، وهمرشولد خادم أمين مطيع . وتطورت الاحداث ، وكاد تشومبي يسقط تحت ضغط قوات الامم المتحدة وفي شباك مناورات همرشولد . الا أن العمالقة الاستعماريين ، الذين يسفكون دماء عشرات الملايين لصيانة اسلابهم ، لا يتوقفون عند دم السيد همرشولد عندما يهدد مصالحهم ، ولو كان هذا السيد امينا عاما للامم المتحدة . وكلنا نعلم الظروف التي قتل فيها الانجليز هذا العميل الاميركي . ثم ان مسألة كتنغا ما زالت حتى الآن بدون حل ، وما زال الانجليز يتلقون الضربات على أيديهم من الاميركان ليفلتوا ما يمسكونه من ثروات طائلة في هذه المقاطعة .

ان تاريخ الاستعمار هو تاريخ صراع الاحتكاريين على سلب ونهب الشعوب ، وليس بوسعنا الآن أن نسرد اكثر مما سردنا من الامثلة على ذلك . الا أنه بامكاننا القول أن الهرم الاستعماري ، الذي تقف أميركا اليوم في قمته يتزعزع تحت ضربات الشعوب وبسبب التناقضات التي تنهش في احشائه ، وذلك على الرغم من ضخامته وخطورته بالنسبة الى أمن بني الانسان .

اخلاق المجتمع الاحتكاري الاستعماري

في يوم الاربعاء ١٠ تشرين أول ١٩٦٢ ، كان بامكان قراء الصحف في سورية أن يطالعوا الخبر التالي :

« قام خمسة الاف من رجال البوليس الياباني باعتقال ٩٩٨ شخصا يعملون في تهريب المخدرات بواسطة الطائرات وملاحي السفن في أنحاء العالم ، وهم جزء من عصابة تهريب تضم ١٦٢٤٦٠ عضوا موزعين على مئات منظمات التهريب » .

ان أعمال اللصوصية الغانغسترية تزدهر في المجتمعات التي يزدهر فيها الاقتصاد الاحتكاري الاستعماري . وليس من قبيل الصدفة مثلا ان تشتهر أميركا بعصابات ـ الغانغستر الرهيبة . ان القاعدة الاخلاقية الاساسية في اقتصاد كهذا هي : كل ما هو نافع حسن ، بغض النظر عن الوسلية وعن الاسباب . ونحن هنا لا نستنتج هذه القاعدة استنتاجا من سياق الحديث ، بل نردد القاعدة الاساسية في الفلسفة البرغماتية السائدة في المدرسة الاميركية التي تخضع للنفوذ الاحتكاري الاستعماري وتقوم بخدمة الاستعماريين . ومثل هذه القاعدة تنتشر في أميركا قاعدة أخرى : الاعمال هي الاعمال . يعني ان الاعمال ، بحسب رأي سادة هذا المجتمع ، لا تتعلق الا بذاتها ، فلا تخضع لذلك الى قواعد الشرف والاخلاق ، ولا ترتبط بمصالح الانسان كانسان : انها الربح بغض النظر عن جميع نتائجه الاجتماعية السيئة أو الحسنة . ومن الطبيعي أن يؤدي هذا التساهل في اخلاق التعامل الى أوخم العواقب الاجتماعية ، فلا يرى

بعض الناس في طلب المنفعة الحرام أية غضاضة • وليس من العجيب لذلك ان نجد تلك اللجنة الفدرالية المزمنة ، التي أوكل اليها مهام التحقيق في أسباب ومدى انتشار الاجرام في الولايات المتحدة ، تغرق في أكوام من الفضائح والعجائب الاجرامية • وفي احدى صحواتها ، في عام ١٩٥١ ، تبين أن نفوذ العصابات يبلغ حدا مذهلا : قضاة كبار وصغار ، ومحامون ، وأطباء ورجال أمن كبـار وصغار ، وشيوخ ونواب الخ •• ينتمون الى عصابات السطو والقتل • بل ان تنظيم العصابات بلغ درجة كبيرة أصبحت معهـا الغانغسترية أحـد أوجـه السلطة المتعـددة في هذه البلاد •

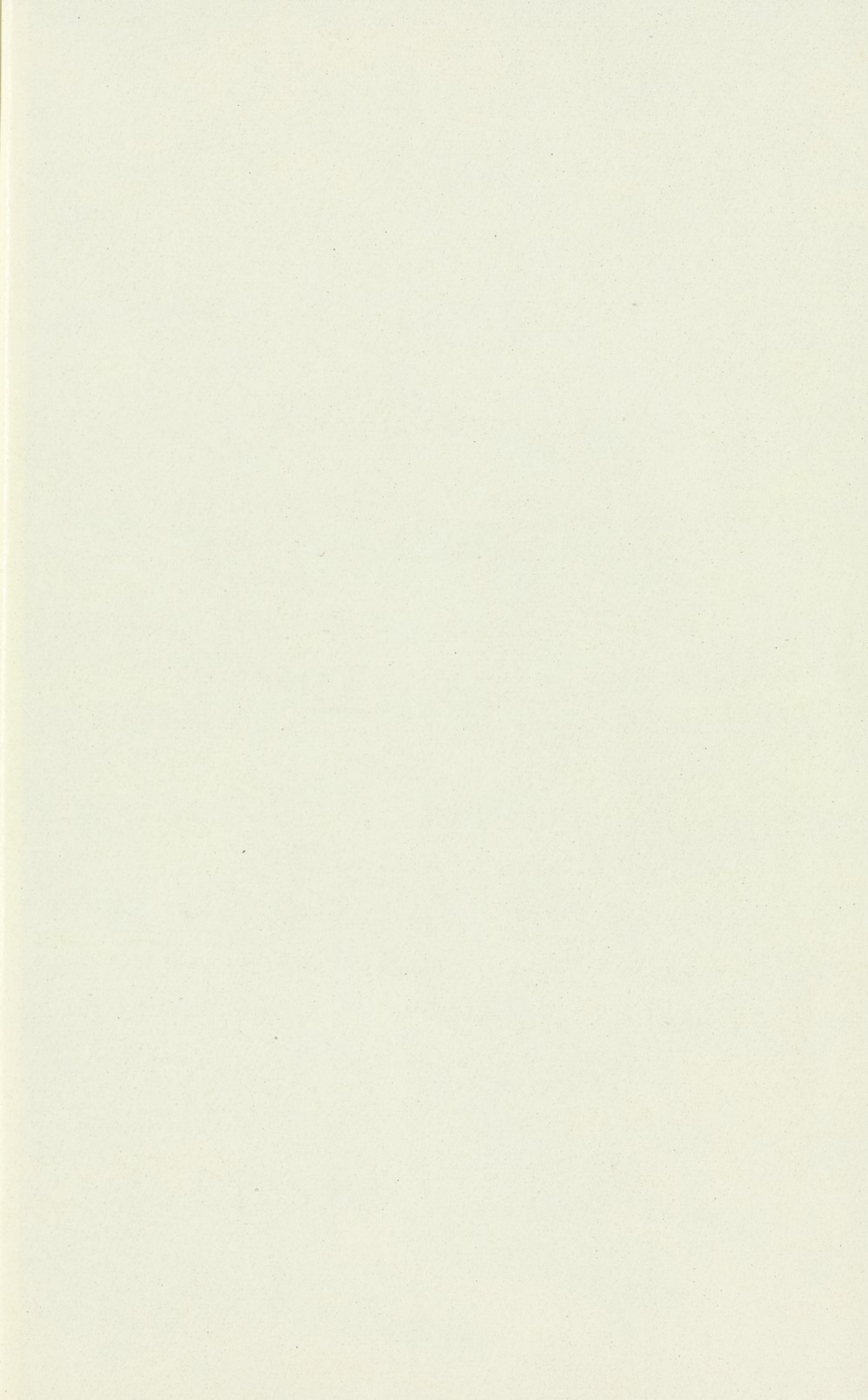
ان ديوي حاكم ولاية نيويورك ، والسلف المباشر لنلسون روكفلر ، الحاكم الحالي لهذه الولاية ، كان يتحالف مع العصابات لضمان الاصوات التي توصله الى حكم الولاية ، و كان يتشارك مع هذه العصابات « لتسيير أمور منطقته » • ان هذا يكاد لا يصدق لغرابته ، ومع ذلك فقد ثبت لدى لجنة التحقيق الفدرالية الانفة الذكر ، والغي انتخاب ديوي المذكور لحكم الولاية عام ١٩٥١ • الا أن هذا الحليف لعصابات نيويورك لم يذهب الى بيته بعد تنحيته ، بل عين سفيرا لبلاده في احدى دول أميركا اللاتينية • بقي أن نعلم أن ديوى هذا كان المنافس الجمهوري لترومان في انتخابات الرئاسة •

وهنالك قضية كبرى وقعت في فرانسا عام ١٩٥٩ وهي مشهورة باسم « قضية لاكاز » وتتعلق بوراثة الاحتكار الاستعماري الذي يستثمر

مناجم الفوسفات المراكشية ، المناجم التي تنتج ٨٠٪ من الانتاج العالمي لهذه المادة . والاحتكار المذكور يساهم فيه فرنسيون وأميركيون . لقد قتلت المساهمة الرئيسية ، وهي أميركية ، ومات قبلها المساهم الفرنسي الاساسي في ظروف مشبوهة ، وتعرض أحد الورثة للقتل .

ان من الطبيعي أن تحتاج هذه « الاعمال المتممة » الى اختصاصات استثنائية واختصاصيين من أنواع معينة ، أن تحتاج مثلا الى سفاكي الدماء .. وهنالك أمثلة لا تحصى عن هذه الامور في هذا العالم الاستعماري . وكلها تدل بكل وضوح عن أن نشاط الاحتكارات الاستعمارية لا يتوقف عند حدود العمليات الاقتصادية ، ولا عند حدود عمليات القرصنة الدولية وعمليات نهب الشعوب واثارة الحروب الاستعمارية ، بل يتناول أيضا أعمال الاجرام العادية . فكل احتكار له عصاباته في بلده للدفاع عن نفسه ضد الاحتكارات الاخرى ، أو للضغط على الاحتكارات الاخرى ، . أما البوليس ، في هذه البلاد ، فهو لجميع الاحتكارات .. وان كان بعض أفراده ينتمي الى هذه العصابة أو تلك .

القسمُ الثاني



البلاد المتخلفة

التقدم والرجعية في بلد متخلف

التقدم في بلد متخلف

ان تخلف بلد معين يعني بالضرورة حاجة الاكثرية الساحقة من سكان هذا البلد الى التقدم ، أي بناء اقتصاد حديث يتناسب مع امكانيات البلد . الا أن التقدم يؤدي الى ايصال المتخلف الى حالة تمكنه من منع الاستعمار من ممارسة النهب الاستعماري ، الامر الذي يضر بمصلحة المستعمرين فيفعلون كل ما بوسعهم لايقافه ، أو تهويشه وتأخيره على الاقل . لذلك يقوم صراع لا هوادة فيه بين قوى الاستعمار وبين الشعوب المتخلفة التي تتطلع الى النهوض والتقدم .

ويقوم الاقتصاد المتخلف على علاقات اقتصادية متخلفة : علاقات الاقطاع وعلاقات الحرفة العميقة ، وعلاقات اقتصادية بالدول الاستعمارية على أساس مجحف ، مع تأخر في الثقافة الفنية وانتشار الجهل بكثرة . فنجد لذلك في البلد المتخلف الزراعة المتأخرة والانتاج الحرفي الفقير ، الى جانب بعض الاستثمارات الصناعية ، التي يساهم فيها رأس المال الاجنبي بقوة في كل مرة تكون فيها هذه الاستثمارات ضخمة ومربحة ،

كصناعة البترول ، والتعدين ، ومؤسسات التجارة ، والنقل ، ومؤسسات النفع العام ، والمؤسسات المصرفية ، وقد تجد أيضا في البلد المتخلف بعض الصناعات الاستهلاكية التي تؤلف الخطوة الاساسية في تقدم هذا البلد المتخلف بعض الصناعات الاستهلاكية التي تؤلف الخطوة الاساسية في تقدم هذا البلد نحو اقتصاد حديث : صناعات النسيج مثلا ، والمعلبات ، وبعض الصناعات الكيماوية ، كالاصباغ والاسمدة ، وبعض مؤسسات الصيانة والتصليح الفني الخ ..

قلنا ان ما يحتاجه البلد المتخلف هو رأس المال واليد الفنية . وهذا يعني ان على هذا البلد لتحقيق تقدمه أن يحافظ على الادخار الناشيء عن القيم التي يصنعها أبناؤه من ان يتسرب نتيجة السماح بالنهب الاستعماري ، النهب بواسطة احتكار الاستعمار للمشاريع الاساسية أو مساهمته بقوة في هذه المشاريع بحيث يسيطر في النهاية على اقتصاد البلد . وان يحافظ على الادخار من أن يتسرب نتيجة علاقات اقتصادية مجحفة مع الدول الاستعمارية . وان يتبع سياسة ثقافية تتلاءم مع طموحه في التقدم المادي والفكري . وبالاختصار نقول ان ما يحتاجه البلد المتخلف هو ان يتبع سياسة تقدم في كل المجالات . ولا يختلف على هذه الامور ، من الناحية النظرية ، أحد بين الاكثرية الساحقة لشعب متخلف :

فالرأسمالي يطمح الى تطوير مشاريعه عن طريق زيادة القيم الناتجة في البلد بتشجيع التقدم الصناعي وبالعمل على ازالة التخلف في استثمار الموارد الاساسية في اقتصاد البلد : الموارد الزراعية مثلا . وفي

هذه الحالة لا بد من القضاء على الاقطاع وتحرير الفلاح ، ولا بد من مساعدة الفلاحين باقامة مختلف المشاريع المفيدة لهم : مشاريع الري وغيره • اي ان الرأسمالي الواعي لمصلحته في البلد المتخلف هو حليف الفلاح • وهو أيضا ضد النهب الاستعماري الذي يؤخر كـل مشروع وطني • كذلك يستفيد العامل من التطور الصناعي المؤدي حتما الى ارتفاع السوية المادية ، فهو حليف لرأس المال الوطني وضد تسرب رأس المال هذا الى جيوب المستعمرين • والفلاح حليف للتقدم الصناعي ، لان هذا التقدم لا بد من ان يؤدي في النتيجة الى القضاء على علاقات الاقطاع • ثم أن الرأسمالي لا يستطيع التوسع ان لم يجد اليد الفنية اللازمة ، فهو حليف للتقدم الفني والعلمي • وفي ذات الوقت تحبذ كل الفئات الاخرى ، من الفلاحين واصحاب المهن الحرة والعمال الخ •• التقدم العلمي لانه يفتح أمامها مجالات واسعة • وبالاختصار نجد ان الاكثرية الساحقة من الناس تتفق في نقاط عديدة والى أمد طويل في البلد المتخلف •

ان ضعف رأس المال الفردي في البلد المتخلف أمر طبيعي وناشيء عما خلف النهب الاستعماري في الحقبات الزمنية السابقة • لذلك كان لا بد من أن تساعد الحكومة رؤوس الاموال الخاصة بحمايتها من النهب الاستعماري من جهة ، وبحمايتها من ضرب بعضها البعض الاخر من جهة أخرى ، وكل هذا يكون باتباع سياسة اقتصادية حكيمة وحازمة • ثم ان هنالك بعض المشاريع الكبرى التي يعجز رأس المال الخاص عن القيام بها ، كما أن هنالك بعضا آخر من المشاريع التي يمكن أن تتحكم في الاقتصاد فتخضعه بذلك لمصلحة أنانية ديكتاتورية وتعرقل تقدمه بالتالي

(أي تعرقل التقدم في البلد) كل هذه المشاريع يجب أن تكون من اختصاص الحكومة ، أي في القطاع العام مع كل المشاريع الاخرى ذات النفع العام .

كيف يتكون التيار الرجعي

ان المسألة ليست بتلك البساطة عندما ننظر اليها من الناحية الواقعية العملية . صحيح ان التقدم هو في مصلحة الاكثرية الساحقة من الشعب المتخلف ، لكن الناس لا يتفقون جميعا على الطريق الافضل لتحقيق هذا التقدم . فالعلاقات الاجتماعية في البلد المتخلف هي علاقات تخلف وهي لذلك تؤخر كثيرا ، بل تمنع في كثير من الحالات ، الادراك الصحيح للفئات التي يكون التقدم في صالحها . أضف الى هذا أن هنالك بعض الناس يناصر التأخر عن وعي ومصلحة : ان من مصلحة طبقة الاقطاعيين مثلا ان يبطىء التقدم ان لم يكن ايقافه ممكنا ، لانه يكفي الاقطاعي مجتمع اقطاعي متأخر ليحقق بقاءه . كما ان هنالك بعض الناس يناصر التشويش والتخريب عن وعي ومصلحة أيضا : ان الانتهازي مثلا ، الفاقد كل شعور بالمسؤولية وكل ادراك للمصلحة الوطنية ، لا يحقق مصالحه الشخصية المباشرة الا عن طريق التشويش والتقلب .

وهنالك طبقات متعددة ومختلفة أمام حجم من القيم التي تنشأ في المجتمع ، ولا تتفق هذه الطبقات على تقسيم هذه القيم فيما بينها ، بل أن كلا منها يسعى الى تغيير الاساس الذي يقوم عليه هذا التقسيم في اتجاه يلائم مصلحته : فالرأسماليون مثلا يسعون دوما الى تخفيض الاجور ، والعمال يطالبون برفعها ، والفلاحون يطالبون برفع أسعار المنتجات

الزراعية ، وأصحاب الدخل المحدود يطالبون برفع مستوى دخلهم الخ .. وهذا أمر طبيعي ومنتشر في كل العالم الرأسمالي ، فلا يقتصر فقط على العالم المتخلف . الا أن الخطر ينشأ عن أن هذه الخلافات الطبيعية في مجتمع متخلف تتخذ حجة لضرب الاسس الصحيحة للتقدم بحجة هذا التقدم : قيام الديكتاتوريات التي تشل كل نشاط ضروري للتقدم ، بحجة « منع الانقسامات التي تمنع التقدم !.. » . مع انه ليس مثل الديموقراطية في البلد المتخلف شيئا يستطيع ان يعزل اعداء التقدم الذين هم قلة كما رأينا .

ملاحظة : لكل بلد في العالم المتخلف ظروفه الموضوعية التي تختلف عن ظروف البلد الآخر . ولكي نفهم ونقدر تقديرا صحيحا ما يجري في بلد من البلاد المتخلفة يجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار ظروف هذا البلد . وسنكتفي الآن بأخذ حالتين مختلفين لمثلين يبينان لنا موقفين مختلفين تجاه التخلف . وستكون مصر احد هذين المثلين ، وسنتاولها طبعا ، بشيء من التفصيل ، لان موضوعها من غايات هذا البحث .

١ ـ موقف الثورة في كوبا

سبق وقلنا ان الاستعمار الاميركي حول كوبا الى مزرعة سكر . وحتى قبيل ثورة الشعب الكوبي بقيادة فيدل كاسترو ، كان الاقتصاد الكوبي بيد الاحتكارات الاميركية التي كانت تساعدها قلة ضئيلة من الكوبيين : أصحاب اقطاعات قصب السكر وأصحاب بعض الفنادق والملاهي الكبيرة ، وبعض الملاك العقاريين الكبار . أما الغالبية الساحقة من الكوبيين فلم تكن تشكل الا كتلا من الفلاحين الجائعين ومن العاطلين

عن العمل ومن أصحاب الحرف الصغيرة مع بعض المثقفين القلائل الذين ينتمون بمعظمهم الى الطبقة الاقطاعية المتعاونة مع الاميركان • أي أن رأس المال الوطني كان مفقودا تقريبا لعدم وجود أي مشروع صناعي وطني ، بينما تملك الاحتكارات الاميركية مصافي البترول ومعامل تكرير السكر ومعامل التبغ والاعمال المصرفية وغيرها • وفي هذه الحالة لايوجد الا حل واحد : الثورة على المستعمرين وطردهم وتأميم كل الاملاك التي سلبوها من الشعب الكوبي ، وهذا ما حققته ثورة فيدل كاسترو • ذلك لان انقاذ كوبا لا يتم الا بتخليصها من استعمار السكر ، أي من الاستعمار الاميركي وكل المتعاونين معه من الكوبيين القلائل •

في هذه الحالة لا يمكن أبدا فصل قضية الاستقلال السياسي عن قضية الاستقلال الاقتصادي • فما دامت الاحتكارات الاميركية مع أعوانها تعمل على الاض الكوبية ، فان السفير الاميركي هو الحاكم الفعلي لهذه الجزيرة ، مع ما يتبع هذا الاستعمار من شقاء وجوع لملايين الكوبيين • لذلك كان التأييد مطلقا لعمليات التأميم التي قامت بها حكومة كاسترو •

٢ ـ موقف الديكتاتورية في مصر

تطور الاقتصاد المصري

ان مصر واحة بين صحراوين ، والارض القابلة للزراعة في هذا البلد لا تتجاوز ٣٪ من مساحته الكلية • وقد بلغ عدد السكان في عام ١٩٥٨ نحو ٢٤ مليون نسمة يعيشون كلهم على الارض المزروعة في الوادي والتي تبلغ مساحتها ٣٤٠٠٠ كم٢ • وتبلغ زيادة السكان في مصر أكثر من نسمة واحدة في كل دقيقة ، فينتظر ان يبلغ عدد السكان فيها

الثلاثين مليون نسمة في عام ١٩٧٠ • لذلك تعد مصر من أشد بلاد العالم كثافة في السكان : ما يقرب من ضعف الكثافة في بلجيكا التي تعد بدورها في المقدمة من هذه الناحية • الا أن أرض وادي النيل تمتاز عن غيرها بخصوبتها المدهشة • فتعطي نحو خمسة مواسم كل سنتين •

وقبل الاصلاح الزراعي ، كان في مصر مليونا فلاح يملك الواحد منهم أقل من فدان (أقل من ٤٠٠٠ م٢) ، ونصف مليون فلاح يملك الواحد منهم من فدان الى فدانين (أقل من هكتار) ، بينما كان يوجد ٦١ شخصا يملك الواحد منهم اكثر من الفي فدان ، و ١٣٠٠ شخص يملك كل منهم اكثر من مائة فدان • والخلاصة كان هنالك ٢٪ من الملاك ، يملكون أكثر من نصف الاراضي المزروعة ، و ٩٨٪ الباقين يملكون أقل من نصف الاراضي المزروعة • ويوجد أربعة عشر مليونا ونصف مليون فلاح لا يملكون أية أرض • وتبين الاحصاءات أن العائلة المؤلفة من ثمانية أشخاص تحتاج الى خمسة فدادين على الاقل لتعيش • ثم ان الاصلاح الزراعي الناصري لم يغير كثيرا من احوال الفلاحين المحزنة ، فكل الذين استفادوا من هذا الاصلاح لا تتجاوز نسبتهم ال ٦٪ من مجموع المستحقين حتى الآن •

بدأ الاسلوب الرأسمالي في الانتاج يظهر في مصر منذ ما قبل الثلث الاول من القرن التاسع عشر ، أي منذ توطد حكم محمد علي ، عندما أخذت البعثات المصرية تذهب الى أوربا لطلب العلم والتخصص الفني ، وعندما قامت مشاريع الري الكبرى وتحقق الاصلاح الزراعي وادخلت زراعة القطن الى جانب زراعة القنب وصبغة النيله والحنطه ،

وظهرت صناعة الخيوط والانسجة القطنية على الطريقة الرأسمالية . وقد بلغ عدد العمال المصريين عام ١٨٤٠ نحو ثلاثين الف عامل ، يضاف اليهم مائة الف عامل يعملون في الصناعات الحربية التابعة للدولة : صناعة الاسلحة والذخائر ، وورشات التصليح ، وورشات بناء السفن وصيانتها الخ .. وهذا على عدد من السكان لا يتجاوز الثلاثة ملايين ونصف المليون نسمة .

وحققت الرأسمالية تقدما كبيرا في مصر فيما بين الحربين العالميتين ، فقام بنك مصر في عام ١٩٢٠ ، وظهرت مصانع عديدة ، وقد بلغت القروض الصناعية التي قدمها المصرف الآنف الذكر مبلغ مليون جنيه في عام ١٩٣٦ . وازدهرت الصناعة في مصر أكثر فأكثر خلال الحرب العالمية الثانية ، فازداد الانتاج الصناعي بمقدار ٥٠٪ وأصبح عدد المشاريع الصناعية ٣٢٠٠ مشروع ، في نهاية الحرب بدلا من ٢٤٠٠ مشروع في أولها . وازداد الدخل القومي بمقدار ٢٥٪ ولم يتوقف التقدم الاقتصادي المصري في السنوات التي تلت الحرب حتى ثورة ٢٣ تموز . وفي عام ١٩٦١ ، قبل صدور قوانين التأميم الشهيرة ، كان في مصر نحو عشرة آلاف مشروع رأسمالي من الطراز الحديث يملكها الافراد ، ويبلغ الدخل الوسطي ل ٩٦٠٠ منها الفين وخمسمائة جنيه سنويا ، للمشروع الواحد ، بينما يبلغ الدخل الوسطي ل ٣٢٠ منها مائة وثلاثين الف جنيه سنويا ، للمشروع الواحد . وهي تتألف من المشاريع الصناعية (ال ٣٢٠٠ مشروع الآنفة الذكر) والمؤسسات التجارية والمصارف وشركات

التأمين والنقل والسفريات والملاحة والهندسة والبناء الخ .. هـــذا بالاضافة الى مشاريع القطاع العام التي تتضمن :

المنافع العامة مع بعض المشاريع الانتاجية التي يساهم رأس المال الاجنبي في أكثرها مساهمة قوية ، كمصنع الصلب في حلوان الذي يساهم فيه الالمان الغربيون والامير كان ، ومعمل الاسمدة الازوتية في اسوان الذي يساهم فيه الفرنسيون وبعض ورشات تجميع السيارات من مار كات ايطالية وألمانية غربية (الورشات التي ادعى عبد الناصر انها معامل لانتـــاج السيارات وهي ليست اكثر من امتداد لمعامل ألمانية وايطالية موجودة في أوربا) .

وهنالك صناعة بترولية ، حكومية وخاصة ، مع مساهمة أجنبية قوية . وقد نشأت هذه الصناعة منذ ما قبل الحرب العالميـة الاولى ، وتطورت بعد ذلك . وهي تتضمن التنقيب عن البترول واستخراجه بمساعدة الشر كات الايطالية والامير كية ، من مناطق سيناء والبحر الاحمر والصحراء الغربية ، مع عدد من مصافي البترول التي من أحدثها مصفاة السويس الحكومية ومصفاة الاسكندرية (يبلغ ما تستخرجه مصر من البترول سنويا مليونين ونصف المليون طن) . وكان عدد مشاريع القطاع العام قبل التأميم يبلغ ثمانين مشروعا بدخل وسطي يتجاوز المليون جنيه سنويا للمشروع الواحد .

وبصورة عامة تقتصر الصناعة المصرية الخاصة على انتـاج مواد الاستهلاك : النسيج والاحذية والسكر والكحول والبيرة والملح والطحين والزيت والصابون والعطور والصودا والادوية والمواد الكيماوية وعجلات

السيارات والاواني الخزفيـة والخياطـة والاثاث وأدوات الالومنيوم وغيرها . كما أن هنالك شركة نقل بحرية كبرى تمتلك عددا من السفن .

تمركز رأس المال في مصر

حدث تمركز رأس المال في مصر منذ أمد بعيد ، منذ الفترة مابين الحربين العالميتين عندما ازدهرت اعمال بنك مصر . فهنالك مثلا ١٧ ألف مشروع صناعي بأقل من خمسة عمال ، وثمانية آلاف مشروع صناعي بأقل من عشرة عمال (أكثر المشاريع من الفئتين السابقتين هو أقرب الى الحرفة منها الى الصناعة ، و ٦٥ معملا فقط يعمل في كل واحد منها اكثر من خمسمائة عامل . أما المعملان ، العائدان الى شركة مصر ، في كفر الدوار والمحلة الكبرى ، فيستخدم كل واحد منهما ٣٥ ألف عامل (أي أن المعمل هنا يشكل تقريبا منطقة صناعية) .

ان العلاقات الاحتكارية المعهودة تسود الاقتصاد المصري : اشراف وسيطرة جماعة صغيرة من المتمولين ، برأس مال محدود على عدد كبير من رؤوس الاموال التي تعود الى جماعات أخرى من الناس ، أو على قطاعات اقتصادية بأكملها ، أو ملكية فرد واحد لعدد من الشركات الكبيرة . ان جماعة بنك مصر مثلا تشرف على قطاعات اقتصادية بكاملها : الاعمـال المصرفية ، التجارة ، الصناعة ، النقل البحـري ، المقاولات والهندسة الخ .. وكان أحمد عبود يملك قبل التأميم كل معامل السكر وتوابعها ، ويملك مصفاة للبترول في السويس مع معمل اسمدة ملحق بها ، وشركة كبيرة للنقل البحري مع عدد من السفن .

كان بالامكان تعداد نحو ثمانمائة شركة ومؤسسة احتكارية ، عند

التأميم . وقد أمم عبد الناصر منها قرابة الاربعمائة ، تأميما كليا لاقل من ٧٠ مؤسسة منها وجزئيا للباقي . ثم ان نشاط القطاع الزراعي لايتجاوز ال ٤٠٪ من مجموع النشاط الاقتصادي المصري . وهذه نسبة منخفضة جدا لبلد متخلف . ذلك لأن الزراعة في البلاد المتخلفة تكون عادة الاساس الاقتصادي للبلد ، فلها من اقتصاده نسبة عالية .

الحالة الاجتماعية في مصر

ان الحالة الاجتماعية ليست مزدهرة بنسبة ازدهار الاعمال في القطر الشقيق . فالاربعة وعشرون مليون مصري يتوزعون على الشكل التالي :

ستة ملايين نسمة في أعمال الزراعة ، ومليون وثلاثمائة الف يشكلون العائلات العمالية ، وتسعماية الف نسمة في الاستخدام في التجارة ، واربعمائة وخمسون الف في المهن الحرة ، ونصف مليون يعملون في وظائف وأعمال الدولة ويقدر عدد أفراد عائلاتهم بمليون ونصف ، وثلاثة ملايين نسمة يشكلون عائلات الخدم ، ومليون ونصف مليون نسمة للعائلات التي تعيش في أعمال غير معينة ، وتسعة ملايين لا يعملون شيئا .

لقد و رد على لسان عبد الناصر في احدى خطبه الاخيرة ، بمناسبة عيد ٢٣ يوليو ١٩٦٢ ، انه كان قد حدد بالقانون حدا ادنى لاجور العمال الزراعيين يساوي ١٨ قرشا في اليوم ، ولاجور العمال الصناعيين ٢٥ قرشا ، بينما في الواقع كثير من هؤلاء ، حسب قول عبد الناصر ، لايزال يتناول أجرا يوميا لا يبلغ ١٢ قرشا . الا أن الواقع أيضا هو أن هذا

القول لا ينطبق الا على الفئات المصنفة ، أي الفئات التي تعمل في مصالح ومؤسسات الدولة وفي المعامل الكبيرة ، وفي المزارع التي تقوم على الانتاج الرأسمالي • أما الخدم مثلا ، وهم كثيرون كما يبدو من اللوحة السابقة ، وأما الذين يعملون في أعمال غير معينة ، وأما الذين يعملون في مشاريع لا يبلغ عدد العمال فيها الخمسة ، فانه لا ضابط لما يتناولونه من أجر (لا ضابط في اتجاه الهبوط وليس في اتجاه الصعود) • وهنالك التسعة ملايين الذين لا يعملون شيئا ؟•• انهم ليسوا عاطلين عن العمل ، لان العاطل يجد العمل عندما يأتي طور الصعود في الاقتصاد ، ويفقده في الازمات • أما هؤلاء فانهم لا يجدون العمل أبدا ، لا في الصعود ولا في الهبوط ، انهم بدون عمل •• وهنالك من يعمل في الريف بقرشين يوميا فقط •• ولعل أبلغ ما يمكن قوله في هذا الباب ننقله عن كتاب « مصر تتحرك » للاخوين جان وسيمون لاكوتور ، وهما ليسا من أعداء الحكم الحالي في مصر •

يروي الكاتبان قصة عائلة عمالية في الصفحة ٣٦٩ ، من النسخة الفرنسية ، فيقولان :

« ••• أحمد عامل التلفون في القاهرة يربح في اليوم ثلاثين قرشا • انه يشرب في اليوم عشرة أقداح شاي بقرش للقدح : عشرة قروش للشاي • وهو يدخن بثمانية قروش • والظهر ، يتغذى ساندويشة فول وقطعة جبن أبيض وصلصة بلدية بثلاثة قروش • ثم انه يركب الباص مرتين بأربعة قروش • فيبقى لديه خمسة قروش يتمكن بها من الذهاب الى السينما من وقت الى

**آخر ، ومن تدخين الحشيش في بعض الاحيان .
أما ثريا ، زوجته ، فانها تربح جيدا ، انها تحصل على ستة جنيهات شهريا مع طعام الغذاء . لقاء العمل كخادمة في بيت تعمل فيه من الساعة الثامنة صباحا حتى الرابعة بعد الظهر (يظهر انها خادمة مدلله) . وهي تدفع أجر البيع وتشتري عشاء العائلة كل يوم وتتكفل بملابسها أما الاولاد فينبتون من تلقاء أنفسهم !.. »**

ان هذه العائلة العمالية تعد محظوظة بالنسبة الى العائلات الاخرى ، لان دخلها يصل الى الخمسة عشر جنيها في الشهر . وبعد ان رأينا التوزيع البائس لهذا الدخل نتسائل عن أحوال الآخرين الذين لا يصل دخلهم الى الاربعة جنيهات شهريا . ولا لزوم للتكلم عن أولئك التسعة ملايين الذين لا يعملون شيئا .

وليست أحوال الموظفين الصغار والمستخدمين بأحسن مما ذكرنا عن الفئات السابقة . بل ان المثقفين حملة الشهادات العليا يعانون أشد الضيق ، ان لم تكن لهم ثروات خاصة بهم . فراتب حامل الليسانس يبتدىء بخمسة عشر جنيها في الشهر ، أي أقل من ثلث راتب زميله في سورية . أما الموظفون الكبار فيتساوون مع زملائهم السوريين : نحو ٢٠٠ جنيه للحد الاعلى في الراتب . الامر الذي يبين التفاوت الكبير بين الدرجة السفلى وبين الدرجة العليا في سلم الملاك .

وتنقسم فئة الرأسماليين في مصر الى فئتين كبيرتين : فئة الرأسماليين الذين كانوا يملكون الاقطاعيات الكبيرة قبل الاصلاح الزراعي ، الى

جانب شركاتهم وأسهمهم التي يملكونها في القطاع الرأسمالي ، وفئة الرأسماليين الذين ينحصر معظم نشاطهم في الاعمال الرأسمالية فقط ، الاعمال الصناعية أو التجارية الخ .. واذا شئنا الدقة نقول ان الفئة الاولى تتألف من الباشوات ومن لف لفهم من انصار العهد البائد ومن قدماء الرأسماليين أمثال عبود ورفاقه من جماعة بنك مصر . أما الفئة الاخرى فتتألف من الرأسماليين المستحدثين الذين كونوا ثرواتهم أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها ، حتى ثورة ٢٣ تموز . وقد كانت الفئة الاولى تسخر من الثانية بالتنكيت على أفرادها بالنكات المشهورة عن أغنياء الحرب . في الصحف والمجلات . أما الآن فيمكننا أن نضيف الى هاتين الفئتين فئة ثالثة من الذين اغتنوا بانتهازهم الفرص التي وقعت أيام الحكم الناصري : الضباط وكبار الموظفين ومن لف لفهم .

هذه هي الخطوط العامة للصورة الاجتماعية المصرية ، غناء فاحش من جهة وفقر مدقع من جهة أخرى ، بضعة مئات من الالوف تعيش في بذخ صارخ والملايين تئن من الجوع . وليس من مخرج لهذه الحالة الا باتباع سياسة وطنية حكيمة . وكان الحكم الملكي المغرق في الفساد أعجز من أن يجد طريقا لتغيير الحالة وتحسينها ، بل ان معاداته للشعب كانت تدفعه دوما في الاتجاه الذي يزيد من سوء الاحوال . ثم ان هنالك صعوبات نوعية خاصة بالقطر المصري ، وسببها ان وادي النيل على خصوبته الفائقة ، مستثمر الى أبعد حد . بحيث لا يمكن التفكير بزيادة مردوده ، الا بتوسيع الاراضي الزراعية على حساب الصحراء ، الامر الذي يتطلب القيام بمشروع كمشروع السد العالي . الا أنه في المدة

اللازمة لانجاز هذا المشروع تكون أفواه جديدة قد أتت ، وهي بحاجة الى الغذاء • ان الزيادة في السكان تتجاوز النصف مليون سنويا فلا بد اذن من التفكير بالبناء الصناعي الى جانب مشاريع استصلاح الصحاري ، على أن يكون هذا البناء في مصلحة الشعب المصري وليس في مصلحة رؤوس الاموال الاجنبية : من الافضل طبعا أن تبقى كل قيمة تنشأ في مصر لتطعم الجياع هناك من أن تذهب الى جيوب الاستعماريين في أوربا وأميركا واليابان • الامر الذي يتطلب حكما غير الحكم الفاسد المعادي للشعب ، الحكم الذي كان فاروق يمارسه •

ملاحظة : ان المراجع التي استند اليها حتى الآن هي كتاب « مصر تتحرك » لمؤلفيه جان وسيمون لاكوتور ، ومجلة « اقتصاد وسياسة » الباريزية عدد تموز ـ آب عام ١٩٦٠ •

مصر بين السرطان الاحتكاري المحلي وبين الرجعية والنهب الاستعماري

قلنا ان مصر كانت دوما تحقق تقدما في المجال الصناعي • الا أن هذا التقدم لم يكن كافيا أبدا لحل مشاكل هذا القطر ، حتى ولا لتأجيلها ، وكان سوء الاحوال يتفاقم باستمرار من يوم الى آخر ، وكان لا بد من ايجاد طريق آخر ينتهي الى انقاذ أولئك الملايين من الجياع • فانفجرت الثورة الشعبية في السادس والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٥٢ • الا أن الملك تمكن ، مع الرجعية ، من قمع هذه الثورة ومن اطالة حكمه بعض الوقت • وفي ٢٣ تموز استأنف الشعب ثورته مستعينا في هذه المرة بأبنائه أفراد الجيش المصري •

عند قيام الثورة كان الاقتصاد المصري قد بلغ حدا لا يمكن معه التوسع في التصنيع الا بصعوبة بالغة • وعندئذ كان التناقض قد بلغ أقصاه بين فئات الرأسمالية الصاعدة ، فئات « أغنياء الحرب » ، وبين الفئات الرأسمالية الاقطاعية وطبقة الاقطاع التي تساندها (الباشوات) أضف الى هذا أن رؤوس الاموال الاجنبية كانت على الدوام مزدهرة في الاقتصاد المصري • وكان الحل الصحيح القضاء على عدوين أساسيين: النهب الاستعماري والرجعيـــة المتمسكة بامتيازاتها المعادية لمصـــالح الشعب • وهنالك الاتجاه الاحتكاري الذي يمركز رؤوس الاموال في قطاعات محددة من الاقتصاد الوطني على حساب بقية القطاعات فينشـأ انتفاخ سرطاني في مكان تمركز رؤوس الاموال ، انتفاخ يأخذ شكل ديكتاتورية اقتصادية تتحكم أنانيا في كل اقتصاد البلد فتبعد هذا الاقتصاد عن السير الصحيح • ثم ان الديكتاتورية الاقتصادية تنعكس على الحياة السياسية حتما بهذا الشكل أو ذاك •

ان مصر ليست فقيرة كبلد ، وهي تملك ثروات كبيرة من رؤوس الاموال الوطنية ، لذلك يمكنها الوقوف بحزم تجاه النهب الاستعماري ، دون أن تخاف ما يسمونه (دجلا) تردد رؤوس الاموال الاجنبيــة وخوفها • ذلك لان هنالك فرقا شاسعا بين النهب الاستعماري وبـين التعامل مع الاجانب على قدم المساواة بحيث تبقى قيم البلد للبلد • أما القضاء على الاقطاع فانه يحيى من جهة ملايين الفلاحين ويرفع من سويتهم ، ومن جهـة أخرى يقضي على حليف قـديم وقوي للنهب الاستعماري • وفي هذه الحالة ، بارتفاع قدرة الفلاحين ، يتسع السوق

أمام الانتاج الصناعي الوطني • فاذا رافق هذا سياسة اقتصادية حكيمة ، بقيام الحكومة مثلا بايجاد مجالات جديدة للتوسع الصناعي ، وذلك بمساعدة القطاع العام وبمنع التمركز الاحتكاري الاناني لرؤوس الاموال وتوزيع هذه توزيعا مجديا في مختلف فروع الاقتصاد العائدة للنشاط الخاص ، واستدراج الفائض منها الى مشاريع القطاع العام ، وباقامة علاقات تجارية خارجية مفيدة لمجموع الاقتصاد الوطني ، وباقامة مشاريع التوسع الزراعي كمشروع سد أسوان ، فان العجلة عندئذ لا تتوقف وينفتح مجال واسع لاستمرار التقدم • الا ان هذا يتطلب ديموقراطية تحيي المبادرة الشعبية وتضمن المراقبة الفعالة للشعب ، ولا يتطلب ديكتاتورية تجمد كل شيء الا النهب والرشوة ، أو تحرف كل شيء في طريق المصالح الانانية لفئة محدودة من الناس •

اشتراكية أم بوليسية ؟••

في الواقع ، ان ما يدعيه عبد الناصر من أفعال اشتراكية ، قام بها في تموز عام ١٩٦١ ، لا يتعدى تأميم عدد من الشركات انتقاما من أصحابها الذين يناصرون العهد السابق أو الذين يناهضون حكمه الديكتاتوري : أنصار الملك السابق أو أنصار الوفد وغيره من الفئات السياسية • وقد قلنا ان عدد الشركات التي أممها تأميما كليا أو جزئيا ، هو حوالي اربعمائة شركة من أصل ثمانمائة احتكار وعشرة آلاف مشروع رأسمالي كبير ومتوسط ، كانت موجودة قبل التأميم • صحيح انه أمم معظم المصارف ووعد العمال بالمشاركة بالارباح وبالمشاركة بادارة الشركات ، الا أنه سمح من جهة أخرى بالنهب الاستعماري على أوسع

نطاق وبحماية القانون ، بالاضافة الى أن وعوده للعمال ليست الا سرابا خلبا . فرؤوس الاموال الاجنبية تستطيع المساهمة في مشاريع القطاع العام وفي المشاريع الخاصة بنسبة تفوق ٥١٪ ولها الحق بحمل أرباحها الى خارج مصر بالقطع النادر ، وذلك بموجب قانون أصدرته حكومة عبد الناصر .

يقول توم ليتل (وهو كاتب بريطاني تستخدمه المباحث في تمجيد الناصرية) في كتابه « عبد الناصر رائد القومية العربية » ، في الصفحات **٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤** ، ما يلي :

« لقد أشار عبد الجليل العمري الى أن على مصر ان تحصل على ٥٠٠ مليون جنيه كرساميل أجنبية توظف في مصر ، اذا كان يراد لمشاريع التصنيع أن تنجح .. » .

أي أن على مصر أن تسلم اقتصادها للاستعمار لتحصل على صناعة « حديثة » .. يملكها الاستعماريون بطبيعة الحال ، مع العلم أن عبد الجليل العمري هذا كان حاكما لبنك مصر ووزيرا للمالية وهو من غلاة خدم الاستعمار الاميركي بشهادة المشير عامر الذي قال لي يوم عينت عضوا في مجلس التخطيط الاعلى : سوف تصطدم بعبد الجليل العمري لانه متحمس كبير للاميركان .

ونعود الآن لتول ليتل :

« ... وهكذا فقد تميزت الشهور الاولى من الحكم العسكري باعتدال (كذا !..) غير

عادي في ميدان العلاقات الخارجية فبذلت المحاولات لتعديل القوانين التي لاتشجع الشركات الاجنبية في مصر ٠

فعدل قانون الشركات الذي كان يحتم أن يكون ٥١٪ من رساميل الشركات الاجنبية في مصر مصريا ، بحيث يسمح للرأسمال الاجنبي بأن يكون اذا شاء صاحب النسبة الاعلى ٠

وعدلت حكومة الثورة قانون المناجم بشكل كان مقبولا ان لم يكن مرضيا للشركات البترولية التي استأنفت أعمالها على أساس التعديل ٠

وكان قانون العمل يغل الشركات الاجنبية (كذا !٠٠ وكأن مصر ليست في طليعة البلاد التي تزدهر فيها أعمال الاجانب !٠٠٠) اذ يحتم على كل شركة ان تستخدم نسبة عالية من المصريين وان تدفع لهؤلاء نسبة عالية من مجموع الرواتب التي تدفعها لموظفيها ٠٠

ولم يكن بوسع الحكم العسكري تغيير هذا التشريع دون ان يتعارض مع ما أعلنه من انه يهدف الى رعاية العمال ورفع مستواهم ٠٠ ولكنه مع ذلك حاول في البداية ان يبث في دائرة العمل ادراك الحاجة الى معاملة ارباب العمل الاجانب معاملة عادلة معقولة ٠٠ » ٠

وكأن من العدل ان يذهب المستعمر بملايين مصر ، بينما يعيش العامل والمستخدم المصري على القروش !٠٠

ان الحجم الكلي للربح في جميع فروع اقتصاد البلد يساوي حجم

جميع القيم الناتجة في تلك الفروع بعد تغطية جميع التكاليف ، تغطية استهلاك وسائل الانتاج واستهلاك قوى العمل والخدمات ، أي يساوي في النتيجة حجم القيم الجديدة التي لم تعوض كل ما استهلك في عملية الانتاج • الامر الذي يبين لنا خطورة ذلك القانون الذي يسمح باخراج تلك النسب الكبيرة من القيم من مصر الى جيوب المستعمرين •

أما مشاركة العمال بادارة الشركات فهي في الواقع لا تتعدى تعيين « مباحثيين » في مجلس ادارة الشركة • والمباحثي في الحكم الديكتاتوري الملآن بالفساد والرشوة ينفذ رغبات هذا الحكم اكثر من رغبات العمال • ومن هنا يمكننا ان نتصور مقدار ما سيصيب هؤلاء العمال من الارباح التي يكون حسابها بيد جهاز بوليسي غارق في الرشوة • ان فقدان الديموقراطية وفقدان المراقبة الفعالة للشعب لاعمال الحكومة يؤدي الى وقوع الدولة بجميع نشاطاتها بيد البوليس البعيد كل البعد عن كل شيء اسمه اشتراكية •

القروض الاستعمارية

انهالت القروض الاستعمارية على مصر في أيام الوحدة ، وازداد « فيضانها » في الاشهر الاخيرة بعد صدور قوانين التأميم • والمصادر التي أتت منها هذه القروض هي أميركا بالدرجة الاولى ، ثم ألمانيا الغربية واليابان والبنك الدولي ، وكل هذه الجهات تتأثر تأثرا كبيرا بالسياسة الاميركية وبالاقتصاد الاحتكاري الاميركي • وهناك قروض من انجلترة وفرانسا وغيرها من الدول الاستعمارية ، الا أنها لا تؤلف نسبة كبيرة من مجموع القروض الاستعمارية التي ترد الى مصر • وهنالك قروض من الدول الاشتراكية لبناء سد أسوان ولتنفيذ كثير من المشاريع

الاخرى بفوائد بسيطة وبشروط سهلة للدفع • بينما تتراوح فوائد القروض الاستعمارية بين ٤٪ و٦٪ • وقد اشترطت أميركا للاستمرار في دفع قروضها تخفيض سعر الجنيه المصري مع القبول باشراف لجنة من الخبراء الاميركان على الاقتصاد المصري • وبالفعل صدر مؤخرا قانون بتخفيض سعر الجنيه ، كما وصلت اللجنة « الفنية » الاميركية لمراقبة الاقتصاد المصري ، وبهذا أصبحت أميركا تشرف على بناء ـ الاشتراكية ـ في مصر • هذا وان مجموع القروض الاستعمارية يبلغ حتى الآن المليار دولار ، ولم يتوقف سيلها بعد • وان جزءا كبيرا من هذه القروض يصرف لشراء السلع الاستهلاكية ، من فائض المنتوجات الزراعية الاميركية الى الملابس وغيرها •

طريق كندا

يتبين مما تقدم ان مصر الناصرية تسير بخطوات حثيثة في الطريق الذي سارت عليه كندا لتسليم اقتصادها الى الاستعمار ، وخاصة الاستعمار الاميركي ، عن طريق التأميم ، فرأس المال الاجنبي الذي يرى في رؤوس الاموال الوطنية مزاحما قويا ضد امتداده الاستعماري ، يجد في مشاريع الدولة الناصرية مجالا واسعا لازدهاره ، ان القطاع العام عندما يكون قويا ومسيطرا على اقتصاد البلد يتمكن من تأدية خدمات في غاية الاهمية لهذا الاقتصاد ، وذلك عندما يكون مستقلا عن النفوذ الاستعماري والنفوذ الاناني لجماعة من المنتفعين • الا انه عندما يقع تحت النفوذين الآنفي الذكر فانه يلحق الضرر الكبير باقتصاد البلد • وعندما يتم التحالف بين الاستعمار والمنتفعين يقع الاقتصاد برمته في قبضة

الاقوى ، الذي هو الاستعمار ، كما هو الحال في كندا التي تسير على خطاها مصر الناصرية اليوم .

وقعت مصر ، منذ الايام الاولى لتوطد ديكتاتورية عبد الناصر ، في أيدي الرأسماليين الجدد « أغنياء الحرب » ، وفي أيدي نفر من الضباط وأقاربهم ومحاسيبهم ، وقد شكل كل هؤلاء طبقة رأسمالية خاصة . وقد رأينا أن رؤوس الاموال الاستعمارية الاميركية ، وملحقاتها الالمانية الغربية واليابانية ، ما انفكت تتدفق على القطاع الحكومي المصري. طيلة ديكتاتورية ناصر . بالاضافة الى تدفق القروض الاستعمارية لتلك الدول . ثم ان التأميم للشركات المصرية وضمها الى القطاع العام لم يتناول أبدا اسهم الاستعماريين في هذه الشركات ، بل على العكس ، سمح كما رأينا آنفا ، لهؤلاء الاستعماريين بتجاوز نسبة مساهمتهم مساهمة المال المصري . ان هذا هو التسليم الكلي لاقتصاد مصر الى النهب الاستعماري ، وهو قطعا لا يشبه الاشتراكية .

موقف الديكتاتورية من التخلف

ليس للبيروقراطية المصرية شبيه في أي بلد من بلدان العالم المتخلف . وقد مر معنا ان عدد الموظفين في مصر يبلغ النصف مليون ، وهذا العدد يشكل نسبة تساوي تقريبا نسبة الموظفين في فرانسا الى عدد السكان . الا أن فرانسا بلد متقدم تكثر فيه الخدمات العامة التي تشغل عددا كبيرا من الموظفين ، كالصحة والمعارف والنقل والبريد الخ .. بينما نجد ان عدد الموظفين والبوليس في وزارة الداخلية المصرية يبلغ ٢٥٪ من مجموع عدد الموظفين في الدولة ، عدا عشرات ألوف

الباحثين المنتشرين في كل دائرة وفي كل جماعة من فئات الشعب المصري.
ويبلغ ما يصرفه عبد الناصر في أعمال التجسس والتخريب ، في مصر وفي البلاد العربية والافريقية مبلغ ٦٥ مليون جنيه سنويا ، عدا مصاريفه الاخرى في الدعاية الفارغة بواسطة أجهزة الدعاية والنشر ، وعدا البذخ الهائل في كل دائرة من الدوائر ، وعدا النهب على أوسع مقياس في جميع دوائر الدولة وملحقاتها .

ان النهب الاستعماري المركب من ارباح رؤوس الاموال الاستعمارية ومن الفوائد الباهظة للقروض الاستعمارية ، بالاضافة الى الشروط السياسية والاقتصادية المجحفة لهذه القروض ، هذا النهب لا يؤدي الا الى خسارة حجم كبير من القيم الجديدة الناتجة في الاقتصاد المصري ، أي الى خسارة امكانيات جديدة للتوسع في بناء الاقتصاد المذكور ، فيقلل من امكانيات العمل وربح المشاريع الوطنية . فهذه السياسة معادية اذن لمصالح الرأسمالية الوطنية . واذا كان هنالك من الرأسماليين المصريين الذين يشاركون المستعمرين في نهب ثروات مصر ، فان عدد هؤلاء يتناقص كل يوم بتزايد جشع المستعمرين وباشتداد قبضتهم على اقتصاد مصر ، وبتزايد التبذير والنهب اللذين يمارسهما الجهاز الديكتاتوري. ولا بد من أن ينعكس كل هذا ، ان ينعكس النهب الاستعماري والنهب الديكتاتوري ، على سوية حياة الشعب المصري فيهبط بها عن الدرك الذي هي فيه الآن ..

لقد ارتفعت جميع الاسعار في مصر منذ عام ١٩٥٤ ، وارتفعت الضرائب وحدث التضخم في العملة . لقد كان هنالك مثلا ١٧ مليون

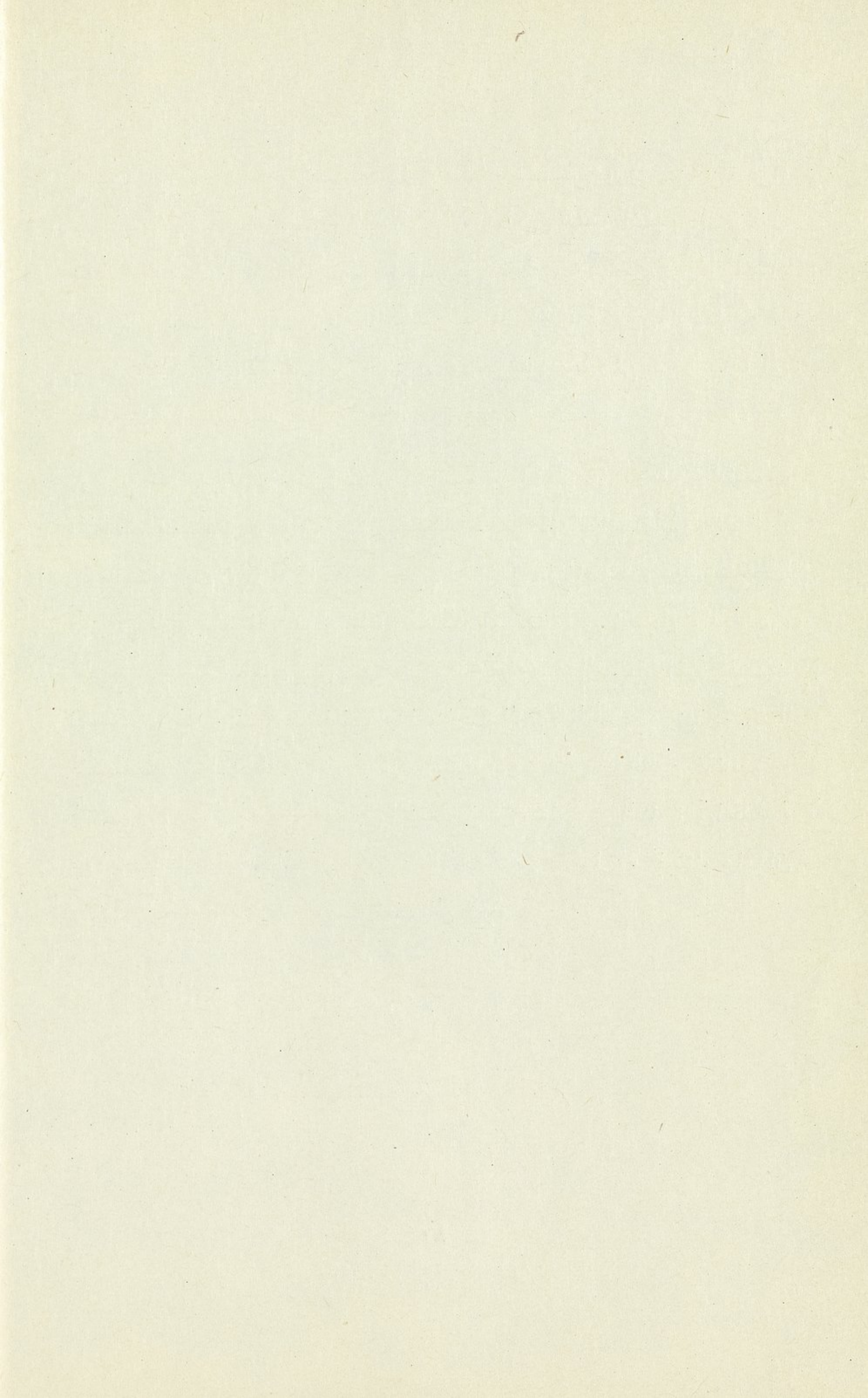
جنيه بدون غطاء في عام ١٩٥٢ فأصبح هنالك ٢٨ مليون جنيه بدون غطاء في عام ١٩٦٠ • وقد رافق هذا التضخم هبوط في سعر الجنيه المصري بنسبة ٤٠٪ ، ثم أعقب هذا هبوط آخر رسمي فرضته أميركا على مصر مؤخرا • وكل هذا ضد مصلحة أصحاب الدخل المحدود من العمال والموظفين ، الذين لم تزدد أجورهم ورواتبهم أبدا أو ازدادت بمقدار تافه ، وضد مصلحة جميع المدخرين الذين وجدوا ان نصف ما ادخروه قد تبخر ، وضد مصلحة الفلاح الذي لم يستطع رفع أسعاره بمقدار هبوط العملة وارتفاع أسعار السلع الاخرى • أي باختصار نجد ان هذه السياسة الاقتصادية عدوة رهيبة لجميع فئات الشعب تقريبا ، وان نتائجها المرعبة لا تقاس أبدا ولا تعوض بتلك المشاريع التي يقوم بها النظام الناصري في القطاع العام ، المشاريع التي كان بالامكان القيام باضعافها ، بدون قروض ومساهمة استعمارية ، وبنظام ديموقراطي سليم ، مع توفير مئات الملايين التي ينهبها الاستعمار أو يبذرها الحكم المباحثي •

النتيجة

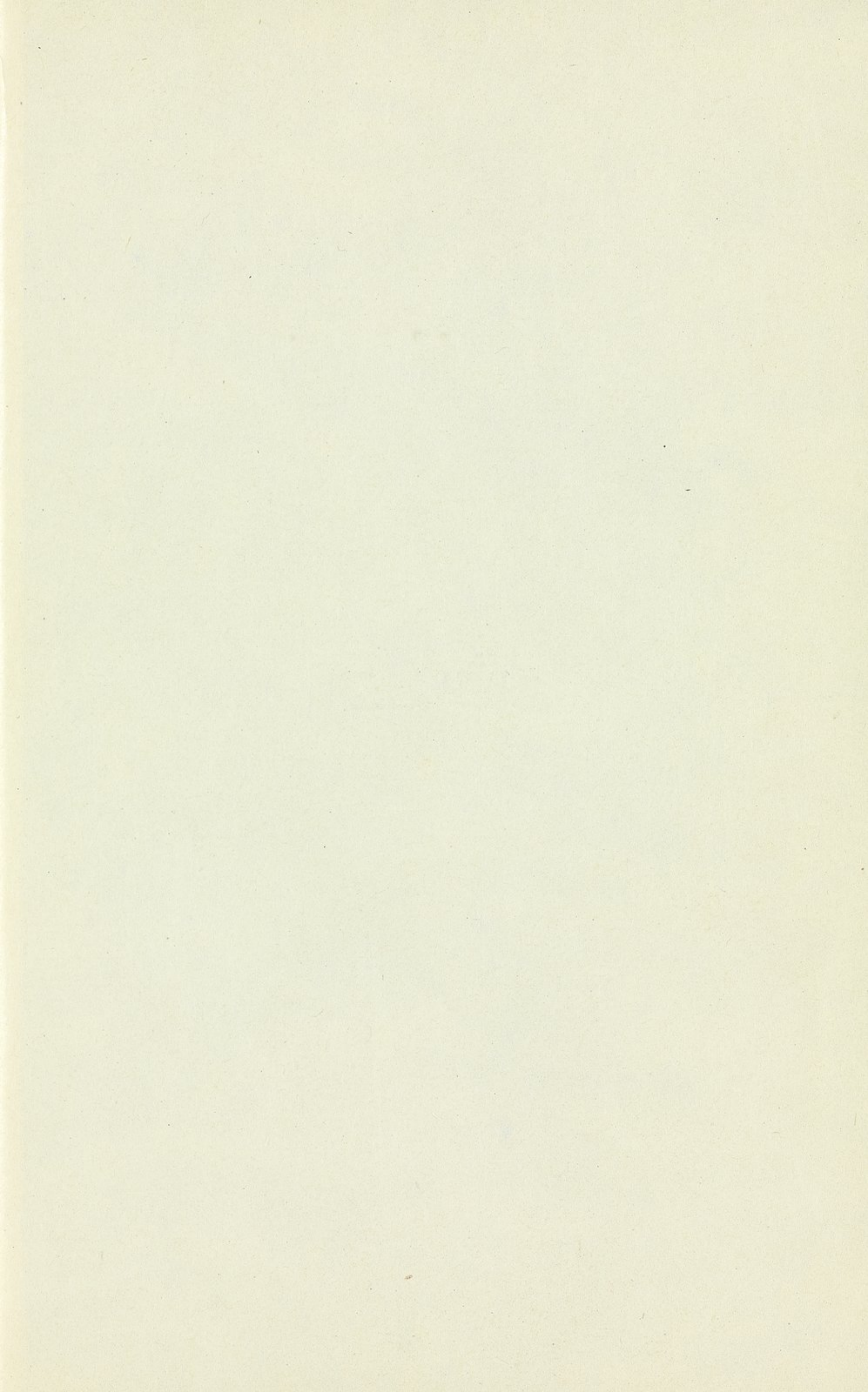
كانت أشد التقديرات تفاؤلا تقول قبل عام ١٩٦٠ ان الاقتصاد المصري لن ينجو من الافلاس التام في الاعوام الواقعة بين ١٩٦٥و١٩٧٥ ، أو يقع هذا الاقتصاد بأجمعه في براثن الاستعمار ، ويفقد صفته الوطنية• فحسب تلك التقديرات ، ستجد مصر نفسها في عام ١٩٦٥ مضطرة الى دفع نحو ٢٠ مليون دولار سنويا لتسديد ديونها ، بالاضافة الى فوائد قروضها من البلاد الاستعمارية • كما ان على مصر ان تجد اسواقا لتصريف بضائع صناعية بمقدار ٩٠ مليون جنيه سنويا ، في الوقت الذي

تناصب فيه الحكومة الناصرية العداء لكل النـــاس وأقربهم من جراء سياستها الخانعة للاستعمار الاميركي • الا أن تلك التقديرات كانت متفائلة حقا ، اذ لم تمض بضعة أشهر من عام ١٩٦٢ حتى كان الاقتصاد المصري تحت اشراف لجنة اميركية تراقب الشاردة والواردة فيه • ثم أن القروض الاستعمارية ما تزال تنهمر على مصر لزيادة تكبيلها الى عجلة الاستعمار الاميركي •

تلك هي نماذج من أساليب الاستعمار الاميركي للايقاع بالشعوب المتخلفة واستعمارها ، انه مثلا يدفع الحكام الى اتباع سياسة مغلوطـة تتقنع بشعارات ثورية زائفة • حتى اذا ما وصل اقتصاد البلد المتخلف الى الازمات الحتمية نتيجة تلك السياسة المرتكزة الى الدجل والكذب ، أسرع ذلك الاستعمار الى اغراق البلد بقروضه الجائرة التي تقيـد اقتصاده • ثم ان البلد المتخلف هذا ، تحت الحاح الحاجة ، يزداد خنوعا للمستعمرين بازدياد ازماته التي تسببها حماقات حكامه وخياناتهم ، وينتهي الامر الى أن « يتعهد » الاستعمار كل نشاط في البلد : في السياسة والاقتصاد ، كما هو الحال في كوريا الجنوبية وفرموزة والفييتنام وايران وتركيا الخ •• وها هي مصر تنضم الى الجوقة •



القسمُ الثالث



اسرائيل

الصهيونية خادمة الاستعمار

الحركة الصهيونية

ان الحركة الصهيونية تستند الى مذهب مغرق في الرجعية ، وهي لا تختلف في محتواها عن النازية الا بافتقارها الى ما كان بيد هتلر من وسائل مادية هائلة • فهي عرقية وتؤمن بالعنف وبكل وسيلة توصل الى الغاية ، وهي ، على حد تعبير بن غوريون ، « فلسفة يهودية في جوهرها نضال ضد الاندماج » • أي أن اليهودي ، بنظر الصهيونية هو يهودي قبل أن يكون انسانا ، فلا يحق له الاختلاط بغيره من الاجناس كي لا يضيع جنسه ، تماما كما يقول العرقيون النازيون بمنع اختلاط الدم الجرماني بالدم الاجنبي • ان الانسانية بنظر هؤلاء ، أحط من الجنس وهي لا تعوض الفرد جنسه ، لذلك وجب على هذا الفرد أن يقاوم الاندماج • وكما كان النازيون يزورون التاريخ بشكل يلائم أهدافهم ، فان الصهاينة يجدون في تصوراتهم « التاريخية » ما يبرر لهم قتل وتشريد العرب عن ديارهم • وكان النازيون يحتجون بالظلم النازل بقومهم ليبرروا

العدوان على الاقوام الاخرى ، والصهاينة يحتجون بالظلم النازل بقومهم منذ أن « خرجوا من فلسطين » ليبرروا عدوانهم على العرب • كانما لم يظلم انسان أبدا الا اليهود ، وكأنما لم يقتل المستعمرون ملايين بني الانسان في البلاد التي نكبت باستعمارهم •

ان الصهيونية ، ككل حركة رجعية ، لا تجد الحياة الا في خدمة الظلم والا في الخنوع لمخططات الظلام • لذلك نجدها منذ الساعات الاولى لمولدهـا عـلى أبواب الاستعماريين الاحتكاريين ، تستجـدي « فلوسهم » وتعرض للايجار ظهرها • وليس من قبيل الصدف أن تبلورت هذه الحركة في أواخر القرن التاسع عشر ، عقب المؤتمـر الصهيوني العالمي في « بال » عام **١٨٩٧** ، في وقت توطد النظام الاحتكاري الاستعماري ، وفي وقت تطاحن الدول الاحتكارية الاستعمارية عـلى اقتسام ثروات العالم المتخلف ، وبشكل خاص تطاحن المستعمرين على تركة « الرجل المريض » ، أو الدولة العثمانية • في هــذا الجو من التصارع الوحشي بين المستعمرين لاقتسام ثروات العالم يدب النشاط ويرتفع حتى الغليان ، في سوق الخدم • وكان الصهاينة يعرضون خدماتهم في هذه السوق على كل من هو بحاجة اليها من المستعمرين •

التسابق الاستعماري في البحر المتوسط

كان التسابق ، كما هو معلوم ، على أشده بين الدول الاستعمارية للوصول الى وضع اليد على الممرات المائية في البحر الابيض المتوسط ، والى احتلال الشواطىء العربية لهذا البحر ، الشواطىء التي كانت تشكل أبوابا لآسيا وافريقيا ، أبواب الثروات الاسطورية • وكان هذا

التسابق في كثير من الاحيـــان يأخذ شكلا حادا فتقع الحروب بـين المستعمرين بنتيجته ، وفي أحيان أخرى يأخذ شكل التسويات فيقتسم المستعمرون الغنائم ، وفي كل الاوقات لم تكن الدسائس والاحابيل تنقطع من بعض المستعمرين ضد البعض الآخر .

وكان الخـلاف دوما على أشـده بين الدولتين الاستعماريتين ، فرانسا وانجلترة ، حول مصير بلاد البحر المتوسط العربية . ففي عام ١٧٩٨ نزل بونابرت أرض مصر واحتلها ، الا أن الجيوش الفرنسية طردت من ذلك القطر العربي من قبل بريطانيا والدولة العثمانية . ثم حالفت فرانسا محمد علي ضد الباب العالي وضد بريطانيا ، واحتلت الجزائر في عام ١٨٣٢ فأصبح لها موقع قدم راسخ في الشمال الافريقي. وفي عام ١٨٦٩ تم فتح قناة السويس بمساعدة الفرنسيين . ولم يكن البريطانيون ينظرون « ببرود » الى تقدم النفوذ الفرنسي وتقدم الاستعمار الفرنسي في مصر وغيرها من بلاد الشمال الافريقي ، بل كانوا يفعلون ما بوسعهم ، فيحاربون ويدسون الدسائس لايقاف مزاحميهم عنـد حدهم . وفي ١٨٧٥ تمكن البريطانيون من شراء حصة مصر في اسهم القناة ، فعلقت مجلة فرنسية بقولها :

« ... ان شراء انجلترة لاسهم القناة عمل سياسي بحت ، واذا لم يكون معناه استحواذ انجلترة على أرض مصر ، فهو الخطوة الاولى في سبيل تحقيق هذا الغرض » .

وقامت فرانسا باحتلال تونس في عام ١٨٨١ ، فكان جواب بريطانيا

أن احتلت مصر في عام ١٨٨٢ ، فوضعت بذلك يدها ماديا على الممر البحري الجديد الهام الذي هو قناة السويس •

وفي هذه الاثناء لم تكن روسيا القيصرية ولا ألمانيا التي تم توحيدها بعيدتين عن التسابق الى تركة ـ الرجل المريض ـ ، الدولة العثمانية • الا أن روسيا القيصرية كانت تطمح الى البلقان والمضائق ، الدردنيل والبوسفور ، بينما كانت ألمانيا تنتظر الفرصة لوضع اليد بالجملة على الامبراطورية العثمانية كلها •

ظرف قيام الحركة الصهيونية

كان اقتسام العالم قد تم تقريبا في أواخر القرن التاسع عشر ، بين الدول ا لاحتكارية ، ولم يبق منه الا بعض الدول المتخلفة : منها الصين في الشرق الاقصى ، والدولة العثمانية في الشرق الادنى • وفي هذه الظروف بالذات برزت الصهيونية •

ان الاستعماريين وخدمهم يحاولون اعادة الحركة الصهيونية الى ألوف السنين ، كما يحاولون التهويل من شأنها بتصوير النفوذ الصهيوني « كقوة هائلة » تخضع لها جبابرة الدول الخ •• والغرض من هذا واضح ومزدوج :

أولا : ابعاد الاستعمار عن جريمة قيام الصهيونية وتبرئته منها ، وايجاد العذر له بمساعدتها ، « لانها قوة لا تقاوم » ••

ثانيا : تبرئة الصهاينة من خدمة الاستعمار والتسليم لهم ، ضمنا ، بشرعية حركتهم المجرمة ، على اعتبار انها حركة تاريخية تمتد جذورها الى ألوف السنين •

لكن هذه التصورات تتناقض تماما مع ما يدعيه الصهاينة من ان الظلم كان يقع بهم أينما حلوا في العالم ، حتى يوم ارتكاب جريمتهم ، بتحريض ومساعدة الاستعمار بسلب العرب ديارهم عام ١٩٤٨ . واذا كانت لهم هذه القوة وكان لهم هذا النفوذ تخضع له الدول العظمى ، فلماذا سكتوا كل هذه القرون الطويلة ، من يوم خروجهم المزعوم من فلسطين حتى أواخر القرن التاسع عشر عندما كانت الدول الاستعمارية تأتمر على اقتسام منطقتنا ؟..

نقول خروجهم المزعوم ، لان اليهود ، في الواقع ، لم يخرجوا من فلسطين كشعب تفرق في الارض ، كما خرج العرب منها مؤخرا ، بل خرج بعضهم في مناسبات مختلفة ، وما بقي منهم ، وهم الغالبية العظمى ، اندمج مع بقية الاقوام الموجودة في فلسطين .

ومما لا شك فيه ان للصهيونية قوة ونفوذ في العالم الاستعماري ، الا أن هذه القوة وهذا النفوذ هما من صنع الاستعمار في الاساس ، انهما قوة ونفوذ الخادم المطيع ، ومولدهما على التحديد كان في تلك الظروف المتعلقة بأزمات المسألة الشرقية في أواخر القرن الماضي . ان الصهيونية دوما في خدمة الاستعمار ، وليست أبدا سيدة للدول العظمى بالشكل الذي يصوره المستعمرون وخدمهم والبسطاء من بني قومنا .

الصهيونية على أبواب الاستعمار

يقول المتطرفون من الصهاينة ان اسرائيل يجب أن تمتد من النيل الى الفرات . ان حدود احلام الاجير تتبع شهية سيده المستعمر ، الا أن التاريخ الذي تصنعه الشعوب ، وتصنعه الانسانية التي تتقدم بدون

توقف ، كفيل بايصال المستعمرين وخدمهم الى نهايتهم الحتمية ، الى قبرهم باحلامهم وجشعهم .

ان انشاء اسرائيل وتوسعها ، من الناحية العملية ، كان يتبعان دوما تطور التفكير الاستعماري ، الامر الطبيعي في حركة قلنا انها نشأت وترعرعت في خدمة الاستعمار . ففي أواخر القرن التاسع عشر ، عندما كانت حركة اتمام استعمار العالم المتخلف قائمة على قدم وساق ، كانت آمال القائمين على الحركة الصهيونية أن يضعوا هذه الحركة في خدمة الاستعمار كيفما اتفق وفي أية بقعة من بقاع الارض :

« يكفي أن يعطونا أية قطعة من الارض تتناسب وحاجات شعبنا وتكون لنا السيادة عليها » .

كان هذا القول لهرتزل ، الرائد الاول للحركة الصهيونية ، وهو موجه طبعا الى المستعمرين المنهمكين ، آنذاك ، بنهب أوطان الافريقيين والآسويين . بل ان هذا الصهيوني كان يعارض في بادىء الامر فكرة العودة المزعومة الى فلسطين ، وذلك لسبب بسيط ، وهو أن ظواهر الامور كانت تدل ، في أوائل الثلث الاخير من القرن الماضي ، على أن الدول الاستعمارية لن تتفق على اقتسام تركة – الرجل المريض – ، أي تركة الدولة العثمانية . فكان برأي هرتزل انه من الافضل للصهاينة أن يجدوا لحركتهم مجالا آخر ، غير فلسطين ، لتقديم خدماتهم فيه للمستعمرين ، سيما وان اعمال هؤلاء المستعمرين كانت مزدهرة في التوسع ، في مناطق غير مناطق الامبراطورية العثمانية ، في أفريقيا

وآسيا . الا أن تطور التزاحم على قناة السويس وطرق الشرق الاقصى وافريقيا الشرقية ، بين فرانسا وانجلترة ، جذب الحركة الصهيونية نحو منطقة شرقي البحر الابيض المتوسط .

ان أهميـــة فلسطين لا تقل عن أهميـــة مصر في الستراتيجية الاستعمارية ، كبلد على طريق أفريقيا الشرقية والشرق الاقصى وثروات الشرقين الادنى والاوسط . وهي من الناحية العملية تقع على الضفة الاخرى من قناة السويس ، الممر البالغ الاهمية في أواخر القرن الماضي والى الان . وعندما احتلت بريطانيا مصر فسلبت بذلك فرانسا « قناتها » ونفوذها في هـــذا البلد ، كانت الدولة الاخيرة تفكر جديا باسترداد « ما خسرته » ، أو على الاقل بتعويضه في فلسطين وسورية . ان فرانسا مثلا لم تعترف باطلاق يد بريطانيا في مصر الا بعد احتلالها لمراكش عام ١٩١٢ . لذلك وجدنا البيوتات المالية الاستعمارية الفرنسية ، وعلى رأسها بيت روتشلد ، وهي بيوتات مساهمة في القناة ، تحضر تبلور الحركة الصهيونية في « بال » وتوجهها في اتجاه فلسطين . وقد حاولت أيضا ألمانيا ، التي كانت تطمع « ببلع » الامبراطورية العثمانية ، استخدام الصهاينة . فتوسط سفيرها لدى الباب العالي في الاستانة ، في مطلع هذا القرن ، لاقناع السلطان عبد الحميد بهجرة اليهود الى فلسطين .

ثم لم تلبث بريطانيا ان أخذت « الطابة » بيدها ، في لعبة التسابق نحو طريق الهند ، ففكرت في بادىء الامر باستخدام الصهاينة في قبرص أو سيناء ، لتحقق بذلك هدفين :

١ ـ حرمان فرانسا والمانيا من هذه الوسيلة التي هي الصهيونية في

لعبة التســـابق الاستعماري في شرقي البحـــر الابيض المتوسط وعلى طريق الهند .

٢ ـ استخدام هذه الوسيلة في تعزيز مواقعها الاستعمارية في الشرق الاوسط وعلى طريق الهند .

الا أن التناقضات التي كانت تقوم في المنطقة ، بسبب الحركات الوطنية ، والتسابق الاستعماري ، وضرورة استرضاء سكان المنطقة ريثما يتم انزلاقهم تماما في براثن الاستعمار البريطاني ، كل هذا اخر تنفيذ هذه الفكرة . لقد كان بوسع بريطانيا مثلا ان تضغط على خديوي مصر ليرضى باعطاء سيناء الى الصهاينة ، الا أن هذا يخلق لها مضاعفات في مصر وفي الاستانة . كما ان اعطاء قبرص الى الصهاينة يثير المشاكل بينها وبين اليونان وتركيا ، لان هذه الجزيرة يونانية تركية . و كل هـذا يحقق لمنافساتها من الدول الاستعمارية ، كروسيا القيصرية والمانيـا وفرانسا ، سبقا لدى السلطان العثماني وفي المنطقة .

وسرعان ما يقدر الصهاينة صعوبات أسيادهم المستعمرين فلا يلحون كثيرا على تحقيق « أحلامهم في أرض الميعاد .. أو حولها » ، فنجدهم يقبلون بسهولة في مؤتمرهم السادس ، وعلى رأسهم « نبيهم » هرتزل ، التوطن في اوغندا البريطانية . وكان هذا الامر يبعد الصهاينة نهائيا عن لعبة الفرنسيين وغيرهم من المستعمرين (خصوم بريطانيا) في الشرق الاوسط . بالاضافة الى انه يوطد مراكز الاستعمار البريطاني في أواسط أفريقيا ، قرب السودان والكونغو وروديسيا ، البلاد الاسطورية في غناها بالذهب والماس . ولم يتحقق هذا المشروع بسبب موت هرتزل

وانقسام الصهاينة على بعضهم بعد ذلك • فعندما عرض تقرير لجنة الهجرة الى اوغندا بعد موت هرتزل ، الذي كان من أخلص عملاء الاستعمار البريطاني في الحركة الصهيونية ، على المؤتمر الصهيوني تغلبت الاتجاهات الاستعمارية الاخرى ، اتجاهات فرنسا والمانيا وروسيا القيصرية ، على الاتجاه البريطاني • ورفض التقرير المذكور لصالح « العودة » المزعومة الى فلسطين ، أو على الاصح الى منطقة قناة السويس وطريق الهند والشرق (طريق خزائن بريطانيا) •

وعد بلفور

ثم تمضي الايام ، ويتبين لفرنسا وبريطانيا ان عدوهما المشترك هو الدولة الالمانية الفتية التي كانت تطمح الى السيطرة على العالم ، فقامت تسوية نهائية فيما بينهما قبيل الحرب العالمية الاولى ، فاعترفت كل واحدة منهما على ما بيد الاخرى من غنائم : تركت فرنسا لانجلترا مصر والقناة وكل ما يتعلق بطريق الهند ، وتركت انجلترا لفرنسا الشمال الافريقي •

واندلعت بعدئذ نيران الحرب العالمية الاولى وكانت قد ظهرت القيمة الاقتصادية البالغة لمنطقة الشرق الاوسط : البترول في العراق وفي ايران وفي الخليج العربي • وقد فكرت بريطانيا بان قاعدة « ابدية » قريبة من القناة ومن مناطق البترول يكون لها فائدة عظيمة ، وليس احسن من فلسطين ومن الصهونية لهذه الغاية •

يقول مؤلف كتاب من « المتنعم في فلسطين » ، وهو انجليزي :

« **ان رجال الاستعمار البريطاني يرون ان**

اليهود بناء على وضعهم السيء في مختلف البلاد وما لديهم من رؤوس اموال كبيرة هم خير مايمكن لآلة الاستعمار البريطاني »

(وردت هذه العبارة في الكتاب الذي اصدره الجيش السوري « اسرائيل »)

ويقول اللورد ميلتشت في كتاب « الجار » عام ١٩١٧ :

« اني اتطلع بلهفة الى ذلك اليوم الذي تصبح فيه فلسطين وشرقي الاردن وحدة ضمن الامبراطورية البريطانية وتشغل مركزا مهما في جسم تلك الامبراطورية وتدافع عن هذه الوحدة عدة ملايين من اليهود الذين تربطهم بنا رابطة الوطن والاخلاص والمدنية »

(وردت هذه العبارة في كتاب ـ اسرائيل ـ للاستاذ سعدي بسيسو .)

ومن المعلوم ان الاخلاص بلغة المستعمرين يعني دوما اخلاص الخادم ، وان المدنية تعني الاستعمار . ثم ان ميلتشت هذا من أشد غلاة المدافعين عن الصهاينة ، ومع ذلك فهو لا يجد فيهم أكثر من خـدم مرتزقين لتوطيد الامبراطورية على طريق الهند وفي منطقة البترول ، التي هي بلادنا . الامر الذي يؤيد ما قلناه من أن هذه الحركة الرجعية لا تهدف الا الى خدمة الاستعمار تحت شعار الدين والعرقية وغيرهما .

صدر وعد بلفور في الثاني من تشرين الثاني عام ١٩١٧ ، ووافق الحلفاء على هذا الوعد قبل انتهاء صيف عام ١٩١٨ . وكانت حسابات المستعمرين ترمي ، في بادىء الامـــر ، الى وضع عنصر مستورد في

فلسطين ، الى وضع الصهاينة ليكون هؤلاء ركيزة ـ أبدية ـ لهم ضد السكان الاصليين العرب • فوعد بلفور يقتصر على ـ التبرع ـ بوطن قومي لليهود ، ولا ينص على تشكيل دولة لهم :

« ان حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وستبذل افضل جهودها لتسهيل ادراك هذه الغاية ، مع العلم بأن لا يعمل شيء يجحف بما للمجتمعات غير اليهودية القائمة في فلسطين من حقوق مدنية ودينية » •

وهذا أمر مفهوم جيدا ، فالمستعمرون الذين يذبحون شعوبا برمتها لا يشغلون بالهم بانقاذ اليهود من الاضطهاد او بتشكيل دولة لهم ، والصهاينة الذين يتاجرون باليهود لخدمة الاحتكارات العالمية الاستعمارية لا يخرجون عن هذا الهدف من اجل اعتبارات انسانية او وطنية • ان الامر لا يتعدى خدمة المستعمرين وكانت هذه الخدمة في بادىء الامر ، في أيام الاستعمار القديم ، تقتصر فقط على وضع ركيزة طيعة لجيوش الاحتلال البريطاني ، ركيزة على شكل وطن قومي لليهود ، وطن قومي في قالب صهيوني عميل للاستعمار •

تحول الوطن القومي الى دولة مع تحول الاستعمار القديم الى حديث

ظهرت أمور جديدة لم تكن في حساب الاستعمار عندما أسس الوطن القومي في فلسطين فالشعوب بدأت تتحرك منذ مطلع هذا القرن • واشتدت يقظتها فيما بين الحربين العالمتين • وفي نهاية الحرب العالمية

الثانية ، بدا للاستعمار جليا ان بقاء جيوشه في اراضي الشعوب المضطهدة ضرب من المستحيل . فالحرب العالمية الاخيرة التي بدأت حربا استعمارية ، بين وحوش كاسرة يمزق بعضها بعضا ، لاقتسام الشعوب والمنهوبات ، ما لبثت ان تحولت الى حرب وطنية هائلة وعامة تشترك فيها جميع شعوب الارض ضد كل انواع الظلم والاستعمار . وانقلب ميزان القوى انقلابا تاما لصالح الشعوب والتحرر بحيث اصبح استقلال المستعمرات وانفصال الشعوب التابعة عن المستعمرين امرا لا يمكن ايقافه بالوسائل القديمة . عندئذ ظهر الاستعمار الحديث الذي يطمح الى الاستمرار في نهب الثروات الهائلة للشعوب بوضع وسائل جديدة :

اذا لم يكن بد من تحرر الشعوب فليكن الاستقلال صوريا يقتصر على الشكل السياسي مع بقاء اقتصاد البلاد المتخلفة بيد المستعمرين .

وتحقيق هذا يحتاج الى سلسلة من التدابير المتنوعة : من اقامة العملاء على رأس حكومات البلاد المتخلفة ، والدس الدائم في مجتمعات هذه البلاد ونسف مكتسباتها في كل مرة تصل فيه الى نقطة التحرر والانطلاق من قيود المستعمرين ، ووضعها في دوامات لا تنتهي من الدجل والفزع والمؤامرات ، واشغالها بمشاكل مصطنعة الخ .. وقد جرى كل هذا في منطقتنا في الوقت الذي برزت فيه فكرة اقامة دولة صهيونية في قلب عالمنا ، وقد استمر كل هذا بعد ان تمكن الاستعمار من اقامة الدولة الصهيونية ، الدولة التي تشغلنا ابدا بمكافحتها وتؤخر انطلاقنا وبناء بلادنا التي خلفها الاستعمار قاعا صفصفا . وفي مثل هذا الجو المحموم ، المشحون بكل انواع الدجل والدس والارهاب والتآمر

وبذل الاموال الطائلة والوقت الثمين للاستعداد لعدو لئيم غدار ، يسهل على الاستعمار نهب المليارات من ثرواتنا البترولية وغير البترولية ٠

ان تحول الوطن القومي اليهودي الى دولة صهيونية يرافق اذن تحول الاستعمار من شكله القديم ، شكل احتلال اوطان الاخرين بالجيوش الاستعمارية ، الى شكله الجديد ، شكل الاعتراف بالاستقلال السياسي ضمن قفص الاستعمار الاقتصادي ٠ فالحركة الصهيونية على شكل وطن قومي تلائم وجود الاحتلال البريطاني لفلسطين : نزاع ابدي بين العرب واليهود يكون فيه بقاء البريطانيين المستعمرين امرا ـ لاغنى ـ عنه ، واضعاف العرب بافقارهم واشغالهم بمنازعات لا تنتهي أبدا ٠ الا أن هذه الاقلية الصهيونية على شكل وطن قومي لا تصمد امام العرب في طور الاستعمار الحديث الذي يعترف بالاستقلال السياسي ٠ فلا بد اذن من تحويله الى كيان سياسي مصطنع يقوم بين الكيانات العربية ليشن عليها العدوان ويشغلها ابدا عن الاستعمار ٠ ولا بد من دعم هذا الكيان السياسي المزيف بحمل الحياة اليه من بعيد ، من بلاد المستعمرين ، لانه كيان غريب منقطع تماما عما حوله ، ثم ان اسرائيل تمهد للضعف وللدجل وللرجعية في البلاد العربية وكل هذه الادواء في البلاد العربية تسهل بقاء اسرائيل وتلهي العرب عن افعال المستعمرين ولصوصيتهم ٠

ورب قائل يقول ان فكرة انشاء دولة اسرائيل ظهرت قبل نهاية الحرب العالمية الثانية اي قبل ظهور الاستعمار الحديث بكل خطوطه وكل تفاصيله ٠ ان هذا صحيح ، الا أن الاستعمار الحديث الذي نضج في اعقاب الحرب الاخيرة كان قد بدأ في الظهور منذ زمن طويل ٠

فشعوب امريكا اللاتينية مثلا كانت مستقلة سياسيا في الوقت الذي كانت فيه تابعة اقتصاديا للاحتكارات الاستعمارية الامريكية . كما كان هنالك عدد من البلدان المتخلفة المستقلة في الظاهر والمرتبطة في الواقع بالمستعمرين كالصين والحبشة وايران وغيرها . الا أن هذا الشكل من الاستعمار لم يكن يؤلف الا حلقات متممة في شبكة الاستعمار العالمي القديم ، الشبكة التي كانت تغطي كل العالم الرأسمالي . وفي اثناء اشتداد الحركات الوطنية العالمية ، اشتد ظهور النوع الجديد من الاستعمار ، اي ان اتجاه التحول كان من القديم الى الحديث . فلا عجب اذن ان تولدت فكرة الدولة الصهيونية مع تولد امكانية انطلاق الشعوب العربية نحو الاستقلال السياسي في فترة ما بين الحربين . وبالفعل فقد حاولت الصهيونية اغتصاب فلسطين منذ تلك السنين ، يساعدها في ذلك بعض كبار المستعمرين اصحاب النظر البعيد في قضايا الاستعمار ونهب الشعوب ، مثل تشرشل وتشمبرلن ولويد جورج وغيرهم . الا أن الغلبة كانت للاستعماريين الكلاسيكيين ، للاستعماريين من الطراز القديم . فكانت بريطانيا تمانع من جهة اية خطوة نحو الحكم الذاتي الذي يمكن العرب من وقف الهجرة ، وبالتالي يوفر لهم امكانيات أكبر في مقاومة الاستعمار ، ومن جهة اخرى كانت تلك الدولة المنتدبة تمانع في اقامة دولة صهيونية . لقد مر على فلسطين عدد من اللجان البريطانية ، وجرت مناقشات عديدة في لجنة الانتدابات في عصبة الامم ، بين المندوبين البريطانيين وبين اعضاء اللجنة ، وكانت تقارير كل تلك اللجان ، وكانت كل تلك المناقشات تدل جميعها على الامرين الآنفي الذكر ، اي ابقاء الامور ابديا بيد المستعمرين الانجليز .

ولقد كان من الواضح ان بريطانيا كانت تنتظر فرصة دولية مناسبة لضم فلسطين الى مقاطعات الدومنيون وتحويلها الى مستعمرة عادية :

« اني اتطلع بلهفة الى ذلك اليـوم الذي تصبح فيه فلسطين وشرقي الاردن وحدة ضمن الامبراطورية البريطانية الخ .. »

« قول اللورد ميلتشت الذي سبق آنفا » .

ولم تكن لتخطر في بال المستعمرين القدامى صور ما بعد الحرب العالمية الثانية ، صور انهيار الاستعمار القديم انهيارا تاما . وكانوا يظنون ان استعمارهم ابدي ، وان امبراطوريتهم التي لا تغيب عنها الشمس ستبقى ما بقيت الشمس .

لذلك كان اتجاههم في القضية الفلسطينية وفي قضايا مستعمراتهم الاخرى ، يتلاءم مع هذا الاعتقاد ، وبالتالي يتجه نحو تحويل فلسطين الى مستعمرة بمساعدة الصهيونية التي اقاموها في هذا البلد العربي . ولم تكد الحرب الاخيرة تضع أوزارها وتظهر الانهيارات الهائلة في بناء الاستعمار القديم لتقوم دول حديثة كانت حتى الامس القريب مستعمرة او تابعة ، وتستقل سورية ويستقل لبنان وتتهيأ بقية الدول العربية للسير في طريق التحرر ، حتى نرى المستعمرين الامريكان والانجليز يسارعون الى الاتفاق على اقامة دولة الصهاينة .. فنجد المستر بيفن ، وزير الخارجية البريطانية يعلن في تاريخ ١٤ تشرين الثاني عام ١٩٤٥ عن اتفاق انجلترة وامريكا على الاشتراك لحل قضية فلسطين ..

وهذه الشركة في تلك الايام ، بين بريطانيا التي حطمتها الحرب وانهارت امبراطوريتها او كادت ، وبين امريكا التي غدت اقوى دولـة استعمارية حديثـــة ، تعني بكل وضوح تسليم الاستعمار القـــديم (المتمثل ببريطانيا) للاستعمار الحديث (الذي تتزعمه امريكا وتدخل بريطانيا في جملته عضوا من الدرجة الثانية) في الشركة بفلسطين . وبذلك انتقل الصهاينـــة الى خدمة جملة استعمارية تضم جميـــع المستعمرين بزعامة امريكا ، بعد أن كانت في خدمة الاستعمار البريطاني وحده في فترة ما بين الحربين العالميتين ، وبعد ان كانت تتذبذب من باب مستعمر الى باب مستعمر آخر قبل الحرب العالمية الاولى ..

ملاحظة :

ومما يجدر ذكره ، انه في الوقت الذي كانت فيه الجزيرة العربية تظهر كبلد منتج للبترول من الدرجة الاولى في العالم ، كانت البيانات الانتخابية الامريكية في عام ١٩٤٤ تتحدث عن دعم اقامة دولة اسرائيل ، القاعدة الاستعمارية . وحتى يومنا هذا ، مازالت جميع الاحزاب والهيئات السياسية الامريكية تشتد في دعم اسرائيل واهداف اسرائيل مع اشتداد نهب بترول الشرق الاوسط وثرواته الاخرى ، ومع اشتداد حركـة التحرر في المنطقة . ان امريكا مثلا سلحت اسرائيل بصواريخ هوك ، واقامت في اراضيها القواعد الصاروخية عندما يئست مؤخرا من اعادة سورية الى حكم عبد الناصر ، وعندما تلكأت سورية في تسليم بترولها الذي يعادل البترول العراقي في غزارته الى كونكورديا الالمانية الغربية

(وهذه الشركة هي طليعة الاستعمار الامريكي البترولي ، كما ثبت مؤخرا) .

اسرائيل تستورد حياتها من الاستعمار

انهالت مساعدات دول حلف الاطلسي بزعامة امريكا على اسرائيل منذ اليوم الاول لقيامها : المساعدات المادية والسياسية والادبية ، ففي عام **١٩٥٠** كرس البيان الثلاثي الذي أصدرته امريكا وانجلترة وفرنسا ، دول جملة الاستعمار الحديث ، حدود اسرائيل التي تتجاوز خط التقسيم (كانت اسرائيل قد احتلت الجليل والمثلث العربي واللد والرملة وجنوب الخليل وغيره ، وهي مناطق عربية بموجب التقسيم الذي اقرته الامم المتحدة) وتعهد هذا البيان . البيان الثلاثي الشهير ، بحماية هذه الحدود بالقوة من قبل الدول الموقعة عليه ، وذلك بحجة حماية خطوط الهدنة . ولم تنفك امريكا عن التصريح ، على لسان رؤساء جمهوريتها وسفرائها ورجالها الرسميين ، بأن اسرائيل « **وجدت لتبقى وعلى العرب ان يتعلموا التعايش معها** » .

لقد تناولت اسرائيل حتى عام **١٩٥٦** مساعدات مادية من امريكا تساوي ثلاثمائة مليون دولار ، بالاضافة الى ستمائة مليون دولار اتتها من مؤسسات امريكية ، وخمسمائة مليون دولار ريع سندات القروض ، و **٨٧٥** مليون دولار قيمة التعويضات الالمانية (انظر كتاب الاستاذ بسيسو) ، ومئات ملايين الدولارات من دول استعمارية اخرى كفرنسا وانجلترة وغيرها .

ويستنتج من مقارنة الميزان التجاري الاسرائيلي ، بين التصدير

والاستيراد ، أن اسرائيل تشكو عجزا سنويا يتراوح بين ٢٠٠ ـ ٣٠٠ مليون دولار ، وذلك منذ عام ١٩٤٩ . و هذا الرقم على ضخامته لا يبين تماما اهمية العجز الا عند مقارنته بارقام التصدير والاستيراد . انه يساوي في أفضل السنين ضعف كل ما تصدره اسرائيل وثلاثة ارباع كل ما تستورده . اي انه كان على اسرائيل ان تضاعف تصديرها ثلاث مرات لتوازن بين الاستيراد والتصدير اما اذا نظرنا الى تغطية العملة الاسرائيلية بالذهب وبالعملات الاجنبية ، وهي تساوي ٩٠ مليون دولار ، فاننا نجد ان هذه التغطية لا تكفي لسد نصف العجـز التجاري الخارجي لسنة واحدة من احسن السنين . اما العجز في الميزانية العادية لهذه الدولة فهو مزمن ويتراوح بين ١٠ بالمائة و ٣٠ بالمائة من مجموع الضرائب العامة . والناظر الى الخط البياني لهذا العجز يلاحظ تغيراته المضطربة والمفاجئة ، كتغيرات حرارة المصابين بالحميات ، الامـــر الذي يدل بوضوح على الاضطراب الشديد لمالية اسرائيل . ثم ان هنالك ميزانية الاعمار المنفصلة عن الميزانية العادية والتي تتراوح ارقامها بين ٦٥ بالمائة و ٩٠ بالمائة من الميزانية العادية ، فتبلغ مثلا الرقم ٢٨٥ مليون ليرة اسرائيلية في عام ٩٥٦ والرقم ٥٢٠ مليون ليرة عام ١٩٦٠ ، وهي تصرف في مشاريع غير مثمرة لخزينة الدولة كاسكان المهاجرين ومشاريع النفع العام وغيره ..

ان دولة كهذه لا يمكنها أبدا ان تستمر في الحياة وحدها وبمعزل عن المعونات الاجنبية وان ما يفعله الاستعمار الامريكي واتباعه المستعمرون الآخرون ، اعضاء حلف الاطلسي ، عندما يقدمون المعونات بسخاء لها ،

م هو الا سكب الحياة في عروق هذا المخلوق العجيب الذي لا يوجد له مثيل بين الدول • وعندما نتذكر ان أسرائيل قد اقيمت في وطن عربي كبير يذخر بالامكانيات الهائلة ، البشرية والاقتصادية ، بعد تشريد مليون عربي عن ديارهم ، وانها قاعدة استعمارية لتهديد العرب على الدوام وتأخيرهم وسلب ثرواتهم ، فهم لكل هذا لا يرضون ابدا ببقائها ، واذا علمنا ان الصهيوني الواحد يقابله خمسون عربيا ، من العرب الذين يستوطنون في دول تتقدم بشكل طبيعي رغم أنف الاستعمار ورغم مكائده القذرة في الوقت الذي يسكن فيه هذا الصهيوني في دولة عجيبة كالتي رأينا ، في دولة يجبى لحمها وشحمها من الخارج ، اتضحت لنا تماما الاسباب التي تدفع بالاستعمار الامريكي الى البحث الدائب عن الوسائل التي تمد في أجل هذه الدولة الاصطناعية •

مما سبق ، يبدو لنا بجلاء تام كم هي قصيرة النظر تلك السياسة التي تفرق بين اسرائيل وبين الاستعمار العالمي الذي تتزعمه امريكا • ان النضال لاسترجاع فلسطين هو قبل كل شيء نضال ضد من هم وراء اسرائيل ضد امريكا وضد حلف الاطلسي الذي تتزعمه امريكا • ان اسرائيل قاعدة لضمان نهب ثرواتنا ولضمان تأخرنا ، فعلينا ان نزيل عنها هذه الصفة بافهام الاستعمار مرة والى الابد اننا نأبى استمرار النهب واننا نتقدم على الرغم منه ومن قاعدته هذه • وعندئذ ، عندما تصبح هذه القاعدة غير مفيدة له ، يتخلى عنها مرغما ويقطع مساعدته لها ، لان الكرم أبعد صفة عن طبيعته وهو لا يدفع المال الا لاصطياد اضعافه بالنهب والسرقة • اما ان نذهب اليه باكين شاكين ، اما ان نستجدي معوناته

ـ من اموالنا ـ ، اما ان نستجدي عطفه ، فهذا هو بالذات ما يعيد الى اسرائيل قيمتها كقاعدة مفيدة له ، وهذا هو بالضبط ما تريد وما ترمي اليه مخططاته . وعندئذ نسير نحو الانزلاق في شباكه حيث تعصف بنا دوامات عدم الاستقرار والتأخر تماما كما حدث ويحدث لبلاد امريكا اللاتينية .

التوسع الصهيوني في فلسطين

في فترة الانتداب ، اي فترة اقامة الوطن القومي اليهودي ، نجد الصهاينة يحتلون بمساعدة سلطات الاستعمار البريطاني جميع السهول الخصبة في فلسطين : وادي الاردن ، سهل ابن عامر ، السهل الساحلي حتى مشارف غزة . أما المناطق الجبلية ، منطقة الجليل ومنطقة نابلس ـ جنين ـ طول كرم ومنطقة رام الله ـ القدس ومنطقة الخليل ، فقد تركوها جميعها للعرب ، عدا بعض المستعمرات المتفرقة فيها وعدا القدس اليهودية . ولم يذهب الصهاينة في اتجاه النقب الى أبعد من بير السبع ، أي انهم تركوا النقب للعرب ، حيث كانت القبائل البدوية ترتحل فيه هنا وهناك .

ومما لا ريب فيه ان الصهاينة بانتقائهم تلك المناطق الانفة الذكر ، ليقيموا فيها استعمارهم كانوا يستولون على اخصب اراضي فلسطين . الا ان الدولة الكاملة لا تقتصر فقط على الاراضي الخصبة . فقليل الخصب قد يكون مخزنا لمياه كثير الخصب ، كما هو الحال في فلسطين : مياه المناطق الاسرائيلية تأتي جميعها تقريبا من المناطق الجبلية المحيطة . اضف الى هذا أن المعادن الثمينة والمنافذ التجارية والمناطق الستراتيجية

قد توجد بأكثريتها في المناطق القليلة الخصب : كان البحـــر الميت بأجمعه بحيرة عربية ، الا مشروعين صهيونيين في نقطتين من ساحله ، في الشمال وفي الجنوب ، وهو بحر غني جدا بالبوتاس والبروم • وفي النقب توجد مناجم النحاس والفوسفات ، وقد يكون هناك معادن اخرى • والنقب منفذ فلسطين على البحر الاحمر المتصل ببحار افريقيا الشرقية والشرق الاقصى والهند • ثم ان عرض المناطق اليهودية ايام الانتداب (وحتى اليوم) لا يتجاوز في اكثر الامكنة مرمى اي سلاح ثقيل يوضع في المناطق العربية •

ان هذا برهان جديد واضح على ما كنا قلناه من أن الصهيونية ليست أكثر من آلة بيد الاستعمار وهي لا تعتمد في بقائها الا على بقائه • فحساب الصهاينة كان منذ البدء كحساب الاستعمار : ابدية بقاء المستعمرين الانجليز في فلسطين والمنطقة العربية من الشرق الاوسط • لذلك لم تكن خططهم العملية تتجاوز حدود توفير الهجرة للعدد اللازم مـــن اليهود لتأسيس الوطن القومي المزعوم ، في السهول والوديان العربية اما ثروات بقية مناطق فلسطين ، اما امكانيات هذه المناطق ، فان الصهاينة كانوا يعتمدون على المستعمرين ليوفروا لهم منافعها •

ولقد تغيرت الخطة عندما تغير شكل الاستعمار فانتقل من القديم الى الحديث ، ورأينا ان قيام دولة اسرائيل أصبح من ضرورات تماسك الاستعمار الحديث وقيامه على قدميه في منطقتنا • وعندئذ أصبحت الاراضي التي استولت عليها الصهيونية في أيام الانتداب ، لاقامة الوطن القومي المزعوم غير كافية لقيام تلك الدولة • فضم لذلك مشروع التقسيم

اراضي النقب الى اسرائيل ، فأصبحت هذه الدولة بموجب المشروع المذكور ، تضم ما احتله الصهاينة أيام الانتداب مضافا اليه النقب . وعندما قدم الوسيط الدولي ، الكونت بيرنادوت مقترحاته في ٢٧ حزيران ١٩٤٨ ، وفيها يقول بوجوب اعادة النقب والقدس الى العرب ، دفع حياته ثمنا لهذا الاقتراح ، وقد غطت الولايات المتحدة هذه الجريمة بنفوذها - ولو انها تظاهرت رياء بالغضب وترحمت على بيرنادوت كما ترحمت مؤخرا انجلترا على همرشولد بعد ان قتلته - وساعدت على طمس تقرير الوسيط ليبقى النقب للصهاينة ، فهو يشكل رئتي اسرائيل وارض - ميعاد - واسعة - لملايين اليهود في خدمة - ارباب الميعاد - من آل روكفلر .

بعد هذا بقيت خطوات اخرى لا بد منها لاطالة عمر هذه الدولة الاصطناعية :

- التوسع في القسم العربي المخصص في مشروع التقسيم الذي أقرته الامم المتحدة .

- فتح خليج العقبة امام الملاحة الاسرائيلية ..

- ضمان المياه اللازمة للزراعة والصناعة ولاستصلاح اراضي النقب المهيئة لاستقبال كتل المهاجرين الضخمة .

- فتح قناة السويس امام البضائع الاسرائيلية .

وقد تحقق التوسع على حساب - حصة العرب - اثناء الحرب الفلسطينية عام ١٩٤٨ عندما كان المستعمرون يمسكون بخناق العرب

بواسطة حكامهم الرجعيين ويتركون الصهاينة يذبحون اهالي فلسطين العزل .

وضم الصهاينة الجليل ، ومدوا سواحلهم الى الحدود اللبنانية في الشمال والى جنوبي المجدل في الجنوب . واحتلوا اللد والرملة ومنطقة ام الفحم وجنوبي الخليل وغيره .

ثم تحقق لهم فتح خليج العقبة على يد عبد الناصر الذي قبل بوضع البوليس الدولي في منطقة شرم الشيخ في مطلع عام **١٩٥٧** . وما زال الامريكان حتى هذه الساعة يبذلون كل ما يستطيعون من جهد لضمان المياه للصهاينة بينما تقوم اسرائيل حاليا بانجاز مشاريع ضخمة للمياه . وفي هذه الايام تمر البضائع من والى اسرائيل عبر قناة السويس تحت اعلام دول الاستعمار وحليفاتها من الدول الاوروبية .

ان فتح خليج العقبة امام التجارة الاسرائيلية وصل هذه الدولة باسواق افريقيا واسـواق الشرق الاقصى ، الاسواق الدسمة للتجارة الصهيونية . ذلك لان السوق الاوروبية التي كانت تتصل بها اسرائيل قبل فتح العقبة ، عن طريق موانئها على البحر الابيض المتوسط لاتلائم تجارتها لازدحام هذه السوق . وستكون نتيجة فتح العقبة التخفيف عن كاهل الاستعمار في مساعداته لاسرائيل ، اذ تتمكن هذه الدولةمن تخفيف عجز ميزانها التجاري بتصدير بضائعها الى هذه السوق الهائلة التـي فتحت امامها . ثم ان اتساع ميناء ايلات وتقدمه ، مع مشـاريع الري القائمة حاليا في النقب سيساعد على اعمار منطقة النقب زراعيا وصناعيا . فاذا علمنا ان هذه المنطقة تساوي في مساحتها نصف مساحة اسرائيل

تبين لنا ان احلام الصهاينة ، ليست متواضعة ابدا ، بل انهم يخوضون معنا حاليا معركة مضاعفة اسرائيل . فهل هنالك اي مجال للعجب عندما نرى امريكا في هذه الايام تركب العربة الناصرية لتفريق كلمة العرب وضرب صفهم الوطني ؟..

قضى بن غوريون اكثر من سنة في النقب من أواخر عام ١٩٥٣ الى اوائل عام ١٩٥٥ ، يدرس امكانيات هذه المنطقة ويشرف على توسيع ميناء ايلات وعلى البدء في تنفيذ مشروع الري الكبير – من مياه الاردن – للنقب وعلى الترتيبات الاولية للهجرة ، وذلك تحت ستار – الاعتكاف والتأمل – . وعند عودته الى الحكم في عام ١٩٥٥ بدأ سياسة تتجه بوضوح نحو الحصول على طريق حر للتجارة الاسرائيلية عبر خليج العقبة .

وقد نشطت اميركا عندئذ بدفع عبد الناصر الى تنازلات في هذا الاتجاه : فاقترح تسيير دوريات مشتركة مصرية – اسرائيلية ، ثم اقترح وضع بوليس دولي بين الجيش المصري والجيش الاسرائيلي ، وكل ذلك في عام ١٩٥٥ ، اي قبل العدوان الثلاثي بزمن طويل . وعندما احيلت قضية العدوان على قناة السويس – في اواخر ١٩٥٦ واوائل عام ١٩٥٧ – الى الامم المتحدة كان وفد عبد الناصر من أول الوفود التي صوتت الى جانب وضع البوليس الدولي في شرم الشيخ ، البوليس الذي فتح خليج العقبة لتتنفس اسرائيل جيدا ..

ملاحظة : عندما ذهب وفد سوري الى اليمن في عام ١٩٥٧ كان هنالك في صنعاء وفد اميركي يضم القاضي بريتون ، القاضي الذي رئس

مدة طويلة المحكمة المختلطة في القاهرة والذي تربطه بعبد الناصر صداقة وطيدة يعرفها القاصي والداني • وقد جرت مناقشة بين احد اعضاء الوفد السوري وبين هذا القاضي ، في مرة من المرات ، حول خليج العقبة ، فقال القاضي : ولماذا تهتم سورية بخليج العقبة ؟ ان هذه المسألة تخص مصر واسرائيل فقط •••

اسرائيل و الناصرية في خدمة ا لاستعمار

ان اسرائيل تقدم الان خدمات لا تقدر للاستعمار في البلاد المتخلفة (وذلك بالاضافة الى انها قاعدة عدوانية من الدرجة الاولى ضد البلاد العربية ، فكل حركة تحررية تظهر في البلاد العربية تهدد بعدوان هذه القاعدة الاستعمارية) • فهي تلعب دور الجاسوس المستفز في البلاد الآسيوية الافريقية لمصلحة الاستعمار عن طريق التظاهر بمساعدة شعوبها • أضف الى هذا ان كثيرا من رؤوس الاموال الاستعمارية يتسرب الى البلاد المتخلفة عن طريق اسرائيل • فالاستعمار يعلم مقدار ما تكنه الشعوب المتخلفة من حقد كبير عليه ، ويعلم انها تنظر بريبة كبيرة الى كل حركة يقوم بها وتفضل التعامل مع الدول الصغيرة •• وهنا يأتي دور الدولة « الصغيرة » اسرائيل في اخفاء رؤوس الاموال الاستعمارية والدخول بها على تلك الشعوب • ولا بد من الاشارة الى أن جمال عبد الناصر يقوم بذات الدور لحساب الاستعمار في أفريقيا • انه مثلا سمح لرؤوس الاموال الاستعمارية بدخول مصر ، على أن يسمح بتصديرها بعد ذلك الى البلاد الافريقية الآسيوية • وهو أيضا يقوم في هذه البلاد بدور استفزازي لمصلحة الاستعمار الاميركي •

ففي صيف عام ١٩٦٠ قدم خدمة كبيرة للاستعمار الاميركي بمساهمته في تسليم الكونغو الى همرشولد ، الامين العام للامم المتحدة والعميل الاميركي المشهور ، وذلك بخدع لومومبا وايهامه بجدوى استدعاء قوات الامم المتحدة الى البلد المذكور . مع أن قليلا من الصبر كان كفيلا باخراج الاستعماريين البلجيكيين من الكونغو ، لان هؤلاء ما كانوا ليستطيعوا الثبات أمام الشعب الكونغولي الذي فرض عليهم حريته قبل تلك الحوادث بقليل ، وأمام غضب الرأي العام العالمي . وقد ساهم عبد الناصر في ذبح لومومبا تحت علم هذه القوات ، وتظاهر بالحزن عليه وسحب قواته من الكونغو امعانا في الدجل والخداع . لقد كانت غاية ما يصبو اليه الاستعمار الاميركي في أول أزمة الكونغو ، هي ان يكون له موطىء قدم في هذا البلد ليصفي حساباته مع البريطانيين الذين كانوا قد وضعوا اليد على ثروات كتنغا الاسطورية وقد مر معنا تفصيل ذلك . وكان مجيء همرشولد بقواته الى هذا البلد البائس كسبا كبيرا للمستعمرين الاميركان ..

ولا بد هنا من ان نلاحظ هذه الملاحظة البالغة الخطورة ، وهي أن اسرائيل تأخذ في الدول المتخلفة جانب الرجعية ، بينما يعمل عبد الناصر على اجهاض الحركات الثورية في هذه الدول ، والسياستان ، السياسة الصهيونية والسياسة الناصرية ، تتممان الواحدة الاخرى في خدمة الاستعمار العالمي ، انانباء السنين الاخيرة ، منذ ان فتح خليج العقبة ، لم تخل أبدا من زيارة لمسؤول افريقي أو آسيوي لاسرائيل ، في الوقت الذي نجد فيه عبد الناصر يجعل من القاهرة مصيدة لجمهرة

كبيرة من المناضلين ضـد الاستعمار من الافريقيين ، وذلك بشعاراته الزائفة الكاذبة ، حيث يعمل على الدس فيما بينهم وعلى تفريق صفوفهم. الا أن أمر عبد الناصر قد افتضح في الايام الاخيرة ، وأدرك كثير من الافريقيين دجله وخنوعه للاستعمار الاميركي . وقد ترك الكثيرون من المناضلين الافريقيين اللاجئين الى القاهرة مصر الى بلاد أخرى بعد ان تبينت لهم نيات الناصرية « غير النظيفة » .

زارني المرحوم صالح بن يوسف مرة عندما كنت في القاهرة . وقد حدثني حديثا طويلا ملآن بالشكوى من سوء المعاملة التي كان يلقاها من عبد الناصر وحاشيته . والمهم في هذا الموضوع أن هذا المناضل العربي بقي عشرات السنين رفيق نضال الحبيب بورقيبة ضد الاستعمار الفرنسي في تونس ، الى أن لجأ الاثنان الى القاهرة قبيل استقلال تونس. وكان عبد الناصر في الحكم في تلك الاثناء . ولم يمض وقت طويل على وجودهما معا قرب هـذا « الزعيم المحب للحرية وللاحـرار » حتى « اكتشفا » أمرا ظل خافيا عليهما عشرات السنين .. « اكتشفا » عداءهما الواحد للآخر . وقد انتهت حياة ذلك المناضل البائس ، صالح بن يوسف ، قتلا على ايدي مجهولين في ألمانيا الغربية التي لجأ اليها أيضا هربا من « محبة ناصر للاحرار » ..

وروى لي أحد الاصدقاء أن مناضلا كينيا رفض التحدث اليه ، عندما التقيا صدفة في بلد أوربي لما علم هذا الكيني أن صاحبنا مـن الجمهورية العربية المتحدة التي يرئسها عبد الناصر . وعندما أفهمـه صديقي بأن سورية تعاني ما كانت تعانيه من حكم الرئيس ، انشرح له

قلب الكيني وقص عليه ما يقوم به رسل الناصرية في كينيا من دس وتفريق بين الصفوف الوطنية الكينية : تارة بتحريض المسلمين على الوثنيين وأخرى بتحريض أفراد الجالية العربية على السود الخ ..

ان الحبشة بقيت لا تعترف باسرائيل طيلة اثنتي عشرة سنة ، الى أن اشترك عبد الناصر مع أميركا في تدبير انقلاب ضد النجاشي هيلاسلاسي عام **١٩٦٠** . وكان أول عمل تقريبا قام به النجاشي بعد أن أخمد انفاس الانقلابيين هو الاعتراف باسرائيل اعترافا كاملا « نكاية بالعرب » الذين يظن بأن عبد الناصر يمثلهم . وكانت وكالات الانباء العالمية قد أذاعت نبأ طيارة مصرية كانت تحاول الهرب من مطار في أديس أبابا ، عاصمة الحبشة ، وفيها عدد من الضباط المصريين الذين اشتركوا بحركة الانقلاب الفاشلة ، وذلك عند دخول قوات النجاشي الى هذا البلد .

اسرائيل والمياه العربية

« .. ان اليهود يخوضون اليوم مع العرب معركة المياه ، وعلى مصير هذه المعركة يتوقف مصير الكيان اليهودي ، واذا لم ننجح في هذه المعركة فكأننا لم نفعل شيئا في فلسطين .. »

من خطاب بن غوريون في تل أبيب عام ١٩٥٥ .

مشاريع الري الاسرائيلية

ان الامطار والثلوج التي تسقط على المرتفعات ، ثم تتسرب مياهها في طبقات الارض هي مصدر المياه والينابيع والآبار ، فحيث لا مطر ولا ثلوج توجد الصحارى . فالامطار والثلوج التي تسقط على جبل الشيخ

بمعدل يزيد عن ١٣٠٠ ملمتر سنويا ، وعلى هضبتي الجولان وحوران ومرتفعات الجليل وجبال عامل بمقدار ١٠٠٠ ملمتر سنويا ، وعلى مرتفعات نابلس ورام الله والقدس بمقدار ، ٦٠٠ ميلمتر سنويا هي مصدر كل ما في فلسطين من مياه ، وجميع المناطق السابقة ، الا منطقة صغيرة هي الجليل مناطق عربية غير محتلة : جبل الشيخ في سورية ولبنان ، الجولان وحوران في سوية ، جبال عامل في لبنان ، مرتفعات نابلس ورام الله والقدس تشكل الضفة الغربية من الاردن .

ان التقديرات الحالية لكميات المياه التي تنحدر او تتسرب من هذه المرتفعات الى فلسطين فتشكل عيونها وانهارها ومياهها الجوفية وسيولها ، تصل بسهولة الى مليارين ونصف مليار متر مكعب سنويا ، منها ما يقرب المليارين تنحدر في وادي الاردن وحده . وكان الصهاينة في عام ١٩٤٨ يستثمرون ٢٥٠ مليون متر مكعب سنويا ، الا انهم في فترة عشر سنوات رفعوا هذه الكمية فأصبحت ١١٥٠ مليون متر مكعب سنويا في عام ١٩٥٨ وذلك باقامة عدد من مشاريع الري .

- مشروع الحولة لتنظيم مياه الاردن وتجفيف بحيرة الحولة .
- مشروع بيسان المستند الى بحيرة طبريا .
- مشروع الجليل الغربي لاستثمار مياه الجليل الغربي بعد حصرها وتنظيمها .
- مشروع اليركون - النقب ، ويمتد من تل ابيب حتى بئر السبع ، ويستثمر مياه الضفة الغربية التي تنحدر نحو الساحل .
- مشروع الاردن - النقب وهو اكبر مشروع وسنتكلم عنه بشيء من التفصيل .

فالري قد ازداد اذن في اسرائيل بمقـــدار ٥٠٠٪ في فترة عشر سنوات ، وازدادت بالفعل مساحة الاراضي المروية ٥٠٠ بالمائة في ذات الفترة : من ٣٠٠ الف دونم عام ١٩٤٨ الى مليون ونصف المليون دونم في عام ١٩٥٨ • ثم ان الصهاينة يأملون في مضاعفة الاراضي المروية في مشاريعهم المقبلة ، وذلك بتطوير شبكات الري ، كما انهم يقدرون زيادة كميات المياه المستثمرة بمقدار ١٠٠ - ١٥٠ مليون متر مكعب سنويا - انظر كتاب اسرائيل الصادر عن الجيش السوري - • وان هـذا يعني ببساطة مضاعفة عدد اليهود في اسرائيل •

نشرت جريدة النيويورك هيرالد تريبيون مؤخرا مقالا لمراسلها في تل أبيب حول تحويل مياه الاردن الى النقب • وقد قال المراسل بان هذا المشروع هو الجزء الاسرائيلي من مشروع جونستون ، وانه سييسر لاسرائيل ارواء ٧٥ الف هكتار جديد مـــن اراضي النقب اي زيادة الاراضي المروية الاسرائيلية بمقدار ٥٠٪ • ويقول المراسل المذكور ، بناء على المعلومات التي استقاها من سلطات تل ابيب ان مشروع الاردن - النقب يهدف الى تحويل ٣٢٠ مليون متر مكعب سنويا من مياه بحيرة طبريا • والواقع ان جميع الارقام التي ترد من اسرائيل عن المياه هي دون الحقيقة بكثير • ذلك لان مشاريع الري الصهيونية هي جزء من الحرب التي تشنها الصهيونية على العرب ، والمياه سر استراتيجي في هذه الحرب • انها معركة ، كما يقول بن غوريون في خطابه الشهير في تل أبيب عام ١٩٥٥ ، الخطاب الذي أشرنا اليه في مطلع هذا البحث • ان الصهاينة يحاولون ايهامنا بان ما سيأخذونه من الاردن يساوي اقل من

نصف حاجتهم من المياه للتوسع في النقب : فما سيأخذونه من طبريا ٣٢٠ مليون متر مكعب ، على حسب قول مراسل النيويورك هيرالد الذي اشرنا اليه سابقا ، وما يحتاجونه هو ٧٥٠ مليون متر مكعب على أقل تقدير - لارواء ٧٥ الف هكتار في النقب بمعدل عشرة آلاف لتر لكل هكتار في الموسم - . بل ان بعض الدراسات ، ومنها عربية بكل أسف ، توهمنا بان غاية مشروع الاردن اخذ ٢٠٠ مليون متر مكعب سنويا الى النقب .. حسابات تشبه تماما حسابات روكفلر البترولية عندما يمارس عملية نهب بترول الشرق الاوسط .

ان اقل التقديرات ، وهي تقديرات صهيونية قدمت بمناسبة مشروع جونستون تبين ان الكميات السنوية لمياه الاردن ، بما في ذلك جميع روافده وينابيعه ، مع ما يؤمل ان يأتي من مشروع على الليطاني في لبنان ، تساوي ٢٣٤٥ مليون متر مكعب . وقد طالب الصهاينة بهذه المناسبة ، اي مناسبة مشروع جونستون بحصة من المياه تساوي ١٢٩٠ مليون متر مكعب . وعندما نستثني اليرموك وينابيع بحيرة طبريا وماكان يؤمل ان يأتي من الليطاني نجد ان الاردن الذي يخرج من الحولة يصب في بحيرة طبريا كميات من المياه لا تنقص عن ٧٠٠ مليون متر مكعب سنويا ، وذلك دون حساب السيول التي ترفع الارقام السابقة بنسب لا بأس بها . وسنبين فيما يلي من البحث الترتيبات التي أعدها الصهاينة لسرقة مياه الاردن وتحويل هذه المياه الى النقب .

اثر المشاريع العربية في اسرائيل

ان قيام مشاريع الري والكهرباء في البلاد العربية ، المشاريع التي

تستند الى تحويل روافد الاردن ، وعلى حفر الآبار ، وعلى اقامة سلسلة من السدود في طريق السيول المتجهة الى اسرائيل ، امر بالغ الاهمية في التنمية الاقتصادية لكل من سورية ولبنان والاردن ، بل انه لا يقل في نتائجه الاقتصادية عن بناء سد الفرات • وتتضمن هذه المشاريع بصورة عامة الخطوط التالية :

اولا : ارواء الجولان وحوران بتحويل بانياس ، الرافد الشمالي للاردن وبحفر سلسلة من الآبار في هاتين المنطقتين •

ثانيا : اتمام ارواء حوران بتحويل جزء من نهر اليرموك ، الرافد الاوسط للاردن ، وترك الجزء الآخر من هـذا النهر لارواء الغور العربي • وفي هذه الحالة يمكن الاستفادة من مسقط المياه الذاهبة الى الغور العربي لتوليد طاقة كهربائية تفيد في رفع حصة سورية الى خزان على ارتفاع مناسب ، بحيث يمكن ارواء منطقة مناسبة من هضبة حوران • وقد تتوفر بعد هذه قدرة كهربائية تساعد على بناء صناعة مفيدة ، كمصنع اسمدة وما شابه •

ثالثا ـ تحويل الحاصباني في لبنان الى الليطاني ، والقيام بسلسلة مشاريع على الليطاني بحيث يتولد من كل هذا طاقة كهربائية لا يستهان بها ابدا • وعندئذ يمكن ارسال كمية من المياه الى سلسلة من الخزانات لارواء السفوح الغربية لجبل الشيخ ، وارواء منطقة القرعون وجنوبي البقاع ، وارواء جبل غامل ـ الذي لم يبتل ريق سكانه من عهد الطوفان ـ ثم انه من الممكن عندئذ اقتناص عيون مرج عيون ومنعها من السيلان في الاردن الى الاراضي المحتلة والاستفادة منها في ارواء المناطق الشمالية

الشرقية من جبال عامل • ويمكن اتمام هذا المشروع بحفر سلسلة من الآبار واقامة سلسلة من السدود لحصر ميـــاه السيول في ايام الشتاء وللاستفادة منها صيفا •

رابعا ـ القيام بسلسلة من مشاريع الري في جبال نابلس والقدس ورام الله بتحويل الغدران ، وحصر الينابيع ، واقامة السدود لحصر السيول وحفر سلسلة من الآبار في الاماكن المناسبة •

كل هذه المشاريع والاعمال تهدد بالفشل مشاريع اسرائيل لاستثمار المياه العربية ، الامر الذي لا يهدد توسع هذه الدولة الاصطناعية فحسب بل يهدد وجودها من اساسه • • وقد رأينا نحن في سورية بالتجربة مثل هذا الامر فقد ادت اعمال التوسع في الري في حوض دمشق خلال السنين الاخيرة ، اي خلال عشر سنوات فقط ، الى جفاف بحيرتي العتيبة والهيجانة ، اللتين تكونتا من آلاف السنين ، بالاضافة الى جفاف الكثير من الابار ـ انظر مقال الدكتور جان خوري في مجلة المهندس العربي عدد ٤ عام ١٩٦٢ ـ • وقد ترددت هذه الظاهرة في اكثر من منطقة في سورية وهي ظاهرة طبيعية ومفهومة تماما •

فكل اقليم على سطح الارض ينقسم الى عدد من المناطق الهيدروغرافية ـ المائيـــة ـ ، بحيث تشكل ميـــاه كل منطقـــة من هـــذه المناطق جمـــلة مائيـــة مترابطـــة لا ينفصل بعضها عـــن بعض ابـــدا : فالينابيع والانهار والسيول والمياه الجوفية والآبار في منطقة هيدروغرافية واحدة ، تتأثر كلها بعضها بالبعض الآخر ، وترتبط ببعضها البعض بتضاريس الارض وطبقاتها ، عـــلى حسب قوانين فيزيائية ـ يمكن

تحديدها ـ بحيث تشكل جميعها كلا واحدا لا يتجزأ • والمساس بطرف من هذه الجملة لا بد من ان يؤثر بكيفية ما ، بالاطراف الاخرى منها : حفر سلسلة من الآبار مثلا واستثمارها يؤدي الى جفاف سلسلة اخرى من الآبار ، في مكان قريب او بعيد • وعند القيام بدراسة كاملة لهذه الجملة ، من النواحي الجغرافية والجيولوجية والفيزيائية نتمكن من اكتشاف قوانين ارتباطاتها وبالتالي اكتشاف الطرق الآيلة الى التحكم بها • وهذا يعني بوضوح أن بامكان العرب قطع المياه عن اسرائيل لان فلسطين تشكل تقريبا منطقة هيدروغرافية واحدة •

الاستعمار يسعى الى وضع العرب في شركة مياه مع الصهاينة

تدرك اسرائيل تماما خطورة وضعها في مسألة المياه ، المياه التي قلنا انها تأتي كلها تقريبا من الاراضي العربية المحيطة بالارض المحتلة فهي لذلك تولي هذه المسألة الاهتمام الاول دائما • فمنذ عام ١٩٤٦ ، اي قبل قيام اسرائيل بسنتين ظهر مشروع صهيوني باسم ـ هايز ـ سافيج ـ غايته تحويل مياه الاردن اعتبارا من الاراضي العربية الى النقب • والهام في هذا المشروع هو ما يهدف اليه من تعاون بين العرب والصهاينة على استثمار المياه العربية ، الامر الذي يعني الاعتراف لاسرائيل رسميا بحصة من المياه العربية ، وبالتالي الاعتراف لها بالتدخل في اي مشروع من مشاريع الري قد تقوم به دولة او دول عربية ، بحجة حقها المزعوم في المياه العربية • اي ان المشاريع العربية ، التي سبق وتكلمنا عنها ، كتحويل فروع الاردن وارواء سهل حوران وغيره ، هي امور

ممنوعة على العرب ما لم يسمح بها الصهاينة ، ولا يسمح بها الصهاينة ما دامت تؤدي الى قطع المياه عنهم .

ثم يأتي ، في عام ١٩٥٣ ، مشروع جونستون الامريكي المشهور ، المشروع الذي تظاهرت اسرائيل برفضه ، خبثا ورياء ، والذي كان عبد الناصر يدفعنا الى قبوله بحجة ان الصهاينة يرفضونه .. هذا المشروع يستهدف الاهداف الاساسية التالية :

أولا ـ مشاركة الصهاينة للعرب في كل ما في حوض الاردن من مياه . اي اقرار الصلح بين العرب والصهاينة عمليا وبالتالي التنازل عن كل حقوقنا في استعادة ارض فلسطين ، لان الشريك يعترف بشريكه .

ثانيا ـ منع العرب ، بحجة هذه الشركة من القيام بأي مشروع من مشاريع الري التي ذكرناها آنفا ، والاحتفاظ بحصة الاسد للصهاينة من مياه الاردن لزيادة امكانيات الهجرة الى فلسطين ، وبالتالي رفع الطاقة البشرية الصهيونية ، الطاقة الاساسية في الصناعة وفي الحروب .

ثالثا ـ السماح للعرب ببعض مياههم للقيام باسكان اللاجئين الفلسطينيين في الاقسام العربية من وادي الاردن : في مناطق الجبهة السورية ، وفي الغور الاردني . وبهذا يقر العرب مبدأ عدم عودة اللاجئين الامر الذي يوفر مزيدا من هجرة الصهاينة الى فلسطين .

رابعا ـ عندما يصبح وادي الاردن شركة بين الصهاينة والعرب ، يأمل الصهاينة في أن يتغلغلوا في هذا الوادي على حساب العرب بالقوة او بالحيلة .

ويكفي ان نورد العبارتين التاليتين اللتين وردتا في حيثيات المشروع لادراك مغزاه الاستعماري ٠

« ان بعض نواحي المشروع قد يكون تنفيذها في حكم المستحيل ما لم تجر تسويات سياسية (بصريح العبارة : ما لم يقم الصلح بين العرب والصهاينة) لقيام مراقبة مناسبة على المياه وايجاد ضمانات كافية لتأمين اسالتها باستمرار » ٠

« وان الحدود الوطنية القائمة حاليا تجعل من غير اليسير والمستطاع استغلال مصادر المياه لحوضي اليرموك والاردن الا اذا تم التعاون بين الدول ذات العلاقة (اي التعاون بين العرب والصهاينة) ٠

انظر كتاب اسرائيل لقيادة الجيش السوري صفحة ١٣٤ ٠

وهذا القول يبين بوضوح ما بعده وضوح الفخ الذي تريد امريكا ايقاعنا فيه : التنازل عن فلسطين عن طريق شركة المياه مع الصهاينة ٠ ويبين ايضا مقدار جزع الاستعمار الامريكي واسرائيل من قطع المياه عن الاخيرة من قبل العرب ، فهم يفتشون عن ــ الضمانات ــ الكافية لتأمين اسالة المياه العربية الى الصهاينة ٠ الا ان سورية قادت العرب الى قبر هــذا المشروع في مهده عام ٩٥٥ وذلك على الرغم مــن الضغط الناصري الامريكي ٠

مشروع تحويل الاردن الى النقب

اسرائيل تسابق الزمن في مشاريع الري

كانت اسرائيل منذ عام ٩٥٣ قد وضعت مشروع ري ينجز بعشر

سنوات يمكن تسميته بحق الجزء الاسرائيلي لمشروع جونستون اي ان المشروع الاستعماري الاخير عرض على العرب من قبل امريكا بعد أن صممت اسرائيل جزءها الخاص بها منه . وقد بدأ الصهاينة فعلا منذ ذلك التاريخ بتنفيذ هذا الجزء العائد اليهم في مشروع جونستون دون ان ينتظروا موافقة العرب على هذا الاخير او رفضهم اياه . وهم اذ يغامرون بكل الانشاءات الضخمة اللازمة لمشروعهم ، الانشاءات التي لا تفيدهم بشيء الا باستمرار سيلان المياه العربية الى فلسطين يبيتون النية على فعل كل شيء لمنع او عرقلة كل مشروع عربي لتحويل المياه الى غير الاراضي الفلسطينية المحتلة . اضف الى هذا انهم يأملون دوما بالعودة الى مشروع جونستون ، او الى اي مشروع آخر يشاركون العرب فيه وتكون الفائدة منه اكبر لهم ، و ذلك عن طريق الضغط والفساد والتآمر على كل بلد عربي يهمه هذا الامر ، بواسطة حماتهم المستعمرين ، وبواسطة عملاء المستعمرين من بني جلدتنا .

ان الستراتيجية الصهيونية في معركة المياه العربية تستهدف امرين خطيرين :

اولا ــ مضاعفة عدد اليهود في فلسطين بايصال هذا العدد الى خمسة او ستة ملايين وذلك بارواء النقب الذي تساوي مساحته نصف مساحة فلسطين .

ثانيا ــ منع عودة اللاجئين العرب الى ديارهم في فلسطين ، وبالتالي عدم مضايقة هجرة اليهود الى هذا البلد بزيادة كثافة سكانه بعودة العرب اليه . ولما كان معظم اللاجئين يقطنون حاليا الاردن ، فان بعض مشاريع

الري في البلد الاخير يساعد على توطين هؤلاء اللاجئين نهائيا في هـذا البلد العربي ، وذلك على أن لا تكلف هذه المشاريع كميات كبيرة من المياه التي تؤخذ من المشاريع الصهيونية لري النقب ، او بالاحرى من حسابات الصهاينة في مشاريعهم لري النقب .

وبالفعل رفضت وكالة غوث اللاجئين الواقعة تحت النفوذ الامريكي، مساعدة الاردن في مشروع اليرموك عام ١٩٥٢ ، لان هذا المشروع كان يهدف الى تحويل كميات كبيرة من المياه عن الارض المحتلة ، والى استعمال هذه المياه في ري الاراضي الاردنية . اضف الى هذا ان المستعمرين الامريكان كانوا في ذلك الوقت ، يعدون ، من وراء العرب ، مشروع جونستون للشركة بين العرب وبين اسرائيل على المياه العربية وتنظيم توزيع هذه المياه بحيث تحرم منها سورية تقريبا ، وبحيث يأخذ الاردن جزءا ضئيلا منها ، وبحيث تفوز اسرائيل بهذا التوزيع بحصة الاسد ، وفي هذا المشروع كان مقدرا تحويل مياه اليرموك الى طبريا . اي الى اسرائيل ، اولا وقبل أن يأخذ الاردن منه قطرة ماء . وعندما فشل هذا المشروع الاستعماري عادت وكالة الغوث المذكورة وساعدت الاردن في مشروع آخر لليرموك ، تترك فيه حصة هامة من المياه تذهب الى نهر الاردن بانتظار استثمارها من قبل اسرائيل . والغاية من هذه المساعدة هي كما قلنا ، مساعدة اسرائيل على رفض عودة اللاجئين الى ديارهم بتوطينهم في الاردن .

خدعة الفصل بين أخذ مياه طبريا وبين تحويل الاردن

هنا كامر هام في معركة المياه العربية ، وهو محاولة اسرائيل تموين

صحراء النقب بالمياه العذبة • بتحويل الاردن اعتبارا من مخرجه من الحولة الى تلك الصحراء • الا ان هذه العملية تحتاج الى حفر قناة في الاراضي المجردة أمام الجبهة السورية وتحت نيران مدافعنا •

وعبثا حاول الصهاينة منذ عام ١٩٥٣ حتى يومنا هذا ، انمام هذا الجزء من مشروع تحويل الاردن الى النقب ، الا انهم كانوا يفشلون امام ثبات سورية في الدفاع عن حقها •

حاول جمال عبد الناصر ، في أيام الوحدة جر الوزراء السوريين الى الموافقة على ـ السكوت ـ عن تحويل الاردن الى النقب ، بالسماح لاسرائيل بانجاز تلك القناة في الاراضي المجردة فطرح خريف عام ١٩٥٩ على مجلس الوزراء في القاهرة عرضا لهمرشولد بتقديم اموال امريكية ضخمة لمساعدة العربية المتحدة في برامج التنمية وذلك لقاء سكوت سلطات هذه الجمهورية عن تحويل مجرى النهر من الاراضي المجردة •• وكانت نظرية عبد الناصر • على حسب ما شهد به الوزراء السوريون الذين حضروا تلك الجلسة ببياناتهم التي نشروها في صيف هذا العام ـ ١٩٦٢ ـ ان الصهاينة سيجدون الوسيلة لتحويل النهر ، قبل العرب بذلك ام لم يقبلوا ، فيكون من الافضل اذن برأي الرئيس عبد الناصر ، أن ـ يقبض ـ العرب ثمن هذا التحويل اموالا تفيدهم في برامج ـ التنمية ـ (التي من جملتها طبعا برنامج تنمية المباحث) وكان عبد الناصر يتوهم في ذلك الوقت انه قد يتمكن من اكمال مخططه في تصفية الجيش السوري ، الجيش الذي وقف دائما وابدا ضد جميع مشاريع المستعمرين والصهاينة ، ليخلو له الجو تماما مع أمريكا واسرائيل•

الا ان الاجتماعات الوزارية العاصفة ، التي جرت في اواخر عام ١٩٥٩ في القاهرة ، لم تقنع عبد الناصر ان اوهامه ليست مجرد اوهام فحسب ، بل بينت له ان حكمه سينسف من اساسه فيما لو تجرأ وخطا هذه الخطوة المجرمة .

وفي شهر آذار عام ١٩٦٠ قام بن غوريون برحلة الى امريكا ، حيث قابل الرئيس الامريكي ايزنهور ، والرئيس الالماني الغربي ادنور – الذي كان في أمريكا أيضا تلك الايام وذلك خصيصا لمقابلة بن غوريون – وهرتر وزير خارجية الولايات المتحدة وهمرشولد الامين العام للامم المتحدة وقد باحث بن غوريون كل هؤلاء في قضية تحويل الاردن . ومن الواضح ان هذه الزيارة كانت اثر فشل عبد الناصر في تحضير الجو الملائم في سورية لتمكين اسرائيل من تحويل الاردن من الارض المجردة امام الجبهة السورية ، الفشل الذي نوهنا عنه قبل هنيهة . وقد صرح بن غوريون في اعقاب هذه الزيارة بأن الرئيس الامريكي نصحه بأخذ المياه من بحيرة طبريا دون ان يمانع في تحويل الاردن من الاراضي المجردة . والغريب أن يكون موضوع تصريح بن غوريون متشابها مع موضوع ابحاث المجالس الوزارية القاهرية (السرية) . والغريب ان تتقارب تواريخ انعقاد هذه المجالس . وتاريخ رحلة بن غوريون الى امريكا : كان اول اجتماع وزاري في القاهرة لبحث موضوع الاردن في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٥٩ ، واحيلت القضية الى اللجان التي استمر عملها طيلة شهر كانون الاول ١٩٥٩ ، وجرى اجتماع وزاري آخر في ٩ كانون الثاني ١٩٦٠ ، وسافر بن غوريون الى نيويورك في شهر آذار عام

١٩٦٠ . فلماذا لم يسافر بن غوريون مثلا قبل اجتماع مجلس وزراء القاهرة في تشرين الثاني اذا كان الامر محض صدفه ..؟

ان العجب يزول عندما ننتبه الى ان الاستعمار الامريكي هو الذي يمسك بخيوط الصهاينة وبخيوط الناصرية ، وان همرشولد عميل هذا الاستعمار ، كان هو السمسار لتلك العملية ، فنجد لذلك أن الموضوع الذي يبحث في مجلس وزراء القاهرة « بشكل سري .. عن الشعب العربي يبحث أيضا في تل ابيب وفي واشنطن وفي بون . »

نقول ان بن غوريون صرح في اعقاب زيارته تلك لواشنطن بأن الرئيس الامريكي نصحه بأخذ المياه من طبريا دون ان يمانع في تحويل الاردن من الارض المجردة . وعند تمحيص هذا التصريح يتضح لنا الدجل وتتضح لنا التعمية . فبحيرة طبريا هي خزان هام في مشاريع الري الاسرائلية . وسنبين فيما سيأتي من البحث أن تحويل النهر من الاراضي المجردة لا يتعارض مع الاعمال التي يقوم بها الصهاينة في هذه الايام على طبريا بل ان هذه الاعمال مع عمل تحويل الاردن من الاراضي المجردة ، كل هذه الاعمال لا تشكل الا اجزاء من مشروع واحد ضخم .

كان عبد الناصر يقول للوزراء السوريين في اجتماعات تشرين الثاني عام ١٩٥٩ الشهيرة ان من ـ حق ـ الصهاينة ان يحولوا الماء من ـ ارضهم ـ خارج الاراضي المجردة ، من طبريا مثلا ، ولذلك كان من الحكمة برأيه ان نقبل بتحويل الاردن من الاراضي المجردة لقاء دريهمات معدودات يغدقها عليه ايزنهور ويحملها اليه السمسار

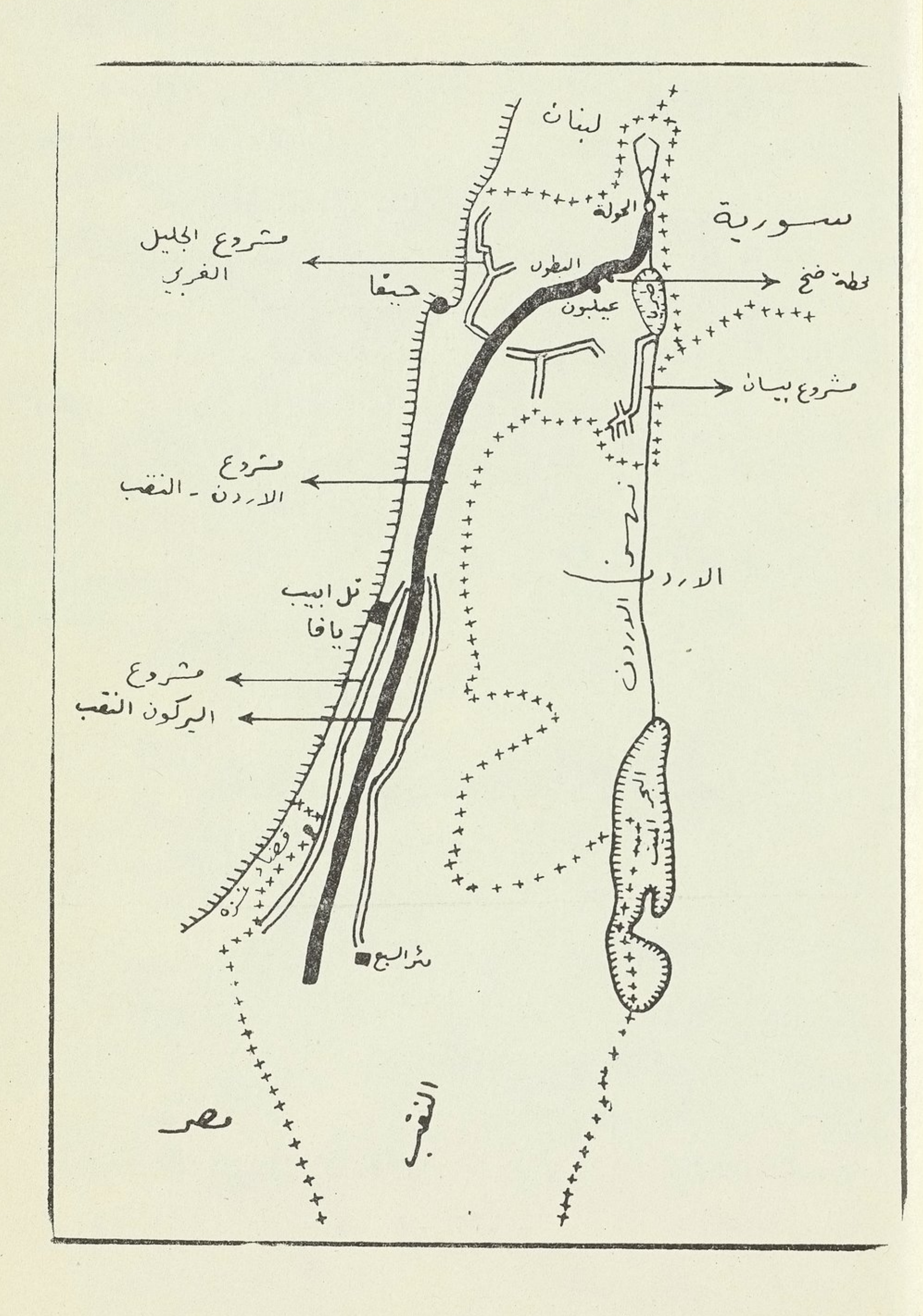
همرشولد • وكان الآخر بن غوريون يقول بعد زيارته لامريكا ومقابلته للاشخاص الذين ذكرناهم آنفا ، ان ايزنهور لم يمنع تحويل الاردن الا انه نصح بضخ المياه من بحيرة طبريا •• والاثنان ، عبد الناصر وبن غوريون يتفقان في محاولة ايهام العرب ودفعهم الى الفصل بين عملية التحويل وبين الاعمال التي تقرر أن تقوم بها اسرائيل على طبريا مع أن عملية التحويل والاعمال التحضيرية على هذه البحيرة ، ليست الا حلقات في سلسلة واحدة •

ان هذا الدجل والكذب من قبل عبد الناصر وبن غوريون معا ليسا من قبيل العبث والتسلية بخداع العرب ، وانما يهدفان الى امر خطير هو التثبيط من عزائم السوريين في الوقوف أمام عمليات التحويل من الاراضي المجردة :

يقوم الصهاينة بأعمال تحضيرية على بحيرة طبريا ، وهذا فعل يشكل جزءا لا يتجزأ من مشروعهم ، ويوهمون السوريين بأنهم استغنوا عن تحويل الاردن من الاراضي المجردة : (التحويل ، الذي يشكل أيضا جزءا لا يتجزأ من مشروعهم) ، وذلك بالتظاهر بانهم سيأخذون الماء من طبريا •

ويظن الصهاينة ويظن الاستعمار معهم ان السوريين سيجدون ان ممانعتهم التحويل من الارض المجردة ضرب من العبث ماداموا قد خدعوا فظنوا بان التحويل سيجري من طبريا •

عندئذ يتدخل عبد الناصر ليستغل هذا الموقف ويحتج ـ بالتنمية ـ وبالاموال الامريكية ـ الوفيرة ـ •• لعل السوريين يقبلون بعملية



لبنان
سورية
الحولة
مشروع الجليل الغربي
البطوف
حيفا
محطة ضخ
عيلبون
مشروع بيسان
مشروع الاردن - النقب
نهر الاردن
الاردن
تل ابيب
يافا
مشروع اليركون النقب
قطاع غزة
بئر السبع
البحر الميت
النقب
مصر

التحويل من الاراضي المجردة لقاء الاموال الامريكية ، ولان ممانعتهم التحويل ـ لا تفيد شيئا ـ ...

ولا يخسر الصهاينة شيئا من اعمالهم في بحيرة طبريا ، التي من جملتها اقامة محطة لتوليد الكهرباء بالمحروقات ـ المازوت ـ فيما لو سمح لهم السوريون بالتحويل من الارض المجردة ، لاننا قلنا ان العمليتين جزء لا يتجزأ من مشروع واحد ثم ان الصهاينة يتمكنون بسهولة من استثمار اعمالهم في بحيرة طبريا : الاعمال التي اشرنا اليها آنفا ، لاقامة مشروع موقت يهدف الى ضخ كمية من المياه كافية للبدء في مشروع الاسكان في النقب ، وذلك بانتظار الفرصة المناسبة لمعاودة محاولة تحويل الاردن من الاراضي المجردة .

ان عملية الخداع الآنفة الذكر ، لايهامنا بعدم جدوى منع التحويل من الاراضي المجردة لاتضيع وقت الصهاينة ، وكان عبد الناصر يشارك بجد في هذا الخداع .

الاقسام التي انجزت من مشروع الري الاسرائيلي

ان مشروع الري الذي تقوم به اسرائيل حاليا ، والذي قلنا انها بدأت به منذ عام ١٩٥٣ ، يرتكز على اعتبار بحيرة طبريا خزانا طبيعيا ضخما للمياه وحوضا هائلا لتربية الاسماك . وقد انجز الصهاينة من هذا المشروع الاعمال التالية (انظر المخطط) :

اولا : الجزء الاعظم من قناة ستأخذ مياه نهر الاردن من مخرج النهر من الحولة الى عيلبون ، حيث ستوضع محطة لضخ المياه الى سهل البطوف الذي يرتفع عن سطح البحر بمقدار ١٥٠ مترا . وستسير المياه

في هذه القناة بالسيلان الذاتي ـ بالراحة ـ حتى محطة الضخ المذكورة • ويتفرع عن القناة في نقطة تشرف على قرية الطابغة (وترتفع عن بحيرة طبريا بمقدار ٢٦٠ مترا) ، شلال يحرك مجموعة كهربائية • وستدار محطة الضخ في عيلبون بالتيار الكهربائي المتولد من هذه المجموعة الكهربائية لترفع مياه القناة الآنفة الذكر الى مرتفعات البطوف • كما أن التيار الكهربائي المذكور سيستخدم لتقوية الشبكة الكهربائية في المنطقة •

ان جزءا من القناة السابقة يجب ان يمر من الاراضي المجردة ، امام الجبهة السورية • وقد قلنا ان اسرائيل حاولت منذ بدء الاعمال في مشروع الاردن ـ النقب انجاز هذا الجزء الا ان سورية منعتها ولا تزال تمنعها حتى الآن من اتمام هذا العمل •

ثانيا ـ في الرحلة التي قام بها بن غوريون الى امريكا في ربيع عام ١٩٦٠ ، والتي تكلمنا عنها فيما سبق ، تمكن هذا من الحصول على المال اللازم من أمريكا وألمانيا الغربية لاقامة محطة ضخ تعمل على المحروقات في منطقة الطابغة • وقد تواترت الانباء بأن الصهاينة قد انجزوا بناء هذه المحطة التي ستدفع الى سهل البطوف ، ومن هذا السهل الى النقب ، الماء اللازم للبدء بمشاريع الاسكان في منطقة النقب • الا ان الجدير بالملاحظة ان هذه الانشاءات لا تكفي لتوفير كل الماء اللازم لاعمار النقب ، وبالاضافة الى هذا فان منطقة النقب يزيد ارتفاعها عن سطح بحيرة طبريا اربعمائة متر ، الامرالذي يزيد زيادة كبيرة في نفقات تحويل المياه منالبحيرة • الا انه من جهة اخرى تفيد هذه الانشاءات بتوليد تيار كهربائي ـ بالمازوت ـ كما تفيد بمساعدة القناة المذكورة آنفا ـ في البند الاول ـ في توفير المياه

الاضافية من بحيرة طبريا عندما يتدفق ملايين اليهود الى النقب وتدعو الحاجة الى المزيد من المياه .

ثالثا - انجزت اسرائيل تمديدات الانابيب من سهل البطوف الى النقب .

سيكون مشروع الاردن - النقب بمثابة العمود الفقري لجميع مشاريع الري الاسرائيلية ، وسيتصل بها جميعها تقريبا - بالحسابات الاسرائيلية طبعا - ، سيتصل بمشروع الجليل الغربي ، وبمشروع بيسان وبمشروع اليركون - النقب ، فيمد هذه المشاريع بالماء للزراعة والصناعة والاستهلاك الشخصي ، عند الحاجة ، ويأخذ منها الفائض الى النقب عندما يكون فيها فائضا .

ان التقديرات الاسرائيلية لمياه الاردن ، التي تسيل بانتظام هي ٧٠٠ مليون متر مكعب سنويا موزعة كما يلي :

١٥٧ مليون متر مكعب لنهر بانياس - ينبع في سورية -

١٥٧ مليون متر مكعب لنهر الحاصباني - ينبع في لبنان -

٢٥٨ مليون متر مكعب لنهر دان - ينبع من تل القاضي في الاراضي المحتلة -

١٣٠ مليون متر مكعب من ينابيع متفرقة .

المجموع ٧٠٢ مليون متر مكعب سنويا .

اننا نعتقد بأن هذه التقديرات هي دون الواقع بكثير ، بالنظر لغزارة ما يهطل من امطار وثلوج على المرتفعات المحيطة بالجزء العلوي من وادي الاردن : جبل الشيخ ، الجولان ، الجليل الشرقي . ومع ذلك

فاننا اذا اضفنا الى التقديرات الاسرائيلية ما ينحدر في الوادي من السيول فان الكمية السابقة تتجاوز بسهولة ٨٠٠ مليون متر مكعب سنويا •

ان تحويل هذه الكمية الهائلة من المياه من الحولة الى النقب بمنعها من الوصول الى طبريا يوفر ارتفاعا يقرب من ٢٦٠ مترا : (ينخفض سطح طبريا عن سطح البحر بمقدار ٢١٠ أمتار) وترتفع قناة تحويل الاردن من الحولة حتى عيلبون بمقدار وسطي يبلغ ٥٠ مترا •

الا ان سهل البطوف يرتفع عن القناة الآنفة الذكر بمقدار ١٠٠ متر ويرتفع النقب عنها بمقدار يزيد عن ١٥٠ مترا ، فاذا لزم تحويل كل الكمية السابقة ، اي ٨٠٠ مليون متر مكعب سنويا وهي كمية ضرورية لاستصلاح ٧٥ ألف هكتار في النقب وللصناعة وللاستعمال الشخصي لملايين المهاجرين بل انها دون كفاية كل هذه الحاجات • نقول اذا لزم تحويل كل تلك الكمية وجب استعمال التيار الكهربائي لمحطة الضخ على طبريا ، التيار المتولد بالمحروقات – بالمازوت – ، ووجب توليد قوى كهربائية أخرى لمساعدة التيار الانف الذكر •

الا أن ملايين اليهود لن يأتوا دفعة واحدة ، ولن تنبت المصانع في يوم واحد ، ولن تستصلح كل تلك الاراضي في سنة واحدة ، لذلك يمكن التفكير بتوليد تيار كهربائي بالشلال الذي قلنا انه يحرك محطة كهرمائية عند قرية الطابغة على طبريا ، ويمكن استعمال هذا التيار في رفع جزء من مياه قناة التحويل عند عيلبون الى سهل البطوف •

ويوجد في طبريا ينابيع مالحة تعطي سنويا مقدار ٣٥٠ مليون متر مكعب • ويبلغ مقدار ما يتبخر سنويا من هذه البحيرة نحو ٣٠٠ مليون

متر مكعب ، كما ان هنالك ينابيع عذبة ـ في شرقي البحيرة ـ تعطي سنويا ١٥٠ مليون متر مكعب ، فعودة جزء من مياه نهر الاردن بواسطة شلال الطابغة الانف الذكر ، الى البحيرة ، يحافظ على النسبة المنخفضة للملوحة الحالية للبحيرة ، وبالتالي يحافظ على مشاريع الري التي تستند الى مياه البحيرة ، كمشروع ري بيسان . الا ان الصهاينة يأملون في تحويل جزء هام من مياه اليرموك الى بحيرة طبريا ، فمياه اليرموك تصب حاليا خارج البحيرة عند جسر المجامع ، وعندئذ ، اي عند تحويل اليرموك الى طبريا ، تصبح اعادة جزء من نهر الاردن الى طبريا امرا لا لزوم له ويمكن لذلك تحويل هذا النهر برمته الى النقب ، اذا دعت الحاجة وازدحم المهاجرون اليهود في تلك المنطقة . وهذا يعني بوضوح ان كل ما يقوم به الصهاينة من اعمال ، في قناة التحويل من الحولة (القناة التي يجب ان تمر من الاراضي المجردة) ، وما يقومون به من اعمال على بحيرة طبريا ، (محطة الضخ) ضروري جدا لمشاريعهم الهادفة الى اعمار النقب .

هذا هو سر دجل عبد الناصر ودجل بن غوريون . فالضخ من طبريا لا يتعارض مع التحويل من الارض المجردة ، والعكس بالعكس ، انهما عملان من مشروع واحد ولا يمكن الاستغناء عن احدهما بالآخر ، وعلى الاخص لا يمكن الاستغناء عن التحويل بالضخ من طبريا الا بتكاليف باهظة جدا . وان الواقع يبرهن على هذا ، لان الصهاينة يقومون بالعملين معا .

ان منطقة النقب لا تقل خصوبتها عن خصوبة وادي النيل عندما يتوفر لها الري الكافي . فهي ارض بكر يكثر فيها الندى وتهطل زخات

المطر سنويا وتوجد فيها المياه الجوفية • وقد دلت التجارب على أن القطن والحبوب ونباتات المناطق الحارة بصورة عامة تعطي نتائج مدهشة في اراضي هذه المنطقة عند توفر الري الكافي • فاذا ما تمكن الصهاينة من اتمام الامكانيات الحالية لري المنطقة المذكورة بجر مياه الاردن اليها ، فان مضاعفة اسرائيل وايصال عدد سكانها الى الخمسة او الستة ملايين يصبح امرا واقعا ، وهذا ما يسعى اليه الاستعمار الامريكي

يقول كندي لعبد الناصر في كتابه الذي نشرته الاهرام في يوم الجمعة ٢١ ايلول ١٩٦٢ ما يلي :

« نحن على استعداد للمساعدة في ايجاد حل منصف ومعقول (كذا !••) للمشكلة الناجمة عن المشروع الخاص بتنمية موارد نهر الاردن كما اننا على استعداد للمساعدة في احراز تقدم بشأن اية ناحية من نواحي هذه المشكلة المعقدة (كذا !••) »

ولم نجد ردا في جواب عبد الناصر المنشور في ذات العدد من الاهرام على هذا التدخل الوقح من صديقه كندي •• الا ان جوابه كان قد صرح به في عام ١٩٥٥ عندما كان يدفعنا الى قبول مشروع جونستون ، وفي خريف عام ١٩٥٩ عندما كان يحاول اقناع الوزراء السوريين بعدم جدوى مقاومة عملية التحويل من الاراضي المجردة •

الجهل والدجل في خدمة اسرائيل والاستعمار
الخطأ في مفهوم الهدنة

لا بد من ايضاح امر هام ، وهو أن الهدنة بين العرب واسرائيل لا تشكل اكثر من عمل عسكري بحت لا يلزم العرب بأي اعتراف

باحتلال فلسطين من قبل الصهاينة • وقد نصت على هذا بكل صراحة ووضوح قرارات الامم المتحدة الداعية الى عقد الهدنة ، كما نصت عليه اتفاقيات الهدنة بين الدول العربية ، واسرائيل • وهـذا يعني ان الهدنة لا تشكل جدارا بـين العرب واسرائيل يحمي هجرة الصهاينة حتى يصلوا الى وضـع يسمح لهم بشن حرب ابادة على العـرب • فمنع كـل عمل يهـدد كيـان العرب ويهـدد بتأبيـد احتـلال فلسطين هو حق صريح لنـا ، لانـه حق الدفاع عـن وجودنا ووجود الشعب الفلسطيني أضف الى هـذا ان قرارات الامم المتحـدة واتفاقيات الهدنة تقول صراحـة : ان اتفاقيات الهدنة لا تمس حقوق الطرفين المتنازعين • وموضوع ذلك النزاع هو فلسطين طبعا • الا انه من المؤسف ان بعض المسؤولين العرب وفي مقدمتهم عبد الناصر ، اعتادوا دوما تثبيت انظارهم على خطوط الهدنة فقط في كل مرة يأتي فيها ذكر فلسطين ، وكأن ما يجري داخل البلد المحتل لا يهمنا أبدا ما دام بعيدا عن تلك الخطوط • ألم يقل عبد الناصر مثلا للوزراء السوريين في الاجتماع اياه ، اجتماع ٢٩ تشرين الثاني ١٩٥٩ ان الصهاينة سيضخون المياه من ارضهم بعيدا عن خطوط الهدنة ؟ ألم يصرح بهذا مرة اخرى باجتماعه الشهير بأهل غزة في صيف هذا العام ؟ وأي أرض لهم ما دمنا لم ولن نعترف باحتلالهم لفلسطين •

لقد اجتمع لعبد الناصر من القوة والظروف ما لم يجتمع لاحد غيره أبدا ، ومع ذلك فانه لم يفعل شيئا ليمنع الصهاينة من اتمام مشروعهم الخطير بمضاعفة سكان اسرائيل • بل انه استعمل تلك القوة وانتهز

تلك الظروف ليسمسر على قضايا العرب في سوق النخاسة الاستعماري ، وليبيع فلسطين لامريكا والصهيونية •

قلنا فيما سبق ان بامكاننا ان نقطع المياه عن الصهاينة ، الا ان هذا لا يعني وجوب امتناعنا عن فعل كل ما بوسعنا لمنع مشاريع الري الاسرائيلية • بل علينا ان نضع من الآن كل ما يلزم لاسترداد حقوقنا في الوطن السليب وان نصر على السير في هذا الطريق حتى ولو ادى الامر الى استعمال القوة • الا ان هذا يتطلب اولا وقبل كل شيء ادراك أمر على غاية كبيرة من الاهمية ، وهو : ان نضالنا لاسترجاع فلسطين هو قبل كل شيء نضال ضد الاستعمار الحديث بزعامة امريكا ، الاستعمار الذي يحمي اسرائيل • وكم من مصالح لهذا الاستعمار في بلادنا يجب تقويضها على رأسه ليفهم بأن هذه القاعدة لاتفيده شيئا ، ما دامت وجدت لحراسة مصالحه وقد ولت الى غير رجعة هذه المصالح •

العملاء في خدمة اسرائيل

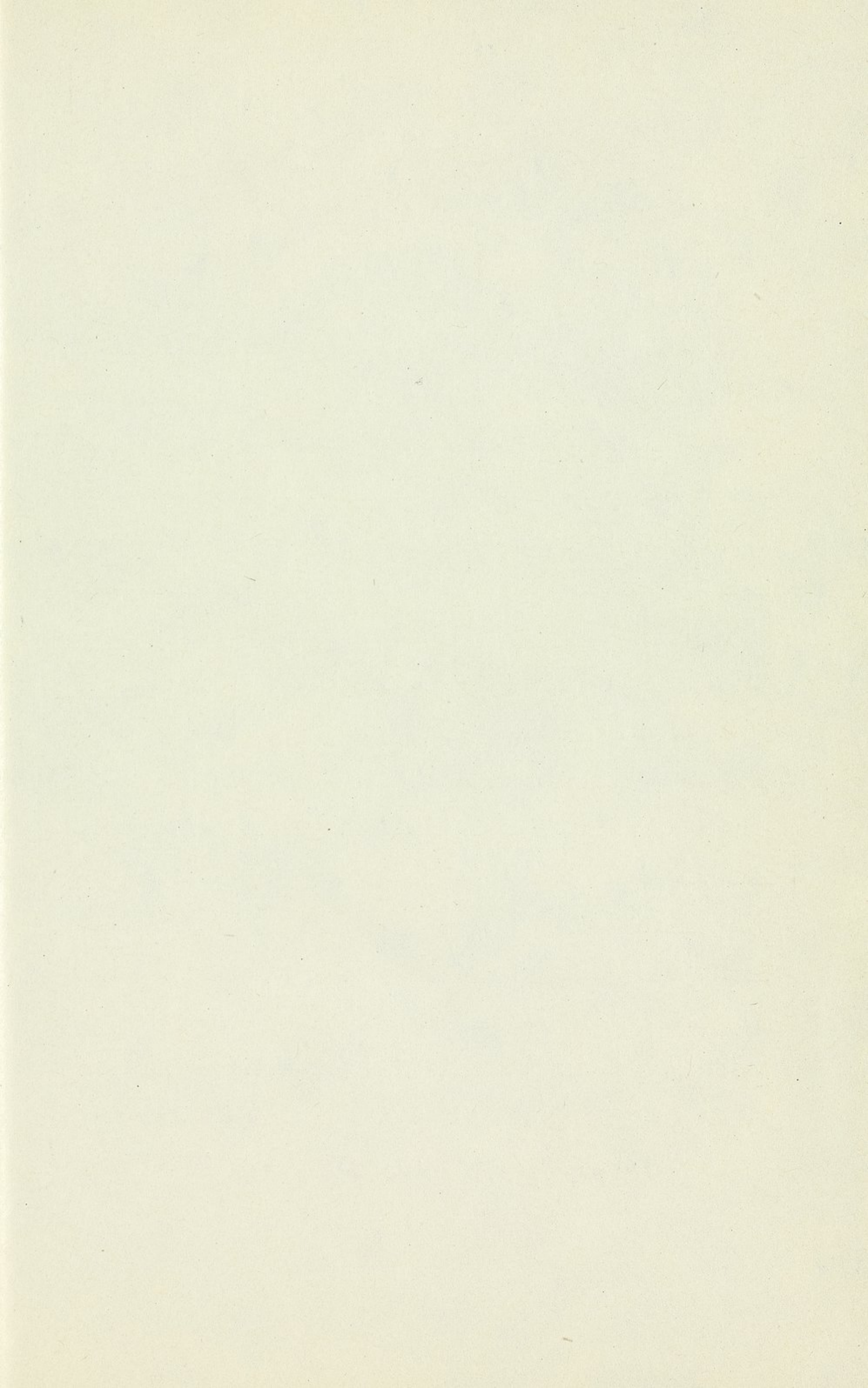
ان ما يهدف اليه الصهاينة هو خطير للغاية ، فما تم من مشروع الاردن حتى الآن ، على ضخامته ، لا يشكل الا مرحلة ابتدائية من مشروع ري هائل يوفر للصهاينة زيادة سنوية في موارد المياه تبلغ ١٠٠ ـ ١٥٠ مليون متر مكعب • فبحيرة طبريا خزان هائل لكميات ضخمة من الامطار والثلوج التي تسقط على مرتفعات المنطقة ، على جبل الشيخ وعلى الجولان وحوران وعلى الجليل وجبال عامل • وان الارقام التي مرت معنا ليست في الواقع الا تقديرات ابتدائية لهذه الثروة المائية الضخمة ، وانها لا تتضمن ما تحمله السيول من مياه غزيرة ولا تتضمن تقديرات

المياه الجوفية • ثم ان هنالك مياه اليرموك التي يأمل الصهاينة دوما بجلبها لتصب في بحيرة طبريا بدلا من انصبابها في جسر المجامع ، كما ان هنالك نهر الليطاني في لبنان ، النهر الذي يصب في البحر المتوسط جنوبي صيدا ، والذي يتلمظ الصهاينة لمياهه ويأملون دوما في الوصول اليها بطريقة من الطرق •

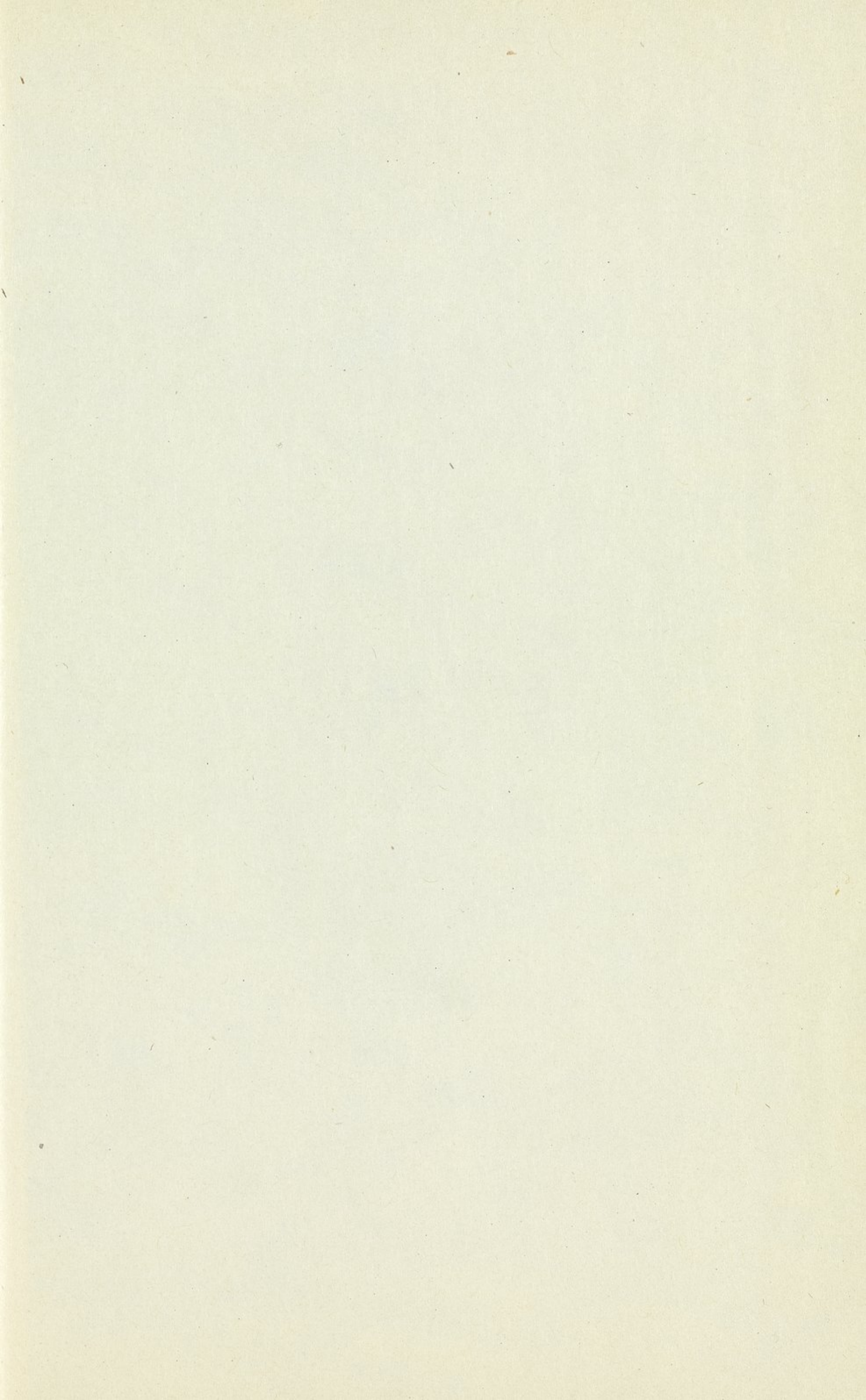
ان الاستعمار يقاوم بكل ما يستطيع كل مشروع عربي يعرقل اعمال الري الاسرائيلية فقد رأينا كيف ان وكالة الغوث عرقلت مشروع اليرموك في عام ١٩٥٣ • وعرف كل الناس ما انتهت اليه مشاريع نهر الليطاني في لبنان ، فانهارت وخسفت بها الارض ـ لكثرة ما ارتكب القائمون على هـذا المشروع من رشوات مـن قبل الشركات الاجنبية الاستعمارية التي يهمها فشله ـ •

وعندما قامت الضجة حول قضية تحويل نهر الاردن ، وتسربت الاخبار عن ذلك الاجتماع الوزاري الذي حاول فيه عبد الناصر ان يجر الدولة الى التسليم بالتحويل ، قام هذا الاخير باخراج تمثيلية غايتهـا طمس الموضوع • ففي شهر آب من عام ١٩٦٠ اعلنت السلطات الناصرية في سورية عن مناقصة لتحويل نهر بانياس • وكان قد وضع في الميزانية مبلغ مليوني ليرة سورية لهذا الغرض فتقدم المهندس السيد مروان جندي الى هذه المناقصة بعرض قبل في بادىء الامر • وقد قام المهندس الجندي بعد ذلك بالدراسات اللازمة • الا أنه في النتيجة فوجىء باعادة النظر بالعرض الذي تقدم به دون مبرر قانوني ـ واين القانون في تلك الايام ـ ثم استمرت القضية بين أخذ ورد حتى نهاية العام ثم طويت وسحب المبلغ المخصص

لهذا المشروع من الموازنة . والواقع ان اعلان السلطات في شهر آب عن طلب عروض لتحويل بانياس ما هو الا جزء من تمثيلية تقع فصولها الاخرى في مجلس الامة المزعوم في القاهرة . فقد دفعت الناصرية النواب المباحثيين الى طرح سؤال استفسار عن موضوع تحويل الاردن في جلسة المجلس المذكور المنعقدة في ٣١ تشرين الاول عام ١٩٦٠ اي في الوقت الذي كان فيه الاستاذ مروان الجندي يجهد في دراساته اللازمة لتحويل بانياس .. وقطعه عن الصهاينة .. وبعد أخذ ورد اجاب عبد الحكيم عامر مطمئنا ـ النواب ـ ان الدراسات تجري لقطع المياه عن الصهاينة . ـ اي لقطع ١٥٧ مليون متر مكعب من اصل مليارات الامتار المكعبة المتدفقة على اسرائيل من اراضينا ـ . وبعد انتهاء هذا الفصل بتبرع النواب ـ بالاطمئنان ـ المطلوب ، انتهى لزوم عمل الاستاذ الجندي ، الذي خسر من وقته وماله وعرقه في هذا النصب المباحثي . فوضعت العراقيل في وجهه اولا ثم طوي المشروع وسحبت امواله من الموازنة ـ لتحول بدون شك الى ابواب ـ اشد نفعا ـ لقطع الاطمئنان والحرية عن المواطنين بدلا من قطع الماء عن الصهاينة ، خدم الاستعمار الامريكي الذي يحبه عبد الناصر . ان هذه القصة لا تدل فقط على تهريج عبد الناصر وجوقته ، بل ان لها دلالة اخطر ، وهي ان الناصرية كأشد انواع الرجعية العربية سوادا تقدم خدمات للاستعمار بضمان سيلان المياه العربية الى الصهاينة تحت ستار هذا التهريج والدجل . وهي بذات الستار تستر عن انظار الشعب اعمال الصهاينة في اتمام مشاريعهم الخطيرة في الارض المحتلة ، كمشروع تحويل تلك المياه الى النقب لخلق الظروف المواتية لمضاعفة يهود اسرائيل وتهديد وجود العرب ابدا .



القسمُ الرابع



الناصرية

مصر قبل الثورة

الجيش يصبح ظفر الشعب ونابه

في اعقاب معاهدة ١٩٣٦ اتخذت حكومة الوفد قرارا بقبول ابناء الشعب المصري في الكلية العسكرية . وكان القبول في هذه الكلية قبل ذلك مقتصرا على أبناء الاسر الاقطاعية ، وابناء الاسر غير المصرية ، وذلك تبعا لسياسة رجعية استعمارية تهدف الى فصل الجيش عن الشعب . لقد قال الفريق عزيز المصري ، قائد الجيش المصري عام ١٩٤٠ لصحفيين افرنسيين :

« لم يكن جيشنا مرضيا ، فالانجليز هم الذين صنعوه بهذا الشكل ، كي لا يكون قوة حقيقية .. »

الا ان الحال بدأ يتغير منذ ان وضع قرار الوفد الآنف الذكر موضع التنفيذ اضف الى هذا أنه كان هنالك بعض الضباط القدامى الشرفاء الذين تمكنوا من التسرب الى صفوف الجيش ، على الرغم من

المراقبة الشديدة من الاستعمار والرجعية • ولم تبدأ الحرب الفلسطينية حتى كان جيش مصر يعج بمئات الضباط الشباب ، من ابناء الشعب ، الضباط الذين كانوا ممتلئين وطنية وحماسا وعزما أكيدا لخدمة وطنهم والتضحية من أجله • كانت هذه الجمهرة من الضباط مع جمهرة الجنود والرقباء ظفر الشعب ونابه ، وكانت على تناقض بين مع الزمر القديمة المتفسخة والقابعة في اعالي سلم الرتب ، الزمر التي كانت تجد في احناء الظهر للملك الفاسق وفي تلبية كل رغباته الشريرة والماجنة شرفا كبيرا لها ، والتي تحجر عقلها وقلبها بحيث لم تكن لتستطيع ان تحلم بعالم يخلو من عبد وسيد ومن استعمار وتابع •

الفساد والاستعمار يهيئان لقيام اسرائيل

كانت الحرب الفلسطينية آخر امتحان يمتحن به الشعب حكامه القدامى من الاقطاعيين المتفعين الذين كانوا يؤلفون البطانة الفاسدة للملك الفاجر • ومن الطبيعي ان يكون الفشل حليف هؤلاء الحكام الذين نموا وترعرعوا في احضان المستعمر ورعايته : (ذهب الجيش المصري كما ذهبت كل الجيوش العربية الاخرى بدون ذخائر الى المعركة) • وكانت سفارات الاستعمار الانجلو ـ امريكي ـ افرنسي تشترك مع اكثر الحكام العرب ، ومن جملتهم حكام مصر ، في وضع سياسة الحرب ، السياسة التي كانت تؤدي دوما الى فقدان العرب للمزيد من ارض فلسطين ، بحرب عجيبة يوزع المستعمرون فيها النصر لمن يشاؤون ومتى يشاؤون • ثم ان فلسطين استلبها الاحتلال الصهيوني ، احد اشكال الامتدادات الاستعمارية الحديثة ، وتشرد مليون عربي فلسطيني ، يفنيهم الجوع والمرض في

خيام البؤس والشقاء • وعاد الجيش المصري الى مصر في هذا الموكب المحزن ، عاد ليقص على الشعب تفاهة الكثيرين من قادته الكبار وجبنهم وجهلهم ، وليسمعوا من الشعب القصص العجيبة عن الخيانات والارتكابات التي كانت تمارس في كل الاجواء العليا من الحكم • لقد سقط العهد سقوطا شنيعا في التجربة الفلسطينية المحزنة ، وادرك الناس جميعا في الكنانة ان دوام هذا العهد ، سيعنى دوام الخزي والمصائب والفشل ، لشعب مصر وادرك الناس عبث اللعبة الفارغة : لعبة الانجلو ـ امريكان ـ فرنسيين الذين يمسكون في آن واحد بخيط الصهاينة وخيط الحكام الرجعيين العرب في مباراة مجرمة يسقط ضحيتها شعب فلسطين وتدفع ثمنها الشعوب العربية من أمنها وثرواتها وتقدمها •

لقد قال العقيد الشهيد احمد عبد العزيز ، الذي كان يقود المتطوعين المصريين في جبهة القدس ، وهو يلفظ آخر انفاسه :

« •• كان علينا ان نبدأ بالجهاد هناك •• »

و « هناك » تعني القاهرة •

كان على الاستعمار في اعقاب الحرب العالمية الثانية ان يطلق الشعوب التي طالما اضطهدها ونهبها ، فليغير اذن اقنعته القديمة البالية بأقنعة جديدة ، وليتحول الى استعمار من نوع جديد ، الى استعمار حديث يتمكن من الاستمرار في نهب ثروات هذه الشعوب • وكانت قد نمت وترعرعت في عهوده القديمة ، في البلاد المتخلفة رجعيات يمكنه استخدامها والاستفادة منها عندما يأخذ شكله الحديث • فاذا كان لا بد له من اطلاق الشعوب ، ومن جملتها شعوبنا العربية ، فليكن الاطلاق مبدئيا في اقفاص

الرجعية ، اقفاص فاروق وامثاله ، ما دام بالامكان الاستفادة من امثال هؤلاء ولتكن لكل منطقة مشاغل اضافية يخلقها لها كاسرائيل للمنطقة العربية ، وكالقواعد العسكرية والاساطيل العدوانية . الخ ..

الزمرة الناصرية

في معمعان صراع الشعوب مع الاستعمار والرجعية والتخلف تبرز تيارات مختلفة منها الصادق في الاتجاه نحو التحرر والتقدم ، ومنها الرجعي المتمسك بامتيازات الماضي ، ومنها الانتهازي الذي يحمله اناس يرفعون الشعارات الطنانة المغرية في الوقت الذي لا تؤدي افعالهم الا الى عرقلة التقدم التاريخي لامتهم . وفي مصر عندما كان الشعب يقارع الاستعمار البريطاني ليفوز بجلاء قوات هذا الاستعمار عن ارض الوطن ، تشكلت في عام ١٩٤٥ خلية تضم عددا من ضباط الجيش منهم :

اليوزباشي جمال عبد الناصر ، واليوزباشي زكريا محي الدين ، واليوزباشي عبد اللطيف البغدادي ، والملازم عبد الحكيم عامر ، والملازم صلاح سالم ، والملازم علي صبري ، والملازم كمال الدين حسين ، والضابط المسرح انور السادات وغيرهم .

وكان الجيش يضم عددا آخر من الخلايا غايتها ايجاد فرصة ووسيلة للتخلص من الاستعمار واعوانه وللتخلص من التخلف .. وبالاضافة الى هذا كانت جمهرة الضباط الشباب من المنتمين الى خلايا والى زمر او من غير المنتمين الى اية فئة او زمرة ، تتحرق شوقا الى ذلك اليوم الذي ستتخلص فيه مصر من مصائبها الكثيرة ، ومن الطبيعي ان يكون كل هؤلاء الضباط الشباب مفتقرين الى التجارب بحيث يسهل

اغراؤهم بالدجل وبالشعارات الفارغة وكان مكان عبد الناصر في تلك الايام ، كتلميذ في مدرسة الاركان اولا وكمدرب في هذه المدرسة بعد ذلك ، يحقق لهذا الضابط موقعا استراتيجيا ـ يصطاد ـ منه الضباط المتنسبين الى المدرسة أو المترددين على القاهرة من مختلف المواقع ، او الموجودين في الخدمة من قطعات موقع القاهرة . ثم ان هذا الضابط كان بدجله الواسع يخفي اطماعا لا تقف عند حد .

بعض شخصيات الزمرة الناصرية

ملاحظة :

لعل سرد بعض النبذات من التاريخ الشخصي لبعض الافراد القدامى من زمرة عبد الناصر يساعدنا على فهم نوعية هذه الزمرة ولا يسعنا ان نتكلم عنهم جميعا ، لعدم فائدة هذا في بحثنا ، كما لا يسعنا ان نتكلم عن كل افعالهم ، وخاصة منها ما يتعلق بالاخلاق والعادات الشخصية . اننا لن نتكلم الا فيما يمتد اثره واذاه على الشعب المصري الشقيق او على حقوق الآخرين .

جمال عبد الناصر

ابتدأ حياته السياسية بالانضمام الى جماعة فاشستية تسمي نفسها مصر الفتاة او جماعة القمصان الخضر ، وكان يرئس هذه الجماعة رجل اسمه احمد حسين الذي تعرفت عليه شخصيا في جيش الانقاذ . ففي خريف عام ١٩٤٧ أتى هذا الرجل برفقة بضعة رجال من مريديه لينضم الى فوج المجاهدين الذاهب الى منطقة الجليل . وكان على درجة كبيرة من التعجرف والسخف جعلته على خلاف مع جميع افراد الفوج ،

الآتين من مختلف البلاد العربية ، من اليوم الاول الذي انضم فيه الى هذه القطعة . ثم انه بعد عدد من الايام ، قضاها في قرية عربية في الجليل مع جماعته ، اكتفى على ما يظهر من ـ الجهاد ـ وعاد من فلسطين الى مصر لتستقبله جماعته هناك استقبالا ضخما وكأنه فاتح تل أبيب . وقد نشرت حينذاك المجلات المصرية صوره في ذلك الاستقبال ، وكان في احدى تلك الصور يركب سيارة جيب مكشوفة ومن حوله ـ اركان حربه ـ ويحيي الناس على الطريقة الهتلرية . ومن الواضح جيدا ان مجيء هذا الشخص الى الجليل لم يكن أبدا يمت الى الجهاد بصلة ، وانما كان لغاية خلق مناسبة له كي يستقبل في مصر ذلك الاستقبال . وهذا هو المعلم الاول لجمال عبد الناصر .

وانتقل عبد الناصر من حزب مصر الفتاة لينضم الى الاخوان المسلمين ، الى فئة الارهابيين في هذه الجماعة ، ثم من هذا الحزب ليقيم صلات وثيقة مع حزب الوفد . وفي كل هذه التنقلات لا نجد في عبد الناصر الحزبي المخلص للجماعة التي ينضم اليها وانما الانتهازي الذي كان دوما يحاول استخدام هذه الفئة او تلك لمآربه . ثم ان اية فئة انضم اليها او تقرب منها عبد الناصر فيما سبق من عمره لم تنج من بطشه وتنكيله عندما اصبح ذلك بمقدوره .

كان عبد الناصر ، في الفترة التي وقعت بين نهاية الحرب العالمية الثانية وبين ثورة ٢٣ يوليو على اتصال وثيق بالفئات الارهابية المدنية والعسكرية . بل ان الارهاب كان من اهم أوجه نشاط زمرته التي شكلها في عام ١٩٤٥ . وقد اعترف هو بذاته بان زمرته هذه قررت في

مرة من المرات قتل عدد من رجال السياسة والجيش منهم حافظ عفيفي واللواء سري عامر ، وفؤاد سراج الدين وغيرهم • واشترك عبد الناصر بذاته ، مع عدد من رفاقه ، في محاولة قتل اللواء سري عامر ، وقد قال في كتابه ـ فلسفة الثورة ـ :

« •• واعترف (ولعل النائب العام لا يؤاخذني بهذا الاعتراف) ان الاغتيالات السياسية توهجت في خيالي المشتعل في تلك الفترة على أنها العمل الايجابي الذي لا مفر من الاقدام عليه اذا كان يجب أن ننقذ مستقبل وطننا •

وفكرت باغتيال كثيرين وجدت انهم العقبات التي تقف بين وطننا وبين مستقبله •• »

وطبعا لم يتمكن النائب العام من مؤاخذته عندما نشر هذا الاعتراف بعد وصوله الى الحكم لانه كان قد ـ احتاط ـ قبل هذا بجعل النيابة العامة المصرية نيابة مباحثية • وكان عبد الناصر قد احتجز بأمر من الفريق عثمان المهدي بعد اغتيال النقراشي والبنا ، الا ان الادلة لم تتوفر ضده وأطلق سراحه بعد ان وجه اليه تحذير شديد ـ عن كتاب عبدالناصر الذي نشرته المباحث بقلم الكاتب الانجليزي توم ليتل ـ • ان زمرة عبد الناصر هي التي قتلت امين عثمان باشا في عام ١٩٤٦ •

وقد أوقف أنور السادات بتهمة ارتكاب هذه الجريمة ، الا ان الأدلة لم تتوفر ضده بسبب فرار الفاعلين الآخرين حسين توفيق ورفاقه ، والتجائهم في آخر الأمر الى دمشق وفي سورية حاول حسين توفيق المذكور ، مع رفاقه ، اغتيال أديب الشيشكلي فحكم عليه بالسجن مع الاشغال الشاقة • ثم تدخل عبد الناصر بذاته لاصدار العفو

عنهم واطلاق سراحهم وبهذه المناسبة قال لي عبد المحسن أبو النور ان هؤلاء من جماعة الرئيس منذ وقت طويل اي انهم كانوا من اعضاء زمرته ـ ومن المؤسف انني لم أكن كثير الاهتمام بالاوضاع الداخلية في مصر تلك الايام ـ . ولم تتغير عقلية عبد الناصر بعد استلامه الحكم ، بل انه طور هذا الاسلوب فاستعمله في اغتيال الابرياء لاثارة الفتن ، أو للايقاع بخصومه . فلاشعال الفتنة الطائفية في لبنان مثلا أوعز بقتل نسيب المتني ، كما مات كل من حسن جبارة وصلاح سالم وغيرهما في ظروف غامضة .

ويتظاهر عبد الناصر بالتقشف ، وهو يحب أن يذيع ـ عن طريق « فرق الهمس » التي تندس في كل الطبقات والفئات والجماعات التي تشكل احدى الوسائل القوية في جهاز الدعاية الناصرية ـ انه ما زال يسكن في بيته المتواضع في منشية البكري . مع أن هذا البيت ليس فيه أبدا شيء من التواضع . لقد صرف عليه مئات الوف الجنيهات ليصبح بيتا مريحا ومفروشا بأفخر الرياش . وهنالك ملعب فخم للتنس والبولو أقيم الى جانب هذا البيت ، ويشرف فيه على تدريب سيادة الرئيس مدرب جلب من امريكا . ثم ان أكثر قصور الملك والامراء أصبح تحت تصرفه بدلا من أن يحول الى متاحف ودور تستفيد منها الدولة . وقد بلغ البذخ في فرش هذه القصور والاستراحات مبلغا يزري بأفخم قصور الملوك أثاثا ورياشا . كل هذا من أجل أيام ، أو ساعات ، في السنة ، يقضيها سيادة الرئيس في هذا القصر أو تلك الاستراحة في مناسبة أو عطلة تماما كما كان الحال أيام فاروق وأكثر .

أما بروتوكول الحفلات والدعوات الرسمية فليس فيه اي شيء يمت الى الديمقراطية بصلة انه أخذ من أعرق البيوتات المالكة في العالم ، عن سان جيمس ، مع ادخال التحسينات - اللائقة - .. وعندما يغادر الرئيس البلاد في زيارة أو الى مؤتمر ، تتحرك معه حاشية ضخمة ويتحرك في ركابه الاسطولان البحري والجوي ، ففي مؤتمر الدار البيضاء مثلا حرمت مصر من اسطولها وطيرانها طيلة ايام المؤتمر ، وكأن هذين السلاحين لم يوجدا الا لحماية سيادة الرئيس وليس لحماية مياه مصر وجو مصر ، وعندما ذهب الى الامم المتحدة في أمريكا عام ١٩٦٠ ، رافقه الاسطول الجوي حتى اسبانيا . وبالاضافة الى هذا فقد أوعزت السلطات الناصرية الى اعضاء مجلس الامة المباحثيين لتوجه سؤال الى الحكومة ، عن تدابير الوقاية المتخذة لحماية سيادة الرئيس ، من اسبانيا الى اميركا ؛ والحال على هذا المنوال في كل مرة يذهب بها لزيارة صديقه الحميم تيتو اليوغسلافي . كل هذا يكلف كثيرا جدا من مال الشعب المصري الفقير بل يكلف أكثر بكثير مما تكلفه رحلات ملوك يهزأ جمال عبد الناصر كل مرة يخطب فيها الناس ، ببذخهم .

ولا تسل عن مبلغ النعم التي حلت بأهل الرئيس وأقاربه وحواشيه ، منذ أن تولى سيادته الحكم في مصر . فعمه والد زوجته انقلب من تاجر متوسط الى ثري كبير وأصبح اخوه عز العرب من أكبر مساهمي معامل كفر الدوار كما ان قصص الليثي عبد الناصر ، شقيقه الآخر ، كقصص عتاة اللصوص الامريكيين لا تنتهي أبدا . وهذه بعض الأمثلة من تصرفات هذا - الليثي - ونحن نوردها للنوعية وليس

في سبيل الحصر ، لان صعود هذا المخلوق في مدة لا تتجاوز السنتين من درجة شبه شحاذ مصري الى ثري يملك الملايين يحتاج الى قصص تملأ المجلدات :

ـ كان رجل سوري ، يدعى حمزة عبد القادر محوك ، متزوجا من امرأة مصرية ويدير مطعما في الاسكندرية • وعلى ما يظهر كانت أحوال هذا المطعم على ما يرام ، مما استثار طمع أهل الزوجة • وفي النهاية طرد السيد محوك من مصر ـ قبل الوحدة ـ بعد أن فصل عن زوجته ، ليستقل أهل هذه الزوجة بالمطعم وذلك بمساعدة الليثي اياه ولقاء بضع مئات من الجنيهات تدفع شهريا الى هذا ـ الليثي ـ •

ـ ذهب الليثي مرة على رأس عصابة من الاشقياء الى صيدلية كليوباترة في الاسكندرية واشترك مع عصابته هذه في تحطيم الصيدلية مع رأس صاحبها ورؤوس الشغيلة فيها ، لان الصيدلي المسكين تجرأ ونافس في انتخابات الاتحاد القومي أحد زلمه •

ـ كان الليثي شريكا لحسنين الجابري صاحب محلات شيكوريل الشهيرة ، ونحن لا ندري كيف آلت اليه هذه الشركة السمينة الا أن الشريكين حسنين والليثي ، اشتركا مرة في تزوير اذون استيراد جمركية لعدد ضخم من السيارات • وقد درت هذه العملية على الشريكين مئات ألوف الجنيهات المصرية • وعندما وضعت السلطات يدها ، بطريق الصدفة ، على هذا التزوير الذي يشكل جناية تصل عقوبتها الى الاشغال الشاقة ، اكتفت بسجن حسنين المذكور مدة شهرين بعد أن أبعدت الليثي شقيق سيادة الرئيس عن القضية • وقد نشرت

الصحافة المصرية في حينه خبر الحكم على حسنين بشكل مقتضب لتهدئة الرأي العام ولاقناع الناس بأن القانون يطول الجميع ، حتى حسنين شريك الليثي .. (لكن عقوبة شهرين للجناية) .. بقي أن نعلم أن الليثي الذي شاركه حسنين بمحلات شيكوريل شارك حسنين هذا بالنيابة ، فكان الاثنان نائبين في مجلس الامة الذي - انتخب من قبل الرئيس - في عام ١٩٥٧ وواحدة بواحدة ..

وهنالك قصة الشركة بين الليثي عبد الناصر وبين التاجر السوري طالب آغا ، الشركة التي كانت أهدافها التلاعب على الجمارك السورية باستيراد البضائع الاوروبية ، على اعتبار ان منشأها مصر ، وذلك للتهرب من دفع الضريبة الجمركية . وقد نشرت الصحافة السورية في ربيع عام ١٩٦٢ تفاصيل هذه العمليات التي بلغت فيها - الارباح - ملايين الليرات ..

كان عبد الناصر صديقا حميما للباقوري ورفيق صباه ، اذ تخرج الاثنان من مدرسة ثانوية واحدة في الاسكندرية وفي سنة واحدة . وقد بقي الاثنان على اتصال دائم ، على الرغم من ابتعاد طريقيهما في الحياة : الواحد اختار الجندية والآخر اختار جامعة الازهر . وعندما وصل عبد الناصر الى التحكم في مصر ، وألف أول وزارة له اختار الباقوري وزيرا للاوقاف . ثم تبين فيما بعد ، أن هذا الباقوري بالاضافة الى تفاهته وتهتكه ومجونه كان متلاعبا يسرق أموال الدولة التي أؤتمن عليها ، فسرح من وزارة الاوقاف فقط ، وذلك بدلا من أن تنزل به أشد العقوبات وتسترد منه الاموال التي سرقها . وليس من المعقول طبعا أن يجهل عبد الناصر أخلاق صديقه الذي لم ينقطع عنه أبدا ،

الا في المدد القصيرة التي كان فيها ناصر خارج القاهرة . وليس من المعقول أيضا أن وزارة الاوقاف ، بما فيها من أموال الصدقات ، هي التي جعلت هذا الباقوري ينزلق الى التهتك والمجون ، وان كانت أغرته بارتكاب السرقات . وقد قال لي مرة عبد المحسن أبو النور ، في معرض الثناء على سياسة سيده ان الرئيس وضع على رأس وزارة الاوقاف شيخا متحررا . ولعل التحرر في نظر هذا الشخص هو أن يحمل المتحرر الافكار الارهابية فالباقوري كما قلنا من أقدم أصدقاء عبد الناصر ومن أعضاء زمرته الارهابية من أول تأسيسها . ثم ان جمال عبد الناصر ، في كل مرة كان يريد فيها التظاهر بالورع فيذهب الى صلاة الجمعة او العيد ، كان يأتم بهذا الذي قال عنه فيما بعد انه فاسق .

أنور السادات

هذا الشخص هو من أشد أعوان عبد الناصر تفسخا وتحللا . يصفه رفاقه بأنه « نصاب » تافه اشتهر قبل الثورة بمشاريعه الاحتيالية التي تهدف الى الاستيلاء على نقود من يقع في حبائله . وكان بالاضافة الى هذا جاسوسا نازيا ، يدير أثناء الحرب العالمية الثانية حانة أقامها في « دهبية » على النيل بأموال مصلحة الاستخبارات الالمانية . والغاية من هذه الحانة استدراج ضباط الحلفاء اليها ، بمختلف الطرق ، التي من جملتها الاغراء بالنساء المنحطات ، بغاية التقاط المعلومات النافعة لقوات المحور من هؤلاء الضباط . وكان يساعده في أعمال التجسس ويتردد على حانته كثيرون من الضباط المنتمين الى خلية عبد الناصر ، وخاصة منهم ضباط الطيران كالبغدادي وذو الفقار صبري وغيرهم .

وفي عـــام ١٩٤٣ قبضت حكومة النحاس عـــلى أنور السادات مـــع شريكته الراقصـــة الشهيرة : آمـــال فهمي وزج بهمـــا في السجن بتهمة التجسس ، حيث بقيا فيه حتى نهاية عـــام ١٩٤٤ ، أي الى ما بعد انتهاء الخطر المحوري عن مصر • وقد قام بتنظيم منظمات ارهابية ليست بعيدة عن الاغتيالات السياسية التي وقعت في السنين التي سبقت الثورة ، بل كانت على اوثق صلة بها • ولقد قبض عليه بتهمة اغتيال أمين عثمان باشا ، كما سبق وقلنا • وكانت منظماته الارهابيـــة تشكل جزءا لا يتجزأ من الزمرة الناصرية ، اذ كان مكلفا رسميا من قبل هذه الزمرة بمهمة تنظيم « فرع الارهاب » الفرع الذي نسف بيت النحاس باشا في عام ١٩٤٨ ، فلم ينج النحاس وعائلته الا باعجوبة •

ان منظمات السادات لم تكن بعيدة أيضا عن الاعمال الهمجية التي ارتكبت في حريق القاهرة ، الاعمال التي أريد ألصاقها ظلما بالشعب الطيب • فقد كان أنور السادات صديقا حميما للدكتور يوسف رشاد ، الطبيب الخاص للملك فاروق وقريب اليوزباشي الارهابي مصطفى كمال صدقي الذي كان يترأس في الجيش المصري عصابة « الحرس الحديدي » المؤلفة من ضباط « القصر » •

وعندما ندرس الكيفية التي جرت بها حرائق القاهرة في مطلع عام ١٩٥٢ ، نجد أن قوات الامن اخلت الساحة امام المخربين بتحريض من عملاء الملك • كما نجد ان الذين قاموا بأعمال النسف والحريق استعملوا وسائل لا توجد الا في الجيش ، وبشكل دقيق ومتتابع ينم عن خطـــة تضعها عصابة منظمة • ويتساءل المرء عن الفائدة من تلك العصابة التي يرئسها مصطفى كمال صدقي لحساب الملك ، ان لم تكن لمثل ذلك اليوم

الاسود ، سيما وان الملك اقال حكومة عدوه اللدود النحاس بحجة هذا الحريق المريع • ومع ان جمال عبد الناصر يملك كل الوسائل الكافية لاظهار الفاعلين ، فان اية محاولة لم تبذل للتحقيق في هذه الجريمة النكراء ••

الا ان حريق القاهرة كان ينسجم ايضا مع التفكير الارهابي الانتهازي للزمرة الناصرية بالطعن بكفاءة كل المسؤولين في ذلك العهد : الملك والنحاس ـ اي الوفد ـ • كما أن الارهابي السابق مصطفى كمال صدقي كان قد عرض على عبد الناصر دمج الزمرتين الارهابيتين : الزمرة الناصرية وزمرة القصر • ويدعى عبد الناصر على لسان توم ليتل في كتابه الشهير الذي أملته عليه المباحث ، كتاب ـ جمال عبد الناصر ـ انه لم يقبل بهذا العرض ، الا ان الصلة بين السادات ، الارهابي الناصري وبين مصطفى كمال صدقي ، الارهابي الملكي ، الصلة التي أشرنا اليها آنفا ، تكذب دعوى عبد الناصر بالرفض • بل ان انتهازية الزمرة الناصرية تجعل اتفاق الزمرتين أمرا مؤكدا ، كما ان عدم التحقيق حتى الآن في أسباب حريق القاهرة يضع هاتين الزمرتين الارهابيتين في شبهة كبيرة جدا بالنسبة لارتكاب هذا الحريق الرهيب •

ان عبد الناصر يسمي ـ السادات ـ البكباشي صح ـ او ـ البكباشي صح أفندم ـ وذلك اشارة الى نفاقه • فالسادات هذا اعتاد على تكرار كلمة ـ صح ـ عند كل فكرة يبديها سيده عبد الناصر ، بدون أدنى تفكير أو محاكمة وذلك مغالاة منه في التقرب والتمسح بولي نعمته هذا • وبالمقابل فان عبد الناصر يكن لهذا ـ السادات ـ كل احتقار واستخفاف

ويعامله معاملة السيد للعبد عندما لا تكون هناك رسميات • وقد صدف ان كنت أكثر من مرة مع عبد الناصر والسادات وبعض أفراد الزمرة الناصرية كعامر والبغدادي وغيرهما ، في جلسات غير رسمية ، فكان عبد الناصر هذا يعامل السادات كما وصفت آنفا ، وكان في كثير من الاحيان لا يرد عليه أو يكلمه الا بقرف شديد • أما السادات فما كان الا ليزداد صغارا وخنوعا نتيجة لتلك المعاملة ••

زكريا محي الدين

استخدم عبد الناصر هذا الجلاد في تدبير كل الاستفزازات ضد خصومه السياسيين وتزوير القضايا على الاحزاب السياسية للتنكيل بها في الظروف التي رافقت الاعداد للتخلص من اللواء محمد نجيب واقالته• ومع أن عبد الناصر كان يتظاهر بتكريمه أمام الناس فيجعله في وقت من الاوقات الشخصية الثانية في الدولة (أنابه عنه مثلا عندما ذهب الى باندونغ) فانه يكن له كرها واحتقارا كبيرين • وهو لا يتردد في تأنيبه في كل فرصة ومناسبة بألفاظ جارحة تصل الى الشتم •

كان زكريا محي الدين قبل الثورة جاسوسا لحلف الاطلسي على الحركات التحررية للجيش المصري • وقد نشرت الصحافة في ١٥ تموز عام ١٩٦٢ صورة زنكوغرافية لمقال نشره الجنرال صدقي اولاي ، الملحق العسكري التركي سابقا وأحد الوزراء الاتراك حاليا ، في جريدة « حريت » • فقال هذا الجنرال انه تمكن بواسطة « صداقته » لزكريا محي الدين من التغلغل بين أفراد الضباط المنتمين لعبد الناصر ، وانه كان يقدم « نصائحه » اليهم ويرسم معهم خطط الانقلاب الخ •• ومن

البديهي ان هذا الملحق الذي يسيطر على جيش بلاده الاميركان بالاضافة الى أن بلاده هذه عضوة في حلف الاطلسي الذي تتزعمه اميركا ، كان يقوم بأعماله هذه تنفيذا لاوامر قيادة الحلف المذكور ولحساب هـذه القيادة ، وليس بصفة هاو . ونحن نعرف هذا من تجاربنا هنا في سورية. اذ أن أميركا بالاضافة الى النشاط التخريبي لسفارتها في بلدنا ، تختبيء أيضا وراء السفارات الاخرى التي تدخل بلادها في جملة الاستعمار الحديث في الاعمال التخريبية التفصيلية أو الاساسية ، على حسب الحاجة .. ونعرف ان الملحقين العسكريين للاحلاف الاستعمارية ، الاطلسي وبغداد وجنوبي شرقي آسيا ، يعملون في شبكة تجسس عالمية واحدة ترتبط بالبانتاغون (وزارة الدفاع الاميركية) . وفي دعاوي التجسس الشهيرة ، التي جرت محاكماتها في القاهرة عام ١٩٦٠ ثبت أن اسرائيل تشترك مع تلك الاحلاف في الاستفادة من المعلومات التي تجمعها شبكات هذه الاحلاف فليس من المستغرب اذن أن تكون هذه العدوة اللدودة على اطلاع تام في تلك الايام على جميع الترتيبات التي كانت تتخذ في دوائر الضباط الاحرار للقيام بثورة ٢٣ يوليو ، وذلك عن طريق هـذا الملحق العسكري .

يقطن عبد المجيد محي الدين ، والد زكريا محي الدين ، قرية ميت غمر . وعندما صدر قانون الاصلاح الزراعي كان هذا المحترم من أشد المتحمسين له ضد الاقطاع الذي أذل الشعب المصري كل تلك القرون المظلمة ، الا أن هذا الحماس لم يكن أبدا لمصلحة الفلاحين في تلك القرية ، اذ لم يكد هؤلاء المساكين يحصلون على أنصبتهم من الاراضي

حتى قام عبد المجيد محي الدين بوضع اليد على تلك الانصبة بمختلف طرق الاغتصاب ، وذلك بطرد بعض الفلاحين من أرضه ، واجبار البعض الآخر على مشاركته في محاصيله ، ووضع الغرامات والجزيات الخ .. وقد بلغ الامر بأولئك انهم عادوا ليترحموا على عهود الاقطاع القديم ، بالمقارنة مع هذا الاقطاعي الجديد الذي أقام ، في قريتهم على شاطيء النيل ، قصرا باذخا في مزرعة بالغة الثراء . وعندما أتى الابن زكريا مرة ، في عام ١٩٥٩ ، ليترأس مسابقة تجديف في النيل ، قاطع أهل القرية العيد وأضربوا احتجاجا على مظالم الوالد ..

عبد الحكيم عامر

خاله حيدر باشا ، الذي كان يلقب بمضحك الملك ، والذي كان قائدا للجيش المصري يوم قامت ثورة ٢٣ يوليو . ومع ان هذا القائد كان من كبار المرتشين والمسؤولين عن الفساد والافساد ، فانه لم يصب بأي أذى ووضع في بيته براتب ضخم « اكراما لعامر » .

ان عبد الحكيم عامر من أقدم أصدقاء عبد الناصر . وكانا قد التقيا لاول مرة في الاسكندرية عام ١٩٣٩ ، ثم خدما معا مدة سنتين في السودان ، في موقع جبل الاولياء . وكانت صداقتهما قوية جدا فلا يكادان يفترقان عن بعضهما البعض عندما يصدف فيكونان في موقع واحد . ولعل مرد هذه الصداقة القوية هو أن عامر يتصف بضعف الشخصية مع مهارة كبيرة في تدبير الدسائس و « المقالب » فكان بأمس الحاجة الى قوة شخصية ناصر لتدعمه بين رفاقه ، في الوقت الذي يحتاج فيه ناصر الى عين أمينة تنقل اليه ما يدور بعيدا عنه ، والى مساعد يدس

ويفرق بين صفوف الخصوم • وفي الواقع استفاد هذان الشخصان من بعضهما البعض فوائد كبيرة : أعان عامر عبد الناصر في توطيد مركز الزمرة الناصرية بين فئة كبيرة من ضباط الجيش البسطاء ، بالدس على الضباط خصوم عبد الناصر بينما رفع عبد الناصر عامر الى أعلى المراتب •

ولعب عامر دورا أساسيا في انقاذ صديقه عبد الناصر من الازمة التي قامت عندما أقيل محمد نجيب في ليلة ٢٤ شباط ١٩٥٤ • فمن المعلوم ان القوات المدرعة ـ سلاح الفرسان ـ لم تكن موالية للناصرية فثارت عندما بلغها نبأ اقالة محمد نجيب وتولي عبد الناصر الحكم مكانه • وأتت هذه القوات الى مبنى القيادة تحاصره ، فاسقط عندئذ في يد عبد الناصر وانهارت أعصابه وترك الامر لضباط الفرسان على أن يبقوا على حياته ، مع انه لم يكن في نيتهم أن يمسوه بسوء • وفي هذه الاثناء كان عامر يستنفر كتيبة الشرطة العسكرية ، ولم يكد الضباط الفرسان يعودون الى بيوتهم في آخر الليل حتى داهمتهم شرطة عامر وقبضت عليهم وزجت بهم في السجن • كما ان نفرا آخر من الشرطة ذهب الى بيت محمد نجيب وقبض عليه وساقه الى الصحراء • الا أن المظاهرات الشعبية التي قامت في اليوم التالي ، ورغبة عبد الناصر في كسب الوقت لتصفية المعارضة في الجيش ، اضطرت هذا الاخير لان يوافق على اعادة نجيب مؤقتا •

كان عامر يستفيد من الازمات ، الكبيرة والصغيرة ، الازمات التي كانت تمر في الجيش ، لكشف جميع خصوم الزمرة الناصرية • وبعد اعادة محمد نجيب الى الحكم قام عامر بتحضير الجيش لليوم المقبل الذي سيطرد فيه نجيب نهائيا من الحكم : بابعاد الخصوم وتقريب الموالين

وسجن الخطرين الخ •• ولم يكد ١٧ نيسان ١٩٥٤ يطل حتى كانت الامور في القوات المسلحة على أحسن ما يرام بالنسبة لعبد الناصر ، فأبعد محمد نجيب نهائيا عن السلطة وان كان قد بقي موقتا يشغل منصب رئيس الجمهورية ••

وكان عامر عضوا في الاخوان المسلمين ، الا انه عندما قرر عبد الناصر تصفية هذه الجماعة ، فاصطنع حادث محاولة اغتياله من قبل شخص مخبول قيل انه ينتمي اليها ، ساهم الاول ، اي عامر ، في ملاحقة الاخوان والقبض عليهم وزجهم في السجون •

علي صبري

من المشهور عن هذا الشخص أنه جاسوس امريكي • وقد قال لي المشير عامر ، مرة من المرات ، في معرض التبجح بوجود جميع الاتجاهات ممثلة في رجال الثورة ، أن علي صبري يمثل الاتجاه الامريكي وانه هو الذي أبلغ السفارة الامريكية عن حركة ٢٣ يوليو في الامسية التي سبقت هذه الحركة ، بينما كان عبد المنعم امين يبلغ السفارة البريطانية في ذات الوقت •

وقد برر عامر هذه الاتصالات المشبوهة بقوله ان قيادة الثورة - أي عبد الناصر - كانت تريد حياد أمريكا وبريطانيا • ومن الواضح ان هذا العذر واه ، لان الثورة حركة داخلية لا يحق لاي أجنبي أن يتدخل فيها • واليوم نجد علي صبري يصل الى المركز الثاني بعد عبد الناصر ، اذ عين رئيسا لمجلس الوزراء في التشكيلات التي أعلنت في نهاية

ايلول عام ١٩٦٢ بينما اختفى اسم عبد المنعم أمين تماما منذ وقت طويل • أفلا يدل هذا على نتيجة الصراع بين الاتجاهين : الامريكي والبريطاني •؟ لقد وصل الامريكي علي صبري الى الحكم في مصر •

كان علي صبري سكرتيرا لناصر في أول أيام الثورة • وقد اشتهرت دسائسه التي كان يلقيها بين سيده وبين الآخرين الذين يريد ازاحتهم من الطريق لتخلو له الساحة • فهو الذي لاحق مثلا زكريا محي الدين بدسائسه فلم يتركه الا بعد أن جعل منه أضعف شخصيات الزمرة الناصرية • وهنالك حكاية معروفة وقعت في صيف عام ١٩٥٨ ، عندما حرض علي صبري سيده على كل من البغدادي وحسنين هيكل بسبب مقالات نشرها الاخير في الاهرام وكان يمتدح بها البغدادي أكثر من اللزوم ؛ وبلغ الامر الى حد أن عبد الناصر قرر الغاء امتياز جريدة الاهرام وطرد هيكل مستشاره الصحفي فما كان من هذا الاخير الا أن هرع الى الاسكندرية حيث كان الرئيس يصطاف وألقى بنفسه على قدميه باكيا ومستغفرا • اما البغدادي فقد قبع بعد هذا في بيته الاشهر الطويلة بدون عمل •

ان علي صبري مع شقيقه حسين ذو الفقار صبري الضابط السابق في سلاح الطيران كانا من أفراد عصابة أنور السادات للتجسس لحساب المحور في الحرب العالمية الاخيرة •

وكان قد قبض على ذو الفقار صبري بهذه الجريمة وسجن مدة طويلة •

كمال الدين حسين

كان من جماعة الاخوان المسلمين وواحدا من المشرفين على تدريب

فئة الارهابيين التي كانت تنظمها هذه الجماعة . الا انه سرعان ما قلب للاخوان ظهر المجن فكان من أشد المتحمسين لقتلهم وسجنهم بعد الحادثة التي قيل فيها ان هؤلاء حاولوا اغتيال عبد الناصر .

وعندما استفحل أمر علي صبري واشتدت دسائسه ضد منافسيه من الزمرة الناصرية وخاصة ضد كمال الدين حسين وزكريا محي الدين ، حاول الاخيران تأليف جبهة ضد منافسهما علي صبري ، الا أن هذا الاخير ما لبث ان دبر لكمال الدين حسين موقفا مذلا في مجلس الامة في صيف عام ١٩٥٧ وكاد ان يصدر قرار بلوم كمال الدين بسبب سوء تصرفه في وزارة المعارف لولا ان ذهب الى الرئيس يستجير به .. وعبد الناصر مغرم باثارة المشاحنات والخصومات بين اعوانه ، لتسلس قيادتهم له .

ان كمال الدين حسين هو من اشد افراد الزمرة الناصرية جهلا وضيق افق وغرورا ، لذلك كان مركزه كوزير معارف مزمن من ابلغ الدلائل على الطبيعة المستهترة لتلك الزمرة .

عبد اللطيف البغدادي

شخص متعيش يكاد يكون فاقدا لكل احساس : فهو منذ سنين طويلة يكتفي من العمل بما يكتب من آن الى آخر ، في الجرائد عن نشاطه الموهوم . اي ان هذا الشخص وضع على الرف منذ سنين طويلة ولا يظهر الا في المناسبات :

عندما تخلصت سورية مثلا من الحكم الناصري ظهر اسمه بين

الجماعة التي قيل عنها حينذاك انها تؤلف ـ القيادة الجماعية ـ التي ستقود مصر في تلك ـ المحنة ـ ..

والواقع ان ذكر اسمه مع اسماء الآخرين في تلك القيادة المزعومة ما كان الا لذر الرماد في العيون ولايهام الشعب المصري بأن كل الناس يلتفون حول الرئيس ويساعدونه .

ثم ان هنالك مناسبات اخرى ، مثل مناسبات الاعياد ، او رئاسة لجان التخطيط وما شابه ذلك . هذه اللجان التي ليس لديها من عمل الا تخطيط الفراغ الخ ..

وينعت عبد الناصر البغدادي بالجبن ويدعي بأنه اختبأ في بيته عندما قامت المظاهرات ضد الناصريين في ازمة محمد نجيب ، وانه كان يبكي من خوفه . الا ان الناس في مصر يتناقلون اخبار اخوة البغدادي واقاربه الذين حلت بهم النعم والثروات بعد ثورة ٢٣ يوليو ، وخاصة بمناسبة تنفيذ مشروع الاتوستراد على النيل المشروع الذي كلف الشعب المصري ملايين الجنيهات وكان هذا البغدادي يشرف عليه .

حسين الشافعي

يقول عنه عبد الناصر ان وجوده يقتصر فقط على شاربيه !..

جملة الاستعمار الحديث
في الشرق الاوسط

الامريكان على مسرح الشرق الاوسط

ان الاستعمار الامريكي الذي تزعم الاستعمار العالمي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، لم يكن يجهل الاهمية القصوى لمنطقة الشرق الاوسط ، المنطقة الهائلة الغنى بثرواتها النفطية وغيرها من الثروات ، والواقعة في مكان لا مثيل له من الناحية الستراتيجية • وبالفعل فان اعلان وزير الخارجية البريطانية بيفن عام ١٩٤٥ عن اتفاق امريكا وبريطانيا للعمل معا في ـ سبيل حل قضية فلسطين ـ وذلك بعد البيانات الانتخابية الامريكية التي جرت عام ١٩٤٤ والتي كانت تتحدث عن دعم اقامة اسرائيل ، يعلن ايضا :

عن بدء تبلور جملة الاستعمار العالمي الحديث بزعامة امريكا وعن دخول الاستعمار الامريكي على رأس هذه الجملة الى منطقة الشرق الاوسط بشكل سياسي بالاضافة الى الشكل الاقتصادي البترولي •

وليس من قبيل الصدفة أن يبدأ انهيار الاستعمار القديم ، بشكل مخزي لم يعرف من قبل في تاريخ الاستعمار في منطقة الشرق الاوسط البالغة الاهمية ، باستقلال سورية ولبنان وبانهيار احتلال هذين البلدين من قبل دولة استعمارية كبرى كفرانسا ، نقول ليس من قبيل الصدفة أن يبدأ انهيار الاستعمار القديم في منطقة الشرق الاوسـط في ذات الوقت الذي يتم فيه الاتفاق ما بين الاستعمارين الامريكي والبريطاني على سياسة استعمارية موحدة وطويلة الامد في هذه المنطقة ، على اقامة دولة اصطناعية هي اسرائيل • لقد كان هذا الاتفاق لسد الثغرة الخطيرة التي انفتحت في البناء العتيق للاستعمار القديم ، وكان أول تجربـة لجملة الاستعمار الحديث في الانهيارات التي تتالت في شتى انحـاء العالم لهذا البناء :

كانت ثورة سورية على الاحتلال الاجنبي في التاسع والعشرين من أيار ١٩٤٥ ، وكان اعلان بيفن في ١٤ تشرين الثاني عام ١٩٤٥ وكانت الشكوى السورية اللبنانية الى مجلس الامن بطلب جلاء الجيوش الاجنبية عن أراضيها : الجيوش البريطانية والفرنسية ، في ٤ شباط ١٩٤٦ • وتم الجلاء عن اراضي سورية في ١٧ نيسان ١٩٤٦ ، فلا يمكن أن يكون هذا التوافق بين تواريخ الحركة الوطنية السوريـة وجلاء الاجنبي عنها وبين تاريخ اتفاق الانجليز والامريكان على اقامـة اسرائيل من قبيل الصدفة ، والاستعمار ينهب سنويا المليارات من بترول المنطقة وغيره •

عناصر الاستعمار الحديث في منطقتنا

ان اسرائيل ليست كافية لحماية المصالح الاستعمارية وحدها ، ولا بد أن تكون جزءا من جملة اجزائها تحمي بعضها بعضا ، وهي اي الجملة ، في ذات الوقت تحمي بمجموعها مصالح الاستعمار الحديث في الدول العربية المتخلفة اقتصاديا والمستقلة سياسيا : تكون اسرائيل قاعدة عدوان وتهديد بالعدوان ضمن مجموعة من الدول تحكمها الرجعية او الانتهازية المؤتمرة بأوامر الاستعمار ، يضاف الى هذا اساطيل استعمارية تتردد في بحار المنطقة مع قوات جوية وبرية تنتشر هنا وهناك في قواعد عسكرية تحيط بالمنطقة ـ ولا خوف بعدئذ على مصالح الاستعمار الاقتصادية من الاستقلال السياسي • ان روكفلر لا يطالب بعرش في منطقة الشرق الاوسط وانما يطالب بالبترول ـ ولقد قامت اسرائيل بالفعل ، واتى الاسطول السادس الامريكي الى البحر الابيض المتوسط ، ليعرض عضلاته الى جانب اساطيل فرنسا وبريطانيا ، واقامت امريكا قواعد عسكرية في اسكندرون واضنه والظهران وليبيا ، الى جانب قواعد بريطانيا في عراق نوري السعيد وقبرص وقناة السويس وعدن والخليج العربي والجنوب العربي وليبيا • بقي ان يمنع الاستعمار قيام اية حكومة وطنية في المنطقة تدافع عن مصالح شعبها دفاعا حقيقيا وحازما • ذلك لان انتشار طراز مثل هذه الحكومة في الدول العربية يشل الجملة الاستعمارية الآنفة الذكر شللا تاما ، ويجعلها عديمة الفائدة • فمثل هذه الحكومات لاتنفذ أوامر المستعمرين ولا تهاب تهديداتهم وتستطيع على الاقل ، سحق كل عدوان اسرائيلي ان لم نقل

سحق اسرائيل واقتلاعها من جذورها في نهـاية الامر • ذلك لان الاساطيل والقوات الاستعمارية لا تستطيع في هذه الايام فعل شيء أمام شعوب صممت على الدفاع بحزم عن حقوقها • اما قيام الانظمة الخانعة للاستعمار في البلاد العربية فانه يضمن بقاء اسرائيل لعدم سير هـذه الانظمة في الطريق الصحيح في مكافحة هذه القاعدة الاستعمارية وذلك بتنفيذها لاوامر المستعمرين ورغباتهم في تبديد طاقات بلادها في قمع كل حركة تهدف الى التحرر والتقدم لشعوبها • وفي ذات الوقت تضمن هذه الانظمة استمرار النهب الاستعماري للثروات والقيم بفتح الابواب على مصاريعها أمام النشاط المجرم للمستعمرين • ان النظام الناصري مثلا هو من جملة الانظمة الخانعة للاستعمار الامريكي ، فيكتب ناصر الى كينيدي في كتاب نشرته جريدة الاهرام في ٢١ ايلول عام ١٩٦٢ مايلي:

« •• كذلك كانت هناك مساعداتكم القيمة لنا عن طريق تصدير القمح او عن طريق قروض صندوق التنمية وكذلك لا يفوتني هنا ان أشيد بمساهمتكم القيمة في مشروع انقاذ آثار النوبة ••

وعند هذه النقطة فاني أريد يا سيادة الرئيس ان أناشدكم مخلصا متوجها الى شبابكم والى شجاعتكم بأنه قد حان الوقت الذي يتعين فيه على الولايات المتحدة ان تفتح عيونها عـلى تطورات الاحداث في منطقتنا على اساس نظرة امريكية بحتة لا تتأثر باعتبارات السياسة المحلية وبعمليات حساب الاصوات في الانتخابات لان صلات الولايات المتحدة بهذه المنطقة اكبر بكثير من اي اعتبار محلي (كذا ••) ••

ولسنا نشك لحظة في ان تطلعكم الى الحدود الجديدة على حد تعبيركم ومحاولاتكم الدائمة لاكتشاف طريق الواجب أمـام شعب الولايات المتحدة العظيم سوف تكون من بواعث الطمأنينة لدى شعوبنا ولدى شعوب كثيرة أخرى تتطلع للشعب الامريكي بالمحبة والاعجاب » •

ان تجاربنا مع عبد الناصر علمتنـا ما تعني كلمة الشعوب بلغـة هذا الرجل ؛ فهي عنده ـ المباحث ـ وكل المنتفعين من حاشيته وزلمـه وزلم حاشيته • ونحن لا نشك لحظة واحدة بمحبة هؤلاء لكينـدي وللاستعمار الامريكي تحت اسم الشعب الامريكي واذا ابعدنا ما تتضمنه العبارات السابقة من مجاملات دبلوماسية تمليها الظروف الراهنة ، ظروف تحرر الشعوب وحساب حسابها ، فاننا نجد مثالا صارخا لاعتراف احد (تبع) الاستعمار الامريكي بما لهذا الاستعمار من حق مزعوم في ثروات منطقتنا ، وذلك لقاء القمح والقروض والهبات الحقيرة التي يغدقها هذا الاستعمار على تابعه الآنف الذكر ، على عبد الناصر •

قلنا أن قيام الانظمة الخانعة للاستعمار في البلاد العربية يضمن بقاء اسرائيل واستمرار النهب الاستعماري لثرواتنا وقيمنا ، وبالمقابل فان استمرار هذا النهب الاستعماري المؤدي الى افقار الشعوب العربية مع أعمال القمع ضد هذه الشعوب • وقيام اسرائيل والتهديد بالاساطيل والجيوش الاستعمارية ، كل هذا يوفر الجو الملائم للدسائس الاستعمارية وللتخريب الاستعماري ، وبالتالي يساعد على بقاء الحكم الرجعي او قيام الحكم الانتهازي •

الاستعمار الامريكي يعتمد على الانتهازية في منطقتنا

ان قيام الحكم الوطني المخلص يتناقض مع أهداف ومصالح جميع المستعمرين ، فهو يؤدي باستعمارهم الى الموت ويوقف نهبهم جميعا . لذلك يتفق كل هؤلاء ، امريكان وبريطانيين وفرنسيين على بقاء البناء الاستعماري الذي تجسده الجملة الآنفة الذكر : على بقاء اسرائيل ، وعلى قيام الرجعية والانتهازية ، وعلى اقامة القواعد العسكرية وارسال الاساطيل العدوانية الى بحارنا . الا ان هؤلاء المستعمرين يختلفون على اقتسام الغنائم ويود كل منهم لو أن باستطاعته ان يسلب ما بيد شريكه . والجملة الاستعمارية الآنفة الذكر جهاز ضروري لتوفير جو النهب لجميع المستعمرين ، الا ان كل مستعمر من هؤلاء يسعى ، ضمن الجملة الاستعمارية ، الى تحقيق مكاسب على حساب غنائم المستعمرين الآخرين : قيام اسرائيل مع جملة رجعية انتهازية في المنطقة يوفر الامكانية للاستعمار الامريكي لازاحة حكم رجعي خانع للانجليز واستبداله بحكم انتهازي خانع له ، أو العكس . بينما انتشار حكم وطني في المنطقة يهدد الجملة الاستعمارية برمتها ويهدد بالتالي الانجليز والامريكان وجميع المستعمرين الآخرين بزوال استعمارهم وبانقطاع نهبهم .

كان الاستعمار البريطاني موجودا في المنطقة العربية منذ زمن ليس بالقصير ، فكان من السهل عليه ان يحتفظ بمواقعه اللازمة له عندما اضطر لمسايرة العصر فانقلب الى الشكل الحديث من الاستعمار ؛ وعندما اضطر للاعتراف باستقلال الشعوب التي كان يحتل اراضيها

بجيوشه ترك أعوانه في الحكم وفي الامكنة الستراتيجية من المجتمعات العربية • الا ان هذا الاستعمار مفضوح وليس لاعوانه اي رصيد من الاحترام بين الناس • اضف الى هذا انه ما زال يتأثر بعقليتـه القديمة التي اعتاد عليها طيلة القرون الماضية والتي لم تعد تلائم هـذا العصر • اما الاستعمار الامريكي فقد دخل المنطقة حديثا فعليه ان يبدأ بتكوين نفسه من مواقع ضعيفة بالنسبة الى الاستعمار الآخر • الا ان هذا الاستعمار في غاية الخبث والقوة وهو قد خرج من الحرب ليتزعم الاستعمار العالمي بجميع أشكاله ، بالاضافة الى انه لم يكن في بادىء أمره مفضوحا كزميله البريطاني ، وقد وضع خطته على أساس اجهاض الحركات الثورية الموجهة ، بطبيعةالاوضاع التي كانتسائدة ـ وما زالت سائدة حتى هذه الساعة في كثير من بلاد العرب ـ ، ضد الاوضـاع القديمة البالية التي خلفهـا الاستعمار القديم ، باحتضـان التيارات الانتهازية في هذه الحركات الثورية ومساعدة هذه التيارات على التحكم بالثورات وتحويلها الى مد انتهازي يقوم على الدجل والشعارات الفارغة ، ويهدف الى قمع كل اتجاه شريف بالحديد والنار والدماء •

كان الاستعمار الامريكي في عام ١٩٤٥ يتآمر مع بريطانيا لاقامة اسرائيل قاعدة كل الجملة الاستعمارية في المنطقة ، الا انه في ذات الوقت كان يضع الخطة للاستيلاء على مواقع الاستعماريين الآخرين ، الانجليز والفرنسيين في المنطقة • فنجده مثلا يعرض على سورية في اعقاب جلاء الجيوش الاجنبية عنها معونة عسكرية تحت اشراف بعثة عسكرية امريكية ولقاء ـ حلف ـ استعماري يضمنا اليه ، فيرفض سعد

الله الجابري رئيس الوزراء ووزير الدفاع آنذاك ، هذا العرض الوقح بحزم • لان الشعب السوري ما كان ليستفيد من تلك المعونة شيئا ، اللهم الا تحويل بلده الى ما يشبه اردن غلوب باشا الذي سلم اللد والرملة ومنطقة ام الفحم الى الصهاينة •

وكانت شركات النفط الاميركية في نهاية الحرب العالمية الاخيرة قد بلغت شأوا بعيدا في التغلغل في اقتصاد السعودية ، بل انها اصبحت في تلك الايام تسيطر سيطرة تامة على هذا الاقتصاد ، على اعتبار ان النفط هو الثروة الاساسية لهذا البلد • وكانت الانظمة الاقطاعية حينذاك تضمن استمرار النهب الاميركي ، لانها كانت ذات سيطرة قوية في هذا البلد • لذلك لم يكن الاستعمار الاميركي بحاجة الى التآمر على هذه الانظمة • أما في هذه الايام فان المسؤولين في السفارة الاميركية عندنا لا يترددون بالقول لكل متحدث اليهم ان أنظمة الحكم في السعودية بالية وان الشعب السعودي غير راض عنها • ومن الواضح ان هذا ليس بدافع الغيرة على الشعب السعودي ، وانما تمهيدا لاعلان حلف مع انتهازي سعودي ، على شكل ناصر ، يضمن للاميركان اطالة عهد نهب البترول هناك •

وفي بقية البلاد العربية ، كان الاستعمار الاميركي في عام ١٩٤٥ بحاجة الى عمل طويل نسبيا • ذلك لان القواعد العسكرية البريطانية كانت منتشرة في أكثر البلاد العربية آنذاك : في مصر كان الانكليز ما يزالون في القاهرة ، وكذلك كانوا في بغداد ، وكان غلوب يحكم الاردن ، وكانوا في الخليج وفي الجنوب العربي وفي ليبيا والسودان •

يضاف الى هذا الانظمة الرجعية الموالية لهم في أكثر تلك البلاد التي مرت • الا ان شعوب هذه البلاد لم تكن ساكتة • وكان الاستعمار البريطاني الذي أنهكته الحرب العالمية الاخيرة ، يترنح تحت ضربات هذه الشعوب • وقد وجد الاستعمار الاميركي فرصة في الاستفادة من التيارات الانتهازية التي لا بد من وجودها في الحركات الثورية • وكانت الناصرية ، في أكبر وأغنى بلد عربي الانتهازية التي وضع هذا الاستعمار الرهان على ظهرها ، لتكون له في بلدها مصر أولا ، ثم في العالم العربي ثانيا ؛ وتبين مؤخرا انها نافعة له في غير البلاد العربية ، نافعة له في افريقيا ، وقد مر معنا بعض الامثلة عن هذا فيما سبق من البحث •

الموقف في مصر حتى ثورة ٢٣ يوليو

مصر بين الاحتلال البريطاني والدس الاميركي :

ان الزمرة الناصرية ، الزمرة الانتهازية التي تضم جماعة من الضباط والمدنيين ، معظمها من النوع الذي وصفنا آنفا ، الزمرة التي كانت تعمل بين جمهرة كبيرة من الضباط الشباب الممتلئين حماسا وحقدا على المستعمرين والفساد المستشري في بلدهم ، هذه الزمرة لم تكن خافية عن أنظار الاستعمار الاميركي • بل ان هذا الاستعمار كان يدرس الحالة المتفجرة في مصر عن كثب ، وكان يقيم أوثق الصلات مع مختلف الاتجاهات الرجعية والفئات الانتهازية ، كزمرة ناصر ، فلا تفلت من مراقبته شاردة في الجيش أو في المجتمع المدني • الا ان

الامور كانت ، كما أشرنا سابقا ، معقدة بسبب وجود القوات البريطانية المحتلة • فأي انقلاب مثلا لا يفيد الاميركان شيئا ما دام السفير البريطاني يستند الى جيش الاحتلال في حماية المصالح الاستعمارية لدولته • فالزمر الانتهازية ، وخاصة منها الزمرة الناصرية ، ليس لها دور في مثل تلك الظروف (ظروف الاحتلال البريطاني) وبالتالي لا فائدة ترجى ، للاستعمار الاميركي ، من الانفصال الحتمي لهذه الزمر عن جماهير الشعب المكافح ، بعد ثورة ضد نظام الاقطاع والرجعية :

(تساهم الزمر الانتهازية في الثورات التي تصنعها الجماهير لتنفصل في النهاية عن هذه الجماهير ولتستغل مكاسب الثورة لمنافعها الانانية أو لخدمة مطامع استعمارية او للامرين معا • والثورة ضد فاروق في ظل الاحتلال البريطاني للقاهرة ما كانت لتستغل في النهاية لمصلحة استعمار آخر كالاستعمار الاميركي) •

وكان من المفيد ، لمستقبل الاستعمار الاميركي ، ان تندمج الزمر الانتهازية في مصر مع الجماهير لتمد جذورها فيها وتنمو ، طيلة وجود الاحتلال البريطاني ، لتصبح فيما بعد أقوى على خدمة ذلك الاستعمار • لذلك رأى الاميركان ان يبدأوا باحتضان عدد من الافراد من مختلف الاوساط المتنفذة ، وخاصة في وسط القصر الملكي ، وكان فاروق من جملة الذين احتضنوهم • فظهر ، نتيجة لهذا ، تياران في العالم العربي : تيار الاسرة الهاشمية الذي تحتضنه بريطانيا وتيار الاسرتين ، العلوية والسعودية ، الذي تحتضنه اميركا • ولقد كان صراع هذين التيارين واضحا كل الوضوح في كل قضايا العالم العربي ،

وكان واضحـــا على الاخص في الصراع بين الاستعماوين الاميركي والانجليزي في سورية •

وتغير الحال تماما في مصر ، عندما توصل الشعب هناك الى اجلاء الجيوش البريطانية الى قاعدة القناة عـــام ١٩٤٧ • وكان بالامكان ان تستمر المعركة بين الشعب المصري وبين الانجليز لاجبار الاخيرين على الخروج من مصر كليا ، باخلائهم القناة ، الا ان المسألة الفلسطينية كانت قد برزت حينذاك وغطت كل نشاط آخر • لقد انشغل الاستعمـــار بكلتيه في تلك الايام باقامة دولة اسرائيل مع العمل ، في داخل كل بلد عربي ، على ما يضمن بقاء هذه الدولة ويتممهـــا في خدمة المصالح الاستعمارية •

وحلت النكبة الفلسطينية وتزعزعت اسس الانظمة الرجعية في كل العالم العربي • وفي مصر عاد الشعب الى الكفاح بشكل أعنف ضـــد الفساد والرجعية والاحتلال البريطاني • وبمقدار اشتداد القوى الثورية ونموها في الاحداث الجسام التي مرت بالشعب المصري ، اشتدت ايضا التيارات الانتهازية التي كانت تخدع قسما هاما من الجماهير بشعاراتها المزيفة الفارغة • اضف الى هذا ان بعض هذه التيارات كان على درجة كبيرة من التنظيم بحيث استطاع ان يضم الى صفوفه قوى لا يستهان بها وان يحالف ، في طريق النضال ضد الاستعمار البريطاني ، قوى وطنية صادقة • ولقد قلنا ان مهمة التيارات الانتهازية ان تشدد تلاحمها مع الجماهير لتمد جذورها فيها وتشتد في نموها ريثما يأتي دورها •

اميركا والثورة :

بلغت أزمة الاوضاع الفاسدة في مصر ، التي هي ازمة الاستعمار البريطاني ايضا ، اشدها في ٢٦ كانون الثاني عام ١٩٥٢ ، اليوم الـذي اطلق عليه اسم يوم حريق القاهرة . فلقد بدأت ثورة شعبية رائعة ، الا ان عفويتها سمحت للاشقياء ، من عصابات الملك الارهابية التي كان يرئسها اليوزباشي مصطفى كمال صدقي ومن احلاف هذه العصابات من الزمر الارهابية الاخرى ، ان يحولوها الى كارثة أودت بالارواح والقيم المادية . الا ان الشعب المصري لم يلبث ان نظم صفوفه بعد هذا اليوم الرهيب ، فعاد الى الكفاح . ولم يكن الجيش بعيدا عـن الشعب ، بل كان يتحين الفرص لينزل الى جـانبه في الميدان . وفي صبيحة ٢٣ تموز ١٩٥٢ أستفاق الناس على ثورة الجيش التي اطاحت بالنظام الملكي الفاسد . فلقد كان الجيش في هذه الحركة يعبر أصدق تعبير عن أشرف الاتجاهات الشعبية في مصر ، اتجاهات التحرر مـن الفساد والظلم الاقطاعي والاستعمار والفقر والتأخر الخ ... وكان بهذا يتوج جهادا مريرا خاضه الشعب المصري بصبر وثبات وقدم فيه الوف الضحايا ، طيلة عشرات السنين : من ثورة عرابي ، الى النضال الطويل بقيادة الوفد المصري ، الى معارك الجلاء بعد الحرب العالمية الثانيـة ، الى حرب فلسطين ، وأخيرا الى الانتفاضات الشعبية العارمة التي لم تنقطع طيلة الفترة الواقعة بين الحرب الفلسطينية حتى ٢٣ يوليو .

ان الاستعمار الاميركي لا يفرح كثيرا بتحرر الشعب المصري من كل مصائبه ورزاياه ، ولا يريد على الاخص ان يؤول الامر الى

الشعب . ان الثورة قدر في شعب متخلف اصيب بكل تلك المصائب التي نعرفها جيدا ، الا ان اجهاضها في حيز الامكان عندما يكون للانتهازيين مكان قوي بين الثوار . وكانت زمرة عبد الناصر من تلك الزمر الانتهازية التي خدعت عددا لا يستهان به من ضباط الجيش المصري بدجلها وشعاراتها الفارغة ، وكانت على اتصال وثيق بالمستعمرين الاميركان . فكان علي صبري ، العميل الاميركي ، المستشار السياسي لرئيس الزمرة جمال عبد الناصر ، وكان زكريا محي الدين ، العضو البارز في تلك الزمرة ، عميلا للاستخبارات التركية . اضف الى هذا أن أفراد هذه الزمرة كانوا وما يزالون يعتبرون انفسهم مرتبطين روحيا بأميركا ويطمحون الى استبدال الاستعمار البريطاني بالاستعمار الاميركي.

يقول مؤلفا كتاب « مصر تتحرك » جان وسيمون لاكوتور ، في صفحة ١٥٦ ما ترجمته :

« ... كان الجانب الاميركي لا يخلو من انشغال البال بسبب تلك الميول (الميول التقدمية للثورة) . الا ان السفير جيفرسون كافري كان يتظاهر بعدم الالتفات الى هذه الميول وكان يفرض نفسه (شبيبنا) للثورة (راعيا لها) . وكان يقول ان بامكان هؤلاء الاولاد (Boys) ان ينقذوا مصر من المد الاحمر الذي كان سينصب عليها من جراء تجاوزات فاروق والباشوات . انهم سيقومون بالاصلاحات (يمكنكم ان تعتمدوا على تأكيداتي هذه) وسيرفعون سوية الشعب . ويجب علينا ان نشجعهم ... »

وكانت بعض الاوساط في أميركا تخاف الثورة في أول أيامها لانها كانت ثورة وطنية تمثل كل الاتجاهات الشريفة ، وهذا الخوف مفهوم تماما . الا ان السفير الاميركي جيفرسون كافري ، الـذي تبرق عيناه الرماديتان ببريق الخبث ، كان لديه من الاسباب ما يجعله مطمئنا الى المستقبل ، على الرغم من ظواهر الامور التي كانت تبعث خوف المستعمرين في تلك الاثناء . لقد كان يعرف الزمرة الانتهازيـة الناصرية ويعرف مدى نفوذها في الثورة ، فيأمل بالتالي ان تتطور الامور في الاتجاه الملائم للاستعمار الاميركي . وكان يستند الى تلك الزمرة الانتهازية عندما كان يفرض نفسه راعيا للثورة . اما دجله بالاصلاحات والاخطار الحمراء فهو من الخطة الاميركية العامة في تحويل الانظار عن الاخطار الحقيقية الى اخطـــار وهمية كاذبة وفي فتح الابواب للتدخل الاستعماري الاميركي في الشؤون الداخلية للآخرين بحجة الشيوعية . ان كافري هذا كان من مؤسسي الناصرية ، كما كانت دولته اميركا من مؤسسي اسرائيل . واذا كانت اسرائيل خادمة للاستعمار الحديث ، للجملة الاستعمارية العالمية التي تتزعمها اميركا ، فان في هذه الجملة مستعمرين آخرين : انجليزا وفرنسيين والمانا غربيين الخ ... امـا الناصرية فانها خادمة الاستعمار الاميركي وحده ، خادمة من طراز جديد يتلاءم مع الاستعمار الحديث ويختلف عن الانواع القديمـة الكلاسيكية كطراز نوري السعيد واضرابه .

الزمرة الناصرية تجهض الثورة وتحولها الى مد النهازي
الزمرة الناصرية ليست كل الضباط الاحرار :

كانت الجماعات الثورية من الضباط الشباب تعمل متساندة قبل

الثورة ، وما كان باستطاعة جمال عبد الناصر ان يفرض نفسه رئيسا أعلى لهذه الجماعات ، وان استطاع بالخداع ان يوسع نفوذه بينها وان يلفت الانتباه الى شخصه في الجيش كضابط « ثوري مرموق » ثم ان ضباط الجيش ، عدا أفراد الزمرة الناصرية ، لم يكونوا على علم بالنشاط الارهابي لهذه الزمرة ولا باتصالاتها المشبوهة بالجهات الاجنبية وغيرها . اما ما يدعيه عبد الناصر (في اطنان الكتب والنشرات التي اصدرتها ، بعد وصوله الى الحكم ، دور الاعلام والدعاية الناصرية ، والتي تتنوع حتى تصل في تنوعها الى كتب الفيزياء والرياضيات) من انه صانع كل شيء وانه كان مهندس الثورة ، وانه « صنع عواطف الناس وشعورهم في الجيش وفي الشعب » ليكونوا وطنيين فيسيروا تحت لوائه لخلع الملك الخ ... فهو من باب المبالغة وطمس الاعمال الجليلة التي قام بها الآخرون لقد كان يريد ان ينسى الناس أولئك الذين ضحوا أو خاطروا في سبيل شعب مصر ، وأن ينسب الى نفسه كل شيء ليكون كل شيء . ألم ينكر في خطاباته الاخيرة في ٢٣ تموز ١٩٦٢ دور جميع ثوار مصر منذ عرابي حتى ٢٣ يوليو (بل منذ الفراعنة عندما نتمعن في اقواله) في تقدم مصر ، وكأن هذا البلد لم ينجب الا اياه !.. بينما الواقع والطبيعي ان الضباط الاحرار كانوا يتساوون جميعا في العمل وان لم يكونوا متساوين في النية : بينهم المخلص وبينهم الانتهازي . وكانوا منذ ما قبل الثورة يلتفون حول شخص طيب ومتقدم في السن ، هو اللواء محمد نجيب .

اشتد تقارب فئات الضباط المختلفة من بعضها البعض وتحسن

تنظيمها في مطلع عام ١٩٥١ ، وذلك بمناسبة المعركة التي خاضوها ضد مرشح القصر لرئاسة نادي الضباط في القاهرة ، وقد فاز في هذه المعركة مرشحهم اللواء محمد نجيب . وكانت حينذاك بداية وجود هذا الاخير على رأس الضباط الاحرار بشكل « رسمي » ، وان كان اسمه موضع احترام من الجميع منذ وقت طويل لنزاهته ووطنيته وطيب سجاياه . وهذا لا يعني أن أحدا كان يسبقه في رئاسة الضباط الاحرار ، لان الفئات المختلفة لهؤلاء الضباط لم تبدأ بالعمل سوية مع بعضها البعض بشكل واسع وجدي الا بعد معركة انتخاب رئيس نادي الضباط المذكورة آنفا ، أي عندما أصبح محمد نجيب على رأسهم جميعا بمناسبة تلك المعركة . أما ادعاءات ناصر بأنه « تنازل » للواء نجيب عن رئاسة الضباط الاحرار فالصحيح فيها هو :

ان ناصر تظاهر بقبول حل زمرته لتندمج مع بقية الفئات والزمر (التي قبلت بحل نفسها) في جماعة واحدة هي جماعة الضباط الاحرار . وليست الزمرة الناصرية كل الضباط الاحرار .

ولم يعرف اسم عبد الناصر من عامة الناس الا بعد مضي زمن على قيام الثورة ، وما كان هذا الجهل باسمه بسبب ما يدعيه هو في دعاياته من انه كان ماهرا بالتخفي ، بل بكل بساطة ، كان بسبب عدم كونه رئيسا للضباط الاحرار ، وان كان رئيسا لزمرة انتهازية ارهابية بينهم .

ان حسين سري خير الملك ، قبل قيام الثورة بشهر ، بين تعيين محمد نجيب لوزارة الدفاع لتهدئة الضباط الاحرار وبين سجنه

لارهابهم • وقد اتصل مرتضى المراغي ، وزير داخلية الملك ، يوم ٢٢ تموز باللواء محمد نجيب ، اتصل به في الساعات الاولى لقيام الثورة ولم يكن أحد قد علم حينذاك بأسماء الثوار ، وقال له : « ما هـــذا يا نجيب ؟ ماذا يفعل رجالك ؟ هدئهم ! ••• » • يضاف الى هذا ان اللواء الثالث عشر ، اللواء الذي كان في السابق بقيادة نجيب بالذات ، والذي اصبح بعد ذلك بقيادة صديقه الحميم احمد شوقي ، والذي كان يعرف دوما « بلواء نجيب » ، كان القطعـة الاساسية في حركـــة ٢٣ يوليو • وكل هذا لا يدل أبدا على أن اللواء محمد نجيب كان قائد الساعة الحادية عشرة ، أي قائد الثورة بعد نجاحها ، كما يدعي عبد الناصر في دعاياته • ولو ان ثورة ٢٣ يوليو لم تنجح لكان رأس اللواء نجيب أول رأس يسقط من رؤوس رجال الثورة • ولربما نجا رأس عبد الناصر ونجت رؤوس الكثيرين من زمرته الانتهازية ، لان القطعات التي اشتركت في الحركة ما كانت بقيادة ضباط ناصريين •

الزمرة الناصرية كانت بعيدة عن التنفيذ :

كانت القطعات التي قامت بحركة ٢٣ يوليو تتألف من لواء المشاة الثالث عشر النموذجي (لواء نجيب) ، بقيادة العقيد احمد شوقي ، ومن لواء مدرع بقيادة العقيد يوسف صديق • ومن المعلوم جيدا ان سلاح الفرسان (سلاح المدرعات) كان بمجموعه تقريبا ضد الناصرية ، فهو الذي وقف في وجه عبد الناصر في الازمات التي قامت بين نجيب وناصر • وقد سرح العقيد يوسف صديق والعقيد احمد شوقي ، كما سرح وسجن اكثر ضباط سلاح الفرسان وضباط اللواء الثالث عشر

الآنف الذكر في فترة التمهيد لتصفية اللواء محمد نجيب • أما أصدقاء ناصر البارزون فقد كانوا في الامكنة التالية يوم قامت الثورة :

- كمال الدين حسين وصلاح سالم في سلاح المدفعية الذي لم يشترك بالحركة والذي جمد بسبب عدم ولائـــه للثورة • والجدير بالذكر ان هذا السلاح كان يشكل القوة الاساسية في قمع ســـلاح الفرسان (المدرعات) عندما هب هذا السلاح في وجه عبد الناصر دفاعا عن محمد نجيب ، يوم استقال هذا الاخير اول مرة في ٢٣ شباط ١٩٥٤ • وهنا يظهر لنا جليا الاتجاه الذي كانت تتجـه فيه تحالفات عبد الناصر : لقد كان هذا يستغل حقـــد من لم يشترك في الثورة على الثوار •

- كان أنور السادات مع عائلته في السينما في ساعة الحركـــة (الساعة الحادية عشرة) •

- كان عبد اللطيف البغدادي وجمال سالم وذو الفقار صبري في سلاح الطيران الذي لم يكن له دور في الحركة • وكان جمال سالم في العريش يوم ٢٢ يوليو •

- كان زكريا محي الدين وثروت عكاشة بدون قطعات •

- كان جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر تحت تصرف القيادة ، اي كانا يعملان في المكاتب ولا يقودان قطعات يمكن الاستفادة منها في الحركة • وفي ليلة ٢٣ يوليو كان هذان الضابطان في مكتب اولهما وكانا يرتديان الثياب المدنية (مع انالمفروض ان يرتديا الثياب العسكرية في مثل تلك الظروف) • وفي الساعة الحادية عشرة من مساء ٢٢ يوليو

ذهبا في اتجاه الثكنات التي كان من المقرر ان تبدأ منها الحركة في الساعة الثانية عشرة • وهنا نترك الكلام للاخوين جان وسيمون لاكوتور ، من كتاب « مصر تتحرك » ، صفحة ١٤٢ من النسخة الفرنسية :

« ••• وما كاد عامر وعبد الناصر يخرجان من المكتب ليشاهدا (بالثياب المدنية) ما كان مقررا ان يجري تلك الليلة حتى وقعا على رتل قوي من العربات المدرعة التي كانت تنساب بتشكيلة القتال بأضواء مطفأة • فظنا ان امرهما قد افتضح وخافا من الضياع ••• »

سبق ان قلنا ان توقيت الحركة كان الساعة الثانية عشرة • الا ان المدرعات بقيادة يوسف صديق اتجهت الى القيادة لتحاصرها في الساعة الحادية عشرة • وكان هذا من حظ الثورة التي كانت انباؤها قد بلغت اسماع الملك قبل بدء الحركة • فاجتمع امار الأسلحة ورئيس الاركان (وكل هؤلاء من انصار العهد البائد) في القيادة ليلة ٢٢ تموز لدراسة الموقف واتخاذ الاجراءات اللازمة لقمع الثورة • فكان ان فاجأهم يوسف صديق بمدرعاته وقبض عليهم جميعا • ان هذه المدرعات هي التي كانت تؤلف الرتل الذي التقى به صدفة عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ، فظنا ان كل شيء قد ضاع ، وان الامر قد افتضح ، لانهما ما كانا يتوقعان هذا اللقاء قبل الساعة الثانية عشرة ، الساعة المقررة للحركة • ونعود الآن الى الاخوين لاكوتور :

« ••• واستعدا للدفاع اليائس (لا شك ان هذا من دس المباحث على الكاتبين الفرنسيين لاكوتور • لانه ليس من المعقول ان يكون عامر

وناصر حينذاك متسلحين بالمدافع الثقيلة وهما بالثياب المدنية ، كما انه ليس من المعقول ان يقابلا رتلا من المدرعات بالمسدسات ٠ اننا نرجح انهما استعدا في تلك اللحظة لاطلاق ساقيهما للريح ٠٠٠) واذا بصوت مألوف لديهما «يناديهما في الليل قائلا : مرحبا ايها الاخوة ! لقد وقع في قبضتي بعض الاسرى ٠٠٠ وكان ذلك الصوت صوت يوسف صديق (وقد عرفهما) الذي كان قد اوكلت اليه قيادة المدرعات ، والذي سبق التوقيت قليلا بحركته ٠٠٠ »

ان هذا الذي نادى (ناصر) ورفيقه (عامر) في تلك الساعة الحرجة بنداء الاخوة ، طرد من الجيش ونزل به اشد النكال على يد ناصر فيما بعد ٠٠٠

« وبعد هذا استمرت الحركة تقريبا وفقا للخطة المقررة ٠ فحاصر اللواء الثالث عشر بقيادة احمد شوقي مبنى القيادة التي كان يهاجمها الفوج المدرع الاول بقيادة يوسف صديق بالذات ٠ ثم دخل هذا ومسدسه بيده وعامر يتبعه الى مكتب رئيس الاركان حسين فريد الذي رفض الاستسلام واطلق ثلاث طلقات وهو مختبىء وراء ستار ٠ الا انه ما اطلق اكثر من هذه الطلقات الثلاث ٠٠٠ وفي هذه الاثناء كان خالد محي الدين يحاصر بسياراته المدرعة منطقة العباسية ـ القبة ـ منشية البكري ـ مصر الجديدة (منطقة القيادة العامة وثكناتها والقصر الملكي) ٠ وكانت دبابات حسين الشافعي تنزل الى البلد لتحتل النقاط الستراتيجية : الراديو (الساعة الواحدة

والنصف) وبناية مقسم الهاتف ، والمطارات ، والمحطة ... » .

اما عبد الناصر الذي تركه رفيقه عامر ليذهب مع مدرعات يوسف صديق ، فانه بقي بعيدا عن كل تلك التحركات ، حتى انتهت كلها بالنجاح ...

تقول الدعاية الناصرية ان محمد نجيب كان في بيته اثناء تنفيذ الحركة ، وهي تحاول ان تبرهن بذلك على ان هذا القائد لم يشترك في الثورة الا بعد نجاحها . ونحن بدورنا نفتش عن ضباط الزمرة الناصرية في كل الحركات التي مرت معنا قبل هنيهة فلا نجد منهم الا حسين الشافعي الذي لم يقم الا بدور ثانوي في كل ما سبق : احتلال نقاط لا يهددها احد ، اللهم الا المدنيون !... يضاف الى هذا ان جميع ضباطه مشهورون بعدم انتمائهم الى الزمرة الناصرية ، فهم من سلاح الفرسان .

مما لا شك فيه ان جميع الضباط الاحرار ، ومن جملتهم ضباط الزمرة الانتهازية الناصرية ، اشتركوا في الدعاية للثورة وفي الاعداد للثورة ، وهذا امر كبير وجليل . الا ان هؤلاء الضباط كانوا يعملون جميعا بقيادة اللواء محمد نجيب . ولم تنفرد ابدا الزمرة الناصرية وحدها في تحضير وتنفيذ الثورة ، وهي على الاخص لم تساهم بمقدار مساهمة الآخرين في التنفيذ ، بل ان رؤساءها كانوا ، كما رأينا ، بعيدين كل البعد عن القطعات التي قامت بالحركة . لقد عرفوا جيدا المكان « اللائق » فوضعوا انفسهم فيه ، ليكون لهم الغنم ولغيرهم ، وعلى ايديهم ،

الغرم . بينما اشترك الآخرون بالاعداد للثورة وبتنفيذها ، الا انهم سرحوا فيما بعد من الجيش ، وعفي على ذكرهم ...

عبد الناصر يستغل طيبة محمد نجيب

لعل عبد الناصر ورجال زمرته كانوا من اسعد الناس بتلك الظروف التي جعلت من اللواء محمد نجيب قائدا للضباط الاحرار . ذلك لان وجود رجل حازم ومخلص وقوي الشخصية ، غير محمد نجيب ، الذي كان على طيبته ووطنيته يتصف بضيق الافق ، على رأس الضباط الاحرار يسد الطريق على الزمرة الناصرية ويحكم على مخططاتها بالفشل . وبالفعل قدر عبد الناصر هذه الناحية كل التقدير فكان اول من « التصق » باللواء محمد نجيب منذ عام **١٩٥١** عندما وقعت ازمة انتخاب رئيس نادي الضباط ، فتظاهر بخدمته والاخلاص له . وما زال يحيطه برجاله واعوانه ، مستغلا طيبته وخلو باله من الدسائس والدساسين ، ليحتفظ لنفسه ولزمرته بمكان ممتاز بالنسبة الى بقية فئات الضباط الاحرار . وهكذا تمكن عند وقوع الثورة من ان يكون مع زمرته حول اللواء نجيب ، اي في قيادة الثورة ، وبالتالي نجح في الحصول لاعوانه على غالبية مقاعد مجلس الثورة عند تشكيل هذا المجلس .

وتفتقت حينذاك ذهنية عبد الناصر عن حيلة طالما رددها واستعملها في تفريق وتفتيت منافسيه مقدمة لضربهم . فبعد نجاح الثورة استعمل نفوذ محمد نجيب لتقوم جميع فئات الضباط الاحرار بحل نفسها . وكانت حجته ان كل هذه الفئات يجب ان تشكل فئة واحدة بقيادة واحدة ، اي بقيادة مجلس الثورة ، لتجنب « الانقسامات في الجيش »

وكان هذا الاقتراح لا يعني ، بطبيعة الحال ، الا الفئات الاخرى غير زمرته التي تتكتل حوله . وقد وقع قائد الثورة محمد نجيب في هذا الفخ لانه لم يكن منتميا حينذاك الى اية فئة ، وانما كان يعتبر كل الفئات برئاسته . الا ان هذا كان ذا فائدة كبيرة لزمرة عبد الناصر الانتهازية التي بقيت متماسكة . وعند توزيع مقاعد مجلس الثورة والقيادات والمراكز احتل الناصريون معظم المراكز الحساسة بحجة انه لا فرق بين ضابط كان من هذه الفئة وبين آخر كان من فئة اخرى ، ما دامت « كل » الفئات قد انحلت واصبحت فئة واحدة ، وما دام الضابط يمثل « الجميع » مهما كان اتجاهه . وهكذا نجح عبد الناصر بالتسلل الى الامكنة الحساسة ، وتحت الشعار الآنف الذكر ، وبمساعدة محمد نجيب الغافل الطيب ، ولان الفئات الوطنية الطيبة كانت تخاف من الشقاق والانقسامات في الجيش فكانت تسكت عن التغلغل الوقح للزمرة الناصرية في كل مكان ، في الوقت الذي كان فيه عبد الناصر ورفاقه يهددون بتخريب كل شيء عند كل ازمة ، صغيرة او كبيرة ، يقف فيها الآخرون في وجوههم .

وطبق عبد الناصر الحيلة السابقة عندما مارس الحكم ، فهو ما ينفك ابدا يطالب بعدم التحزب ، ويطالب بحل الاحزاب ، مع احتفاظه هو باجهزته وبعصاباته على غاية من التنظيم والاستعداد . وهو بهذه الحيلة يستولي على كل المراكز في الدولة وفي المجتمع ، وعندما يعترض احد على اعماله فانه يحتج بعدم الحزبية فيقول مثلا ان من يعينهم (من خدمه) ليسوا حزبيين ويخدمون مصلحة « كل الناس » (اي يخدمون مصلحته هو الذي يمثل « كل الناس ») .

وبعد ان حطم عبد الناصر كل الفئات الاخرى (غير زمرته) ومحاها من الجيش ، مسح تاريخ هذه الفئات وما صنعته لانجاح الثورة . فهو عندما يتحدث عن تاريخ الثورة لا يتحدث الا عن تاريخ زمرته ، بل انه لا يتحدث الا عن تاريخ شخصه هو ، ويغفل الآخرين الذين محاهم ومسح ذكرهم :

الم يكن بعض الدجالين من قدماء الفراعنة يستولون على اهرامات بناها غيرهم بمسح كل الكتابات التي تشير الى البناة الحقيقيين وبوضع كتابات مزورة تشيد بأعمالهم الوهمية ؟ الا ان التاريخ فضحهم ووضعهم في مكانهم الحقيقي .

اعداد الجو اللازم لتصفية محمد نجيب

عندما كانت الزمرة الناصرية تستولي على المراكز الحساسة اللازمة وتوطد مراكزها في كل مكان ، في الجيش وفي الحكم وفي المجتمع ، كان رئيسها عبد الناصر يتظاهر بالديموقراطية وبالدفاع عن الحياة البرلمانية والدستور . وفي ذات الوقت كانت هذه الزمرة تشجع ، عن طريق « الهمس » او علنا ، الاكاذيب حول خصومها او حول كل شخص تعد العدة للتخلص منه . فكانت مثلا تعمل على اشاعة الاكاذيب حول محمد نجيب وحول ديكتاتوريته وعدائه لعودة الحياة الديموقراطية .

وعندما تولى نجيب رئاسة الوزارة مكان علي ماهر ورط الناصريون حكومته بتشويه سمعة الاحزاب وضربها . وقد فرض اللواء نجيب على هذه الاحزاب ان تطهر نفسها من الرؤساء والاعضاء الفاسدين ، وكان قد نفذ حكم الاعدام بعاملين في كفر الدوار ، مصطفى خميس واحمد

البكري ، كما كان قد عزل العقيد رشاد مهنا (وهو من اخطر المنافسين حينذاك لعبد الناصر) من مجلس الوصاية على العرش ، ثم القى القبض عليه بعد ذلك ، مع عشرين ضابطا ، واحيل كل هؤلاء امام محكمة كان يرئسها جمال عبد الناصر ، وحكموا احكاما قاسية تصل الى السجن مدى الحياة •

وعندما وجدت الزمرة الناصرية نفسها في مراكز قوية ، وذلك نتيجة تسربها الى القيادات الهامة في الجيش وفي الحكم ، ونتيجة عملها الدائم في استقطاب جميع العناصر المشبوهة ، العسكرية وغير العسكرية ، العناصر التي كان الملك يعتمد عليها في السابق او التي لا تهتم الا « بقبض الراتب في آخر الشهر » ، ونتيجة طرد وتشريد الكثيرين من الخصوم ، نقول عندما وجدت هذه الزمرة نفسها في مراكز قوية انقلب التكتيك الذي كانت تتبعه من التظاهر بالدفاع عن الحياة الدستورية الى الدعوة الى الحكم العسكري وتصفية الاحزاب وجميع المؤسسات الديموقراطية • اما في مجلس قيادة الثورة الذي اصبحت حينذاك اكثريته تتشكل من الزمرة الناصرية ، فان شكوى الناصريين كانت تنصب على « ديكتاتورية » نجيب !••• وهذا التناقض بين الدعوة الى الديكتاتورية العسكرية في مصر وبين الدعوة الى « الديموقراطية » بين العسكريين في مجلس قيادة الثورة مفهوم تماما : فالديكتاتورية العسكرية تضمن الحكم المطلق لمجلس قيادة الثورة ، والديموقراطية في هذا المجلس تجعل محمد نجيب صفرا على الشمال بحيث يؤول الامر كله الى الناصريين ، او بالاحرى الى رئيسهم جمال

عبد الناصر ، في المجلس وفي مصر جميعها . وكان هذا التكتيك يهدف ايضا الى تصوير محمد نجيب امام العسكريين (من الـذين اشربوا بالروح الفاشستية) رجلا يقف الى جانب السياسيين « الفاسـدين » ضد الجيش .

لقد استخدم نجيب واستخدمت شعبيته الواسعة منذ الايام الاولى للثورة ، وطيلة عامها الاول الذي عمل فيه ناصر على تقوية مراكز زمرته ، لتسويد صفحة السياسيين ، في الوقت الذي كان فيه جمال عبد الناصر يتظاهر بنكران الذات وبالدفاع عن البرلمان والدستور . وبعد ان ازداد نفوذ الناصرية وتوطدت مراكزها ، ظهر تيار فاشستي قوي كان يغذيه الكثيرون من بسطاء النـاس في الجيش وفي الاوسـاط المدنيـة ، وبالاضافة الى القوى الانتهازيـة التي وضعها عبد الناصر في المراكـز الحساسة ، وبالاضافة الى المرتزقة الذين زحفوا من كل صوب ليعرضوا خدماتهم على الزمرة الناصرية المتحكمة . وفي هذا الجو وبعد تلك الحملة الطويلة التي صورت فيها الاحزاب على درجة كبيرة من الفسـاد كان يسهل على الزمرة الناصرية ان تصور محمد نجيب لدى الكثيرين من ضباط الجيش بانه ضد الحكم العسكري وبالتالي ضد الجيش ، ومـع السياسيين " الفاسدين " ، الذين كان يحاربهم هو بذاته فيما مضى . ومن الواضح ان كل هذا دجل كبير قام بوضعه واخراجه عبد الناصر مع مستشاريه الاميركان . ففساد بضعة عشرات من السياسيين ، اذا صح وثبت ، لا يعني ابدا فساد مئات الالوف ، بل الملايين من ابناء الشعب الذين يتحزبون لهذا الاتجاه او ذاك . كما ان الدعوة الى الديموقراطية

لا تعني ابدا الوقوف « الى جانب المدنيين ضد العسكريين » ، لان الجيش من الشعب والى الشعب وليس من فرق بين الجيش والشعب الا في اذهان سيئي النية الطامعين في التسلط والتحكم .

ولم يأت خريف عام **١٩٥٣** حتى بدأت محاكمات السياسيين من الوفد وغيره . وكانت هذه المحاكمات تزيد في تأليب البسطاء من الناس ، في الجيش وخارجه ، ضد أولئك الزعماء السياسيين من « العهد القديم ». ومن الطبيعي ان يقف محمد نجيب ، ذلك الرجل الطيب ، ضد تلك الاعمال التعسفية وضد الدجل الناصري الذي اتضح له حينذاك كل الوضوح . الا ان هذا المسكين كان قد غدا ألعوبة بيد عبد الناصر في ذلك الوقت ، واصبح من المشكوك فيه ان ينجح في وقف المد الناصري الانتهازي المتصاعد . وقد قال في كتابه « مصير مصر » :

« كان اما ان اعطى السلطة التي احتاجها كيما احكم مصر بالطريقة التي اراها فعالة ، واما ان استقيل . لقد كنت كرئيس للجمهورية ورئيس للوزراء وزعيم للثورة مسؤولا عن كل عمل تقوم به الحكومة . وفي هذا لم اعترض على تحمل مسؤولية الاعمال التي وافقت عليها ولكنني لم اعد راغبا في تحمل مسؤولية ما لم استشر بامره ، او ما لم استطع الموافقة عليه من اعمال وتدابير » .

عبارة تبين عقلية هذا الرجل الطيب الذي ترتكب كل الافعال باسمه ولا يستطيع فعل شيء غير الاستقالة ، بعد ان وضع عبد الناصر يده على كل شيء في الحكم . وطالب محمد نجيب في نهاية الامر باجراء

انتخابات لمجلس تأسيسي وبتأليف وزارة مدنية ، وقد ردت عليه زمرة عبد الناصر :

« ... بأن باعد مجلس الثورة بينه وبين السلطة مزيدا من المسافة عن طريق التجاهل والاهمال المتعمدين (اي تجاهل واهمال اللواء نجيب) ... »

لقد استعرنا هذه العبارة من الكتاب الذي اصدرته المباحث بقلم « توم ليتل » صفحة ٣٠٧ . وهي تدل على مبلغ ما وصل اليه هذا المسكين من ذل وهوان على يد تلك الزمرة الانتهازية التي لم تتأخر عن العمل للتخلص منه بعد ان صعدت على اكتافه الى السلطة .

ان الحالة الفكرية لعبد الناصر ، عندما كان في آخر مرحلة من عمله للتخلص من محمد نجيب ، وان احتقار عبد الناصر للشعب ولكل القيم الاخلاقية ، وان نكرانه وجحوده لدور نجيب في تمهيد الطريق أمامه ، وقلبه للامور وتصويره لها بحيث جعل من نفسه ولي نعمة نجيب وليس العكس ، كل هذا يظهر في العبارات التي كتبها توم ليتل ، الداعية الناصري ، في الصفحتين ٣١٢ ، ٣١٣ من كتابه الذي سبق ذكره :

« لقد كان هناك ما يبرر للواء محمد نجيب اعتقاده بانه مدعوم في الظاهر من اكثرية الرأي العام ولعله تجاهل ان الرأي العام ليس بالقوة الفعالة في مصر (كذا !...)

« اجل لم يكن لنجيب من مستقبل بدون عبد الناصر ومع ذلك فان سعيه من اجل السيطرة على مجلس قيادة الثورة كان يستقطب حوله عمدا او عفوا اعداء حركة عبد الناصر ... »

ان الحقيقة لا بد ان تظهر مهما كانت اكوام الكذب كبيرة ، وهي كثيرا ما تظهر من بين أكوام الكذب . فدعاية عبد الناصر تقول على لسان توم ليتل انه كانت هناك حركة باسم « حركة عبد الناصر » ، وان هذه الحركة كانت في عداء مع آخرين في مجلس الثورة وفي اجهزة الثورة ، ولا يعقل ان يكون ، هؤلاء « الاعداء » من غير الثائرين الذين ساهموا بالثورة . وهذا يبين بوضوح تام ما كنا قلناه من ان الزمرة الناصرية لم تكن ابدا كل شيء ، كما تحاول دعايتها تصويرها ، بل كانت هنالك فئات اخرى كثيرة ساهمت بالنصيب الاكبر في الثورة . وعندما تكون هنالك حركة باسم « حركة عبد الناصر » ، وهي حركة انتهازية ، تكون هنالك ايضا حركات كثيرة ومخلصة ، ومجموع كل هذه الحركات تؤلف حركة الشعب المصري ، ولا تؤلف حركة عبد الناصر الا جزءا تافها من هذا المجموع ، جزءا سلبيا .

تصفية نجيب

استقال محمد نجيب في **٢٣** شباط **١٩٥٤** ، وثار سلاح الفرسان انتصارا له ، الا ان ناصر بمساعدة عامر تمكن من الاحتيال على الثائرين وتهدئتهم ، ثم قبض عليهم ، وعلى الكثيرين من اعدائه في الجيش ، بعد عودتهم الى بيوتهم في آخر الليل ... الا أن عبد الناصر اضطر الى التراجع قليلا ، عندما هب الشعب في الايام التالية مطالبا بعودة نجيب ، فاعاده بعد ان سلب منه مركز رئاسة الوزراء وابقى له رئاسة الجمهورية فقط ، وذلك بخدعة تدل على اسلوبه السياسي المستند دوما الى التزوير . فقد كان محمد نجيب سجينا عند قيام المظاهرات التي تؤيده ، وكان

لا يدري ما يجريَ في العالم آنذاك • وعندما اتى اليه رجال عبد الناصر ليأخذوا توقيعه على بلاغين كان يظن انه يوقع على اشياء كان قد اتفق عليها مع خالد محي الدين في الامسية التي كان قد قدم استقالته فيها ، عندما اتى اليه هذا الاخير كوسيط بينه وبين مجلس الثورة • وهنا نستعير العبارة التالية من الكتاب المباحثي « لتوم ليتل » ، صفحة ٣١١ :

« وكان البلاغ الاول الذي وقعه لابلاغ الشعب بأن مجلس قيادة الثورة هو الجهاز الطبيعي للحكم ، اما البلاغ الثاني فكان لابلاغ الشعب بانه وافق على استئناف القيام بمهام رئاسة الجمهورية • ولم يعلم (اي لم يعلم محمد نجيب) الا بعد ان اذيع بلاغ مجلس قيادة الثورة مع رسالتيه من راديو القاهرة في صباح ٢٨ شباط ، بان منصب رئاسة الوزارة الذي تخلى عنه لخالد محي الدين قد عهد الى جمال عبد الناصر » •

لقد كان خالد محي الدين موقوفا مع رفاقه من سلاح الفرسان منذ اواخر ليلة ٢٤ شباط • والغريب ان صفاقة المباحث الناصرية تصل الى درجة التفاخر بالتزوير والغدر بنشرها العبارة الآنفة الذكر ، وذلك لمجرد اظهار « غفلة » محمد نجيب و « مكر » سيدها جمال عبد الناصر ، الا ان الثعالب تتصف ايضا بالمكر ، لكنها لا تخرج عن دائرة الوحوش الضارية •

كانت عودة نجيب الى رئاسة الجمهورية مؤقتة • ففي ٩ اذار افتعل عبد الناصر أزمة فقدم استقالته من رئاسة الوزراء ، وجر في ذات

الوقت مجلس الثورة الى اتخاذ قرار بحل نفسه تمهيدا « لعودة الحياة الديموقراطية » !••• وكان قد هيأ في ذات الوقت حركة معاكسة في الجيش تعارض هذا القرار ، الذي القى مسؤوليته على محمد نجيب • وقدم الجيش الذي كان عبد الناصر قد فرغ من السيطرة عليه سيطرة تامة عندئذ ، انذارا باعادة هذا الاخير الى رئاسة الوزراء ، والى الغاء قرار حل مجلس الثورة ، وعدم عودة الحياة الديموقراطية • وكان هـــذا الانذار نهاية الحياة السياسية لمحمد نجيب :

« ••• اصبح اسيرا لا يستطيع ان يحكم ولا يستطيع ان يستقيل ••• »

وذلك بحسب تعبير « توم ليتل » الكاتب الذي استعارته المباحث ، في كتابه الآنف الذكر ، صفحة ٣١٦ • وبقي محمد نجيب جثة لرئيس الجمهورية الى ان دبرت المباحث مهزلة محاولة اغتيال عبد الناصر من قبل معتوه نسب الى الاخوان المسلمين ، فكانت فرصة للتنكيل بهـذه الجماعة بسجن الالوف منها وباعدام زعمائها ، ولدس اسم محمد نجيب في المؤامرة المزعومة وطرده نهائيا من القصر الجمهوري وسجنه في بيته :

« ••• وتبعا لذلك فقد اخذه (اي اخذ محمد نجيب) اللواء عبد الحكيم عامر وقائـد الاسراب حسن ابراهيم من مقر رئاسة الجمهورية في سيارة الى دارة (فيلا) في المرج خارج القاهرة حيث وضع بالاقامة الاجبارية وحيث لم يعد هناك في مجلس قيادة الثورة اعضاء منشقون يؤيدونه وحيث لم يعد هناك في سلاح الفرسان ضباط مستعدون للقتال من اجله وحيث لا اخوان ولا وفديين ولاشيوعيين يحرضون الجماهيرلنصرته •

وهكذا فان احتجازه في بيتـه لم يسبب ادنى اضطراب او اخـلال بالامن والنظـام في مصر •• »

(صفحة ٣٤٠)

عبارة عفوية رائعة تكتبها المباحث على لسان « توم ليتل » ، وهي تصف ببلاغة معجزة الطريق الذي قطعه عبد الناصر في تشتيت كـل الذين ساهموا في الثورة (من غير زمرته الانتهازية) وفي محوهم من الوجود ، من حيث تريد التنديد بهم • نعم لم يبق احد ، وسكنت مصر سكون الاموات واستتب فيها نظام المقابر عندما وصل جمال عبد الناصر الى الاستقلال بالحكم :

« ••• استطاع عبـد الناصر في نهاية ١٩٥٤ ان ينظر بعين الرضى الى العالم الصغير الذي سيطر عليه ، ففي مصر وجـد الجيش يؤيده بحزم ووجد اعداءه قد تفرقوا شذر مذر اذ مات بعضهم وحل بعضهم في السجون ، والاهم من ذلك وجد اشد المنظمات خطرا عليه وقـد اصبحت حطاما ••• »

(صفحة ٣٤٢)

عبارة اخرى لتوم ليتل ايضا ••• الا نجد فيها رائحة القرون التي كان يسود فيها حكم الهمج ، عنـدما كان ينظر الملك المتوحش « بعين الرضى » الى موت اعدائه وسجنهم ؟ والاعداء هنا ليسوا اعـداء الشعب ، وانما هم مخالفون للرئيس في آرائه ، او هم في غالب الاحيان اعداء لاعداء الشعب •••

الناصرية مرض الثورة العربية الحديثة

الصلات القديمة والوثيقة مع الاستعمار الاميركي

ان الشعب المصري كبقية الشعوب العربية يكره الاستعمار والمستعمرين كرها شديدا بسبب ما أصابه منه من المصائب الكبيرة :

نهب الاستعمار ثروات الشعوب العربية وسلب حريتها حقبة طويلة من الزمن ، وسبب تأخرها عن الركب العالمي فجعلها تتخبط في دياجير الجهل والفوضى ، وسلب قطعة غالية من وطنها وسلمها الى الصهاينة ، وشتت شملها الخ ... وهو ما يزال حتى الآن يمارس نهبه ودسائسه في البلاد العربية ، وسيستمر على هذه السياسة ما دام له وجود على سطح الارض . لذلك لم تكن الثورة المصرية موجهة فقط ضد الاوضاع الداخلية الفاسدة ، وانما كانت موجهة ايضا ضد الاستعمار . بل ان النضال ضد الاستعمار هو نقطة البدء في النضال ضد كل وضع فاسد في بلد متأخر . وان كره الناس لبعض الساسة يشتد دوما باشتداد ارتباط هؤلاء بالمستعمرين . واننا لا ننسى ان المصلحة الوطنية تضم دوما الغالبية العظمى من مختلف الاتجاهات الاجتماعية ، لذلك كان كره الاستعمار والرغبة في مقاومته متأصلين في الغالبية الساحقة من الشعب .

ان عبد الناصر الذي صمم منذ وقت طويل على مساومة الاستعمار ادرك ان مساوماته لا يكتب لها النجاح في جو ديموقراطي يعبر فيه الناس بحرية عن آرائهم . بل ان من المؤكد ان وجوده كحاكم لمصر يزول عندما يتجرأ ويطرح علنا هذه المساومات ، فلا بد له من الحيلة والدجل ولا بد له من ديكتاتورية تدعم وتغطي حيله ودجله ، ليستمر في التآمر

مع المستعمرين على مصلحة التقدم في وطنه . وقد اعلن منذ وقت طويل ، وكرر اعلانه بمناسبات عديدة ، ان الديموقراطية تفتح الباب لتنتمي كل فئة من فئات الناس الى جهة اجنبية تخدمها . فالناس برأيه ، خونة ولا شرف لهم ، او انهم على الاقل ، جهلة لا يدركون ارتباط مصلحة الوطن بمصالحهم (ارتباطا مباشرا) ولا يدركون ما جلبه ويجلبه لهم الاستعمار من مصائب وكوارث . الا ان هذا احتيال ودجل يريد بهما عبد الناصر فرض وصايته على الناس وبالتالي فرض ديكتاتوريته ليخلو له الجو مع الاستعمار في سياسته الخارجية وليقوم بمشاريعه السوداء في سياسته الداخلية .

سبق وقلنا ان الزمرة الناصرية كانت على اتصال وثيق بالمستعمرين الاميركان منذ ما قبل الثورة . وهنا نستعير عبارات من كتاب « مصر تتحرك » لمؤلفيه جان وسيمون لاكوتور ، لوصف المدى البعيد لتدخل السفارة الاميركية في شؤون مصر . ويجب ان ننتبه الى ان المؤلفين لا يفرقان بين الزمرة الناصرية وبين الضباط الاحرار ، في الوقت الذي لا تشكل فيه هذه الزمرة الا جزءا صغيرا من جماعة الضباط الاحرار الذين قاموا بالثورة ، وقد مر معنا هذا . يقول الكاتبان :

« هنالك سبب واضح لهذا (لاعتقاد الناس في مصر بالتدخل الدائم للسفارة الاميركية) . ففي السنتين الاولين من هذا النظام ، عندما لم تكن له شعبية في الكتل السياسية ، من حادث كفر الدوار (آب ١٩٥٢ ، عندما نفذ حكم الاعدام بالعاملين خميس والبكري) حتى رحلة باندونغ (نيسان ١٩٥٥) كان الرأي العام مقتنعا بان

هنالك صلات وثيقة بين الديكتاتورية العسكرية وبين السفارة الاميركية . ولم يكن في هذا خطأ كبير . ويعود هذا الى الدقائق الاولى من الثورة . فالملحق البحري المساعد في السفارة الاميركية ، ديفيد ايفانز ، كان اول شخص اجنبي يحتمل ان يكون قد عرف باستيلاء الضباط على الحكم ، وهنالك من المراقبين الموثوقين من يؤكد بأن مصلحة الاستخبارات الاميركية علمت بتوقيت الثورة بيومين او ثلاثة قبل وقوعها من احد الضباط المصريين الذين اشتركوا في الانقلاب (من علي صبري على حسب اقوال عامر) . وقامت بعدئذ ارتباطات صداقة متينة بين سياسيين اميركان ، مثل المستر لاكلاند ، وبين الضباط الشباب (زمرة ناصر) : كانت لقاءات دائمة وكانت مناقشات تدور حول مشاريع المستقبل . وكان المستر جيفرسون كافرى ، بقامته المحنية قليلا وعينيه الرماديتين ، يبارك بحرارة هذه العلاقات الصالحة ويتنازل لقضاء الساعات في التحدث الى البكباشي جمال عبد الناصر : « ان هذا الولد Boy على غاية من الجدية والموهبة ... » وكان هذا في الوقت الذي كان طلاب جامعة القاهرة يلقبون جمال بلقب « الكولونيل جيمي » (اي الكولونيل الاميركي).

(صفحة ٢٠١ من الطبعة الفرنسية)

وجاءت الموافقة من فوق (الموافقة على تصرف الاميركان في القاهرة) . ففي ٣ ايلول ١٩٥٢ ، بعد ستة اسابيع من الانقلاب ، وعد

دين اتشيسون ، وزير خارجية اميركا ، وعدا اكيدا « بالصداقة الفعالة الاميركية » لمصر الجديدة • فوقعت عندئذ الاتفاقات من كل نوع : اقتصادية في نطاق النقطة الرابعة ، ثقافية تحت تأثير مؤسسة فولبرايت ، ومساعدات فنية • وهبط القاهرة الخبراء الاميركان من كل جنس وأس ، خبراء استصلاح الصحاري ، خبراء مكافحة الذباب ، خبراء علف المواشي ، خبراء تدريب الملاكات العمالية • ورفعت واشنطن مبلغ المساعدة لمصر من ٦ ملايين الى ٤٠ مليون دولار •••

ومنذ خريف ١٩٥٢ ارسل الصاغ علي صبري الى واشنطن ليفتتح محادثات شراء اسلحة طيران • وقد عاد هذا الرسول مسحورا (باميركا) ، الا انه كان فارغ اليدين ••• »

(صفحة ٢٠٢ من الطبعة الفرنسية)

عملاء الاستعمار الحديث

سبق وقلنا ان الاستعمار الحديث ينتظم في جملة استعمار عالمية تضم جميع دول الاستعمار بزعامة الولايات الاميركية • وبينا ايضا ان هذه الجملة تستند الى اساس مادي يتلخص في ان الولايات المتحدة ، التي تستثمر رؤوس اموال طائلة في شتى انحاء العالم الرأسمالي المتقدم والمتخلف ، فتتفوق على كل الدول الاستعمارية الاخرى مجتمعة في هذا المضمار ، تتزعم اقتصاديا تلك الدول وتوجهها في هدف واحد ضخم هو :

الابقاء على التخلف في البلاد المتخلفة بضرب كل حركة وطنية فيها

تستهدف التقدم ، او على الاقل عرقلة التقدم في هذه البلاد في غاية توفير الاستمرار في نهب ثرواتها ، ان لم نقل تشديد هذا النهب .

ان اميركا ليست وحدها في تصدير رؤوس الاموال الى البلاد الصناعية المتقدمة صناعيا ، بل أن كل البلاد المتقدمة تصدر رؤوس اموالها ، من بعضها الى البعض الآخر ، وتتشارك في احتكارات وكونسورسيومات عالمية : تتشارك رؤوس الاموال البلجيكية والالمانية الغربية والافرنسية مثلا في استثمار الحديد والفحم في الالزاس واللورين والسار وبلجيكا ، كما تتشارك رؤوس الاموال البريطانية والبلجيكية في استثمار الثروات الاسطورية من الاورانيوم والنحاس في كتنغا ، وهنالك أمثلة كهذه بالعشرات .

وليست هذه الظاهرة جديدة ، بل ان الاحتكارات والكونسورسيومات الدولية والعالمية معروفة منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية : كونسورسيوم البترول العالمي مثلا . الا ان تصدير رؤوس الاموال بين الدول الاستعمارية وتعدد الاحتكارت الدولية اشتدا بما لا يقاس في فترة أنهيار الاستعمار القديم وامام زحف الشعوب المتخلفة نحو انتزاع حقوقها في الاستقلال والتقدم ، وما زالا باشتداد مع مضي الايام وحلول الاستعمار الحديث مكان القديم . لقد قلنا ان في مثل هذا العصر لا تتمكن دولة استعمارية واحدة من الوقوف في وجه نضال الشعوب ولا بد للمستعمرين من ان يتكتلوا . والتكتل السياسي في جملة استعمار عالمية غير ممكن (واذا حدث فانه لا يعيش طويلا) اذا لم يرافقه تكتل اقتصادي . والمثال الصارخ على هذا هو تكتل دول الاستعمار في اوربا تكتلا اقتصاديا

في السوق الاوربية المشتركة ، بتشجيع اميركا ومشاركتها ، وفي غاية نهب ثروات الشعوب المتخلفة .

ان هنالك اسبابا فنية لذلك التكتل الاقتصادي لدول الاستعمار . فتوسع الانتاج ، نتيجة التقدم العلمي الهائل في سنوات ما بعد الحرب ، يتطلب اجهزة اقتصادية وسياسية بالغة الضخامة تعجز عنها الدول المتقدمة من الدرجة الثانية بعد اميركا ، في العالم الرأسمالي ، لذلك تجد هذه الدول نفسها مضطرة الى التشارك فنيا لاقامة مثل هذه الاجهزة ، وان لم تتوقف عن التنافس فيما بينها ضمن الاجهزة الآنفة الذكر للوصول الى اكبر نصيب من الغنائم ، وفي هذه الحالة يتطلب الانتاج كميات من المواد الاولية لا تقارن بما كان يتطلبه انتاج ما قبل الحرب ، كما يتطلب اعدادا من اليد العاملة لاستخراج تلك الكميات الهائلة من المواد الاولية تعجز شعوب البلاد المتقدمة الانفة الذكر عن توفيرها . وقد قلنا ان البلاد المتخلفة تشكل مستودعا هائلا للمواد الاولية ولليد العاملة الرخيصة . الامرالذي يوضح لنا بجلاء تام الاسباب المادية لشراسة الاستعمار الحديث ووحشيته في هجومه الاقتصادي على الشعوب المتخلفة لينتزع منها ثرواتها وقيمها التي تصنعها ، ويوضح لنا ايضا حاجة هذا الاستعمار الى تكتيك جديد في هجومه الانف الذكر .

وهنا يجـــدر بنا ان ننتبه جيدا الى التمييز بين دعامات الاستعمار الحديث في البلاد المتخلفة وبين الدعامات البالية للاستعمار القديم في تلك البلاد ، الدعامات التي عرفناها جيدا . فمدرسة نوري السعيد مثلا تختلف عن الناصرية كاختلاف الاستعمار البريطاني لما قبل الحرب العالمية الثانية

عن جملة الاستعمار الحديث الذي تتزعمه اميركا وتدخل فيه بريطانيا عضوا من الدرجة الثانية • وان تجاهل هذا الفرق يوقعنا في اخطاء فادحة عند تمحيص الظواهر والحوادث السياسية ، كما انه يوفر اكبر مساعدة للانتهازية في دجلها وكذبها على شعوبنا • فالعمالة القديمة تستند الى حراب جيوش الاحتلال الاستعمارية في خدمتها للمستعمر • وهي تخدم اغراض استعمار اقتصادي قديم لا يقاس ابدا بجبروت الاستعمار الاقتصادي الحديث ، تخدم اقتصاد دولة استعمارية واحدة : انجلترة في العراق مثلا • بينما تستند العمالة الحديثة الى وضع اجتماعي في البلد المتخلف ، الوضع الذي ينشأ عن ارتباط اقتصادي مجحف بالبلد المذكور باقتصاد جملة الاستعمار الحديث ، باقتصاد مستعمر واحد من اعضاء هذه الجملة او باقتصاد عدد من المستعمرين من اعضائها لا فرق • والمستعمر يساهم في تكوين ذلك الوضع الاجتماعي وفي تحقيق ذلك الارتباط الاقتصادي المجحف بواسطة مختلف المؤثرات والوسائل : الضغط الاقتصادي ، والضغط السياسي ، والتهويل بالعدوان ، واثارة الفتن ، والتآمر والدس الخ •••

كانت العمالة القديمة تستند الى جهاز مفضوح من العملاء المنتفعين مباشرة « بمنح » المستعمرين ، بينما تستند العمالة الحديثة الى فئات كبيرة من الضالين والمضللين ، فهي لذلك بحاجة ماسة الى الدجل والشعارات الفارغة المضللة • وان شدة تعقد الاستعمار الحديث وقلة تجارب الناس معه توقعان الكثيرين في البلاد المتخلفة في شراك الدجل والدعايات الفارغة : ان عبد الناصر يستطيع بسهولة اكثر تبرير طلبه الذي قدمه

مؤخرا للانضمام الى السوق الاوربية المشتركة (على حسب ما وافتنا به اخبار الايام الاخيرة) ، السوق التي تغذي اسرائيل بالماركات والدولارات ، بينما لم يكن باستطاعة نوري السعيد اقناع اي عراقي « بنزاهة » لصوص البترول الانجليز ، مع ان النتيجة واحدة في الحالتين بالنسبة الى البلد المتخلف . ان القيم والثروات في الحالتين تتسرب من الشعبين ، المصري والعراقي ، الى المستعمرين ، الى الانجليز في حالة العراق والى المستعمرين اعضاء السوق الاوربية المشتركة في حالة مصر . نقول ان عبد الناصر يستطيع بسهولة اكثر تبرير ذلك الطلب لانه لايوجد في مصر في هذه الايام جيش احتلال اجنبي (كما كان موجودا ايام نوري السعيد) ، الجيش الذي يفضح لصوصية المستعمرين لابسط الناس بمجرد رؤيته في بلاد هؤلاء ، ولانه يصعب على الكثيرين من الناس ادراك خطورة هذه الخطوة في جو الارهاب والكبت الفاشستي الذي يمنع كتابة او قول اي شيء يوضح للشعب حقيقة هذا الامر ، بينما تعمل اجهزة جهنمية للدعاية في حشو اذهان الناس بدجل الحكام الديكتاتوريين .

يواجه الاستعمار الحديث في البلاد المتخلفة كيانات سياسية مستقلة قانونيا ويواجه شعوبا تكره الاستعمار وتناضل ضده ويواجه جيوشا وطنية ، في الوقت الذي لا يملك فيه جيش احتلال لكل بلد . فهو لذلك بحاجة الى نظريات وحجج تختلف عن حجج الاستعمار القديم البسيطة ، الحجج التي كانت تستند الى الحراب في « الاقناع » . ان نظريات وحجج الاستعمار الحديث يجب ان تغذي انواعا كثيرة من الدجل ، انواعا تتناسب

مع كل حالة وظرف • وغاية كل هذه الانواع تأخير تبلور المقاومة في البلد المتأخر ، وبالتالي السماح لاصدقاء هذا الاستعمار بالبقاء في الحكم عندما يكونون فيه ، او بالاستيلاء عليه عندما يكونون خارجه • فعميل الاستعمار الحديث يجب ان يتمتع بمقدرة كبيرة على خداع الجماهير ، وليس مثل الدجالين الذين يخرجون من بين الانتهازيين للقيام بهذه المهمة في بلد متأخر شاخت فيه الرجعية ، الا انه ما زال يتلمس طريقه الصحيح • فالانتهازي بشعاراته الزائفة يخدع ، في مثل هذه الحالة ، عددا كبيرا من الناس ، وهو عندما يسير في خدمة الاستعمار يؤدي الى هذا الاخير خدمات كبيرة بدجله • وبالمقابل ، فان الاستعمار الحديث لا يتصرف مع هذا العميل ، كما كان يتصرف الاستعمار البريطاني مثلا مع نوري السعيد واعضاء مدرسته ، بل يحفظ له (على قدر المستطاع) الشكل : ان روكفلر مثلا لا يهتم الا بنهب بترول الشرق الاوسط ولا يضيره « عنتر » مزيف يلقي من على الشرفات قصصا بانتصارات وهمية • بل ان الاستعمار الحديث يساهم في اضفاء البطولة الزائفة على بعض عملائه عندما يكون له من وراء هذا الفعل منفعة : لقد ساهم الاستعمار الاميركي بنسج « بطولة » عبد الناصر عندما احتاج الى هذه « البطولة » لخنق تحرر سورية عام ١٩٥٧ ، التحرر الذي كان يهدد نهبه بالزوال من منطقة الشرق الاوسط • الا ان كذب الانتهازي لا بد وان يفتضح في النهاية ، فنجد الاستعمار الحديث عندئذ يفتش عن انتهازي آخر يستبدل به الاول ، وهكذا دواليك ، تماما كما

حدث ويحدث في اميركا اللاتينية مثلا . اي ان الاستعمار الحديث يستهلك عملاءه ، بينما كان الاستعمار القديم لا يهتم كثيرا بسمعة عملائه ، فيستخدمهم حتى موتهم ، لان حراستهم موفرة بجيوش الاحتلال .

الاستعمار يستخدم ركائز جديدة في المنطقة العربية

خرجت الشعوب العربية من الحرب العالمية الثانية ، كبقية الشعوب المتخلفة ، لتناضل ضد الاستعمار القديم ، المتجسد في احتلال بلاد الغير عسكريا . اي ان الثورات العربية في مختلف اقطار العرب كانت ، بطبيعة الحال ، موجهة ضد الاحتلال العسكري . وقد مر معنا ان الاستعمار الحديث برز وتبلور في تلك المناسبة ، مناسبة الاجهاز على الاستعمار القديم المنهار ، لا « لينقذ » فقط امكانيات النهب الاستعماري ، بل ليشددها بطرق تتلاءم مع ظروف العصر . وقد تكلمنا فيما سبق عن الجهاز العالمي للنهب الاستعماري ، عن جملة الاستعمار الحديث ، وقلنا ان من اسباب اقامته حتمية بلوغ البلاد المتخلفة استقلالها السياسي ، اي حتمية انسحاب الجيوش الاستعمارية من البلاد المتخلفة ، الجيوش التي كانت تحمي النهب الاستعماري بالحراب . وقد اشرنا الى ان الرجعية والانتهازية هما حليفتان للاستعمار ، فيسعى لذلك هذا الاستعمار الى تسليم الحكم الى احديهما في البلد المتخلف الذي يطمع في ثرواته . الا ان الرجعية ، وان بقيت حتى الآن تقوم بدور فعال في خدمة الاستعمار ، القديم منه والحديث ، شاخت وتفسخت مع تفسخ الاستعمار القديم وشيخوخته في اغلب البلاد العربية ، البلاد التي نالت قسطا لا يستهان به من التقدم . يضاف الى هذا ان ثورات الشعوب العربية لم تقف عند

حدود اخراج جيوش المستعمر من بلادها ، بل تجاوزت هذا الى النضال للتخلص من الاقطاعية وكل انواع التأخر . وقد ظهر عندئذ ان الاقطاعية المتفسخة غدت في اكثر البلاد العربية اعجز من ان تقف ضد المد الثوري العربي الهائل ، المد الذي كان يهدد الاستعمار بالزوال من بلاد العرب . اضف الى هذا ان الرجعية العربية تناصر على الاغلب استعمارا قديما يتناقض مع الاستعمار الحديث ، تناصر مثلا الاستعمار الانجليزي ضد الاستعمار الاميركي زعيم جملة الاستعمار الحديث .

ان الانتهازية نزعة فردية تتفاقم لدى عدد من الافراد في كل طبقة من طبقات المجتمع ، وخاصة منها الطبقات التقدمية في البلد المتخلف : طبقات العمال والفلاحين والرأسمالية الوطنية والمهن الحرة الخ ... اي ان الانتهازية ، على الاغلب ، تبدو بمحيطها التقدمي كأنها نزعة تقدمية ، في الوقت الذي لاتعيش فيه الا على حساب التناقضات والانقسامات في المحيط التقدمي ، والا على حساب الجهل وسوء التقدير لدى كتل لا يستهان بها من افراد هذا المحيط . فهي لذلك بامس الحاجة الى الدجل والكذب والخداع والشعارات الزائفة للتخفي بثوب الثورية والتقدم و « لصيانة » حالة الجهل وسوء التقدير لدى اوسع ما يمكن من الكتل الشعبية ، الحالة التي تمدها بالحياة والبقاء ، انها مرض الثورات والنضال ضد الاستعمار والتخلف ، تنشأ في محيط النضال وتحمل في البدء شعارات هذا المحيط لتفرغ هذه الشعارات من محتواها الثوري ولتحرف الثورات والنضال ارضاء لمصالحها الانانية او ارضاء لمصالح المستعمر .

وقد نشأت الانتهازية العربية في ظروف النضال ضد الاستعمار القديم ، ضد الاستعمارين البريطاني والفرنسي . فعندما تعاظمت الحركات الثورية العربية بعد كارثة فلسطين بدا للاستعمار الحديث ان الاعتماد على الرجعية وحدها في بلادنا سيؤدي الى زوال هذه الرجعية وزواله معها . فلا بد له من ان يضرب المد الثوري العربي من داخله ، ما دام ليس بامكانه استعمال جيوشه مباشرة ضد هذا المد ، وما دامت الرجعية العربية اعجز من ان توقف تصاعده . وقد وجد الناصرية (في اغنى واكبر قطر عربي) بدجلها وشعاراتها الزائفة افضل وسيلة يضرب بها الثورة العربية .

ان الناصرية تحمل من شعارات النضال شعارات مكافحةالاستعمار القديم وتسكت عن الاستعمار الحديث ، وخاصة منه الاميركي . انها تسكت عن النهب الاستعماري الاقتصادي لثروات العرب ، بل انها تساعد على تشديد هذا النهب بقبولها المساعدات والقروض الاستعمارية التي « تبني » لها اشتراكيتها المزعومة . وهي تتظاهر بالعداء لاسرائيل في الوقت الذي تخنع لاسياد اسرائيل الاميركان ، فهي قد فتحت خليج العقبة امام التجارة الاسرائيلية ، وما انفكت تحاول تصفية قضية اللاجئين وتحاول تغذية الصهاينة بالمياه العربية . وهي تحاول اجهاض كل ثورة عربية لصالح الاستعمار الاميركي ، وتضرب العناصر الوطنية وتشق الحركة الثورية العربية بضرب الفئات الوطنية بعضها بالبعض الآخر في الجماهير العربية . وقد اصبح المد الثوري العربي ، الذي كان يجرف الاستعمار في اعوام ما قبل الوحدة ، فيكاد يقتلعه من جذوره في بلادنا ، حطاما مبعثرا لا يقوى الآن على وقف تغلغل الاستعمار الاميركي الذي

يكاد (مع اتباعه الالمان الغربيين وغيرهم) ان يأتي على كل شيء في منطقتنا ، « بفضل » الناصرية •

ان الناصرية لا تكافح من الرجعية العربية الا التي تقف في طريقها عند انطلاقها لخدمة اغراض الاستعمار الحديث ، وهي تحاول ان تضم ما بقي من فئات الرجعيين الى صفوفها ، بل هي تحاول « استصلاح » تلك الفئات التي تخدم الاستعمار القديم لمصلحة الاستعمار الحديث • وكل هذا تحت شعارات « تناسي الماضي » و « ازالة الفوارق الطبقية » الخ••• وهي تحمل شعارات الديموقراطية لتطعن الديموقراطية فتقتل وتسجن الناس بالالوف ، بل تذيبهم بالاسيد ، وتكمم الافواه وتقطع الارزاق ، باسم ديموقراطية عجيبة تصل الى تأليه اشد الناس عداوة للحرية ، الى تأليه جمال عبد الناصر •

بانتظار الجلاء لاطلاق الناصرية على مواقع الانجليز في المنطقة وجود الانجليز في القناة يضايق الاميركان

ان وجود القوات البريطانية في قناة السويس كان يمنع تطبيق الخطة الاميركية في اطلاق الناصرية لخدمة مصالح الاستعمار الاميركي في المنطقة العربية • وهذا مفهوم جيدا ، لان الناصرية لن تستطيع خدمة اميركا دون ان تصطدم بالاستعمار البريطاني الذي كان وما يزال يملأ العالم العربي بقواعده ومؤسساته • وعندئذ ، اي عند اصطدام الناصرية بالاستعمار البريطاني ، في طريقها لخدمة اميركا ، تكون القاعدة الانجليزية في السويس خطرا يهددها في عقر دارها ، الامر الذي كانت الناصرية تتحاشاه وكان الا ستعمار الاميركي يتحاشاه معها •

واذا كانت خطب عبد الناصر ، قبل اتفاقية الجلاء عن قناة السويس ، تتضمن حملات شديدة على الاستعمار البريطاني ، واذا كانت حرب الفدائيين تزعج القيادة البريطانية في السويس ، فان هذا ما كان ليدخل طور الجدية من المخطط الاميركي - الناصري لاقتلاع الانجليز من جذورهم والقائهم بعيدا خارج منطقتنا ، بعد تسليم المنطقة للاستعمار الاميركي .

لقد كان على البريطانيين ان يتركوا مصر في عام ١٩٥٦ ، دون الحاجة الى اية مفاوضات ، وذلك بموجب معاهدة ١٩٣٦ التي تنص على الجلاء التام للجيوش البريطانية عن ارض مصر عند انتهاء مدتها البالغة عشرين عاما . فما على الناصرية حينذاك الا انتظار تلك المدة ، بين عام ١٩٥٤ وعام ١٩٥٦ ، لتتمكن من القيام بدورها الموضوع لها في المخطط الاميركي بعد ترك الانجليز لمصر . اضف الى هذا ان المهلة الآنفة الذكر كانت ضرورية لتوطيد الناصرية في مصر بمسح ما تبقى من أعدائها وباخماد انفاس الشعب المصري . لذلك نجد بريطانيا ، التي شعرت بما يبيته لها « اصدقاؤها » الاميركان ، تسعى من جانبها السعي الحثيث لابرام اتفاقية مع مصر تضمن بها لنفسها منافع لم تحققها لها معاهدة ١٩٣٦ ، قبل حلول نهاية هذه المعاهدة .

الاستعمار البريطاني يسعى الى تأييد بقائه في مصر

كانت بريطانيا تقدم الى الحكومة المصرية الناصرية المشروع تلو المشروع ، وكل هذه المشاريع كانت تصر على نقطة واحدة : الاحتفاظ

للاستعمار البريطاني بموطىء قدم دائم في قناة السويس مع ضم مصر الى حلف عسكري •

يقول ايدن في الجزء الاول من مذكراته ، صفحة ٣٥٣ ، ما يلي :

« وخصصت جزءا كبيرا من وقتي في مطلع عام ١٩٥٣ ، لاوضح باجلى عبارة متطلباتنا من مصر ، في العرض الذي نقترح تقديمه الى الحكومة المصرية ، وفي الدور الذي نأمل من الولايات المتحدة القيام به • وبعد سلسلة من المحادثات مع زملائي ، توصلت الى النقاط التي اعتقدت تضمينها في تسوية عامة وهذه هي :

١ ــ انسحاب القوات البريطانية عن مصر على مراحل •

٢ ــ الاحتفاظ بقاعدة عسكرية في منطقة القناة •••

٣ ــ اقامة تنظيم مصري انجليزي للدفاع الجوي عن مصر •

٤ ــ اشتراك مصر في منظمة دفاعية عن الشرق الاوسط •

٥ ــ اعداد برنامج للمساعدة العسكرية والاقتصادية لمصر تشترك فيه انجلترة والولايات المتحدة •

وقد اعتبرت جميع هذه الاقتراحات مترابطة وكلا واحدا ••• »

ان هذه الدولة الاستعمارية لا تقدم في الواقع ، ولا يمكن ان تقدم ، شروطا مقبولة للجلاء ما دامت تسعى الى تأبيد سيطرتها على

مصر في تلك الايام . وان كل حديث معها كان يجب ان لا يتعدى طلب الجلاء بدون قيد او شرط ، لان كل شرط اضافي لا يمكن ان يكون الا في مصلحتها ، سيما وان معاهدة ١٩٣٦ نصت على وجوب خروج الجيوش البريطانية في عام ١٩٥٦ ، وليس لها الحق بعد ذلك بابقاء اي اثر لها هناك . يقول ايدن في صفحة ٣٧٢ من الجزء الاول من مذكراته :

« ومع ذلك فان معاهدة ١٩٣٦ لم تعط لنا حقا في قاعدة في مصر ، ولا في الاحتفاظ بالقوات الكبيرة التي حافظنا عليها فيها . وما كان لنا بموجب هذه المعاهدة ان نحتفظ بجندي واحد في منطقة القناة في خريف عام ١٩٥٦ ، لان المعاهدة تكون آنذاك قد انتهت واصبحت في سجل التاريخ » .

وقد سعت بريطانيا زمنا طويلا ، وبكل ما لديها من جهد لتجر الولايات المتحدة الى مساعدتها على الحصول على اتفاقية مع مصر ، وكانت تلوح دوما بخطر موجة التحرر التي تجتاح المنطقة وبخطر انتهاء الاستعمار فيها :

« ... وقام رئيس الوزراء تشرشل ، بزيارة الولايات المتحدة في شهر كانون الثاني ، واجتمع بالرئيس المنتخب ايزنهور ، فأكد عليه في المحادثات التي جرت بينهما ، ماتعلقه بريطانيا من اهمية على عطف الولايات المتحدة وتأييدها الكاملين ، اثناء مفاوضاتها مع مصر ، واوضح انه لا يطلب من اميركا عونا عسكريا في الوقت الحاضر ، اذ

ان لبريطانيا فيها قوات كافية ...»

(مذكرات ايدن ، الجزء الاول ، صفحة ٣٥٤)

وكانت اميركا تتهرب من مساعدة بريطانيا على البقاء في القطر المصري ، بل انها كانت ، في كثير من المناسبات ، تحثها على « التساهل » مع مصر وتشجعها على الاسراع بالجلاء عن القناة (انظر الفصل العاشر من الجزء الاول من مذكرات ايدن) .

اميركا تغير تكتيكها بسبب تحرر سورية من حكم الشيشكلي

تغير الوضع كليا في المنطقة عندما انهار حكم اديب الشيشكلي ، الحكم الذي كان خانعا للاستعمار الاميركي ، وذلك في مطلع عام ١٩٥٤ . وحينذاك ظهر ان النفوذ البريطاني بدأ يتسلل الى سورية ، فاشتدت روائح المشاريع البريطانية كمشروع الهلال الخصيب وغيره . وسافر تشرشل رئيس الوزراء البريطاني ، بعد ذلك بقليل ، الى واشنطن ليستأنف ما انقطع من مناقشات حول الشرق الاوسط .

يقول ايدن في الجزء الاول من مذكراته ، صفحة ٣٧٠ ما يلي :

« وتهيأت الفرصة بعد قليل بعقد اجتماع انجليزي اميركي . فقد سافرت مع رئيس الوزراء تشرشل في نهاية حزيران ١٩٥٤ ، بزيارة لواشنطن ، حيث احتلت المفاوضات المصرية مكان الصدارة في محادثاتنا ، ووافق الاميركان على استخدام معونتهم الاقتصادية كباعث على اقناع المصريين بعقد اتفاقية على اسس مقبولة ، والمحافظة عليها . وتقرر ان يكون هذا مفهوما لدى جميع من يعنيهم الامر ،

على ان لا يعلن بصراحة (ابقاء على سمعة عبد الناصر وعدم « شرشحته ») ، وتعهدت حكومة الولايات المتحدة ايضا في هذا الاجتماع بأن تؤيد علنا مبدأ حرية المرور عبر قناة السويس (اي مبدأ مرور السفن الاسرائيلية عبر القناة) ، وهو ما كان من المتوقع ان نؤكده نحن والمصريون في اتفاقيتنا » .

كان طرد اديب الشيشكلي نكبة كبيرة للاستعمار الاميركي في الشرق الاوسط . فبينما كان هذا الاستعمار يمني النفس باطلاق الناصرية (مع الانتهازية العربية التي تضم الدجالين من امثال اديب الشيشكلي وفصائل الفاشست ادعياء القومية العربية والاشتراكية الفارغةالخ ...) تحت الشعارات الكاذبة ، علىمواقع غريمه البريطاني في المنطقة ليطرده منها ويحل مكانه فيها ، وذلك بعد ان تبلغ الناصرية اشدها بالتخلص من كل عوائقها الداخلية ، ومن جملتها الاحتلال البريطاني ، اذا به يستفيق على انهيار قاعدة اساسية في خطته ، على انهيار حكم أديب الشيشكلي . لقد اصبح الوضع بعد هذا الانهيار يحتمل في حسابات المستعمرين الاميركان احد امرين : ان يسير الشعب السوري في طريق التحرر فيخرب كل مشاريع المستعمرين : اميركان وانجليز ، في المنطقة العربية ، او ان تقع سورية فريسة دسائس الاستعمار البريطاني فتسقط في مشروع من مشاريعهم ، وهذا يعني ببساطة خروج الاميركان من المنطقة وبقاء الانجليز فيها ، الانجليز الذين كانوا ما يزالون حينذاك يحتلون قناة السويس .

وهنا يجب ان نتنبه الى ان هنالك تيارين يتجاذبان سياسة البلاد الاستعمارية القديمة في قضايا الاستعمار :

تيار الاستعماريين الذين استفاقوا على ظروف العصر فرأوا ضرورة التشبه باميركا في سياستها الاستعمارية ، وتيار الاستعماريين القدماء الذين لا تتسع مخيلتهم لوسيلة اخرى غير احتلال البلاد المتخلفة لنهب ثروات هذه البلاد .

وفي بريطانيا نجد التيارين السياسيين السابقين ، ففيها غلاة الاستعماريين من حزب المحافظين مع اصحاب المصالح « الصغيرة » في المستعمرات والبلاد المتخلفة (المصالح الصغيرة بالنسبة الى المصالح الاحتكارية الكبيرة ، كمصالح اصحاب المزارع والمشروعات الصغيرة والمتوسطة ومصالح الموظفين وغيرهم في البلاد المتخلفة) ومع بقايا دوائر واوساط المنظمات الاستعمارية القديمة الخ ... كل هؤلاء يشكلون التيار الاستعماري القديم . ونجد ايضا في حزب المحافظين تيارا قويا يناصر الاساليب الاستعمارية الحديثة ، وينضم الى هذا التيار الدجالون من زعماء حزب العمال الذين يخدمون المصالح الاحتكارية الاستعمارية تحت الشعارات المزيفة ، شعارات الاشتراكية الفارغة وغيرها . ان هذا التيار الحديث يهدف الى خدمة المشاريع الضخمة الاحتكارية الموجهة الى نهب الشعوب المتخلفة باسلوب يتلاءم مع ظرف الاستقلال السياسي لبلاد هذه الشعوب ، ويتلاءم مع اشتداد الحركات الوطنية وصعودها ، حتى ولو ادى الامر الى الاضرار « بالمصالح الصغيرة » للمستعمرين القدماء .

وعندما انهار حكم اديب الشيشكلي في سورية كان التياران السياسيان السابقان في بريطانيا يتفقان على وجوب اعادة النظر في السياسة الاستعمارية البريطانية في منطقة الشرق الاوسط :

كان تيار الاستعمار القديم يرى ان الوقت قد حان للتكلم مع الولايات المتحدة بحزم ، سيما وان مواقع هذه الاخيرة قد تزعزت بانهيار حكم عميلها الشيشكلي . وذلك بانهاء « مشكلة » الجلاء عن مصر في صالح الاستعمار البريطاني . اما تيار الاستعمار الحديث فكان يرى التشبه بالاميركان باتباع سياسة تنسجم مع الظرف الثوري لمنطقتنا ، لاجهاض حركاتنا الثورية . وكان هذا التيار يرى في سقوط الشيشكلي مناسبة للتفاهم مع الاميركان على مبدء يصلح لانطلاق السياسة الاستعمارية البريطانية في اتجاه حديث في منطقة الشرق الاوسط ، وعلى الاخص التفاهم مع الاميركان لانهاء « مشكلة » الجلاء عن مصر .

وتحت الظروف والمؤثرات الآنفة الذكر جرت المحادثات البريطانية الاميركية في واشنطن ، بين ايزنهور وتشرشل . وتبين فيما بعد ان الاميركان تمكنوا من اقناع الانجليز بالفصل بين قضية الجلاء عن مصر مع الاحتفاظ بقاعدة عسكرية فيها وبين ادخال مصر في منظمة « دفاعية » تشرف عليها بريطانيا . وقد سبق وقلنا ان الاستعمار البريطاني كان يصر على عدم الفصل بين هذين الامرين وعلى اعتبارهما « كلا لا يتجزأ » ، على حد تعبير ايدن في اقتراحه الذي ضمنه « متطلباته من مصر » عام **١٩٥٣** والذي سبق لنا ان رأيناه في هذا البحث . وفي المقابل وعدت الولايات المتحدة بمساعدة بريطانيا في « اقناع » مصر بشروط بريطانيا للجلاء عن قناة السويس ، وفي « اقناع » مصر في

الدخول في محادثات تهدف الى ترتيب حلف « دفاعي عـــن الشرق الاوسط » ، على ان لا يرتبط التوقيع على اتفاقية الجلاء بانجاز الحلف ، كما قلنا قبل هنيهة . ومن الواضح جدا ان الذي انتصر في هذا الاتفاق هو اتجاه الاستعمار الحديث في بريطانيا ، بفرض سياسة « مرنة » ، وقد انتصرت اميركا ايضا بفصل موضوع الجلاء والقاعدة البريطانية في السويس عن موضوع الحلف في منطقة الشرق الاوسط . ذلك لان توقيع مصر على اتفاقية تنص على الزام مصر بدخول حلف تنضم اليه بريطانيا مع عدد من دول الشرق الاوسط في ذات الوقت الذي تنص فيه على الجلاء واقامة قاعدة بريطانية في السويس يربط الجلاء بالحلف ويجعل مصر تابعة لبريطانيا في هذا الحلف . وهذا ما لا تريده اميركا ابدا في « تكتيكها الجديد » ، انها تريد ان تدخل مصر الناصرية في حلف استعماري وهي طليقة اليدين من جهة بريطانيا لتتمكن بشكل افضل من خدمة اغراض الاستعمار الاميركي في هذا الحلف ، وبالتالي في المنطقة العربية ، اما القاعدة البريطانية في السويس فهي مفيدة ايضا لاميركا « كشبح » يذكر المصريين بالخطر البريطاني الدائم ويقربهم اكثر من اميركا التي « تحميهم » من هذا الخطر : (كالمستجير من الرمضاء بالنار) . ومن الطبيعي ان يكون الشعب المصري في كل هذه المساومات هو الجهة الخاسرة على الدوام .

كان اجتماع تشرشل ايزنهور ، كما رأينا آنفا ، في نهاية حزيران عام ١٩٥٤ . وفي ١٢ تموز ، اي بعد مدة لا تتجاوز النصف شهر من قبول اميركا « مساعدة » بريطانيا في مصر ، قدمت هذه الاخيرة عرضا

الى عبد الناصر يتضمن مشروعا للجلاء عن القناة في غضون عشرين شهرا . وفي ٢٧ تموز ، اي بعد نصف شهر آخر ، قبل عبد الناصر العرض البريطاني الآنف الذكر . وتم التوقيع النهائي على اتفاقية الجلاء في ١٩ تشرين الاول من العام ذاته (١٩٥٤) .

ان التدخل الاميركي كان حاسما لكل تلك المحادثات الطويلة التي كانت لا تبدأ الا لتنقطع بين بريطانيا والحكومات المصرية المتعاقبة. وقد قبل عبد الناصر حينذاك شروط المستعمرين الانجلو ـ اميركان . فاتفاقية الجلاء تتضمن اعطاء قاعدة عسكرية في مصر للانجليز : تكون صيانة هذه القاعدة (التي هي قناة السويس) موفرة ، لمدة سبع سنوات من قبل متعهدين بريطانيين ، ويمكن ان تعود بريطانيا الى احتلالها في حالة وقوع هجوم مسلح على اية دولة عربية من دول الضمان الجماعي او على تركيا . والجلاء لا يتم الا في النصف الثاني من عام ١٩٥٦ ، مع انه كان مقررا ان يتم في تاريخ مماثل بموجب معاهدة ١٩٣٦ ، ولكن بدون تلك الشروط المجحفة ، بل بدون اي قيد او شرط :

« ومع ذلك فان معاهدة ١٩٣٦ لم تعط لنا حقا في قاعدة في مصر ، ولا في الاحتفاظ بالقوات الكبيرة التي حافظنا عليها فيها ، وما كان لنا بموجب هذه المعاهدة ان نحتفظ بجندي واحد في منطقة القناة في خريف عام ١٩٥٦ ، لان المعاهدة تكون آنذاك قد انتهت واصبحت في سجل التاريخ »

(قول ايدن الذي سبق واستشهدنا به)

واوفد عبد الناصر ، في تاريخ قبوله العرض الأنجلو ـ اميركي ، وفدا الى سرسنك في العراق ، لاجراء محادثات حول الحلف الذي اتفق ايزنهور وتشرشل على اقامته في منطقتنا اثناء اجتماعهما الآنف الذكر في واشنطن ، والذي انتهى في النتيجة الى حلف بغداد ، كما سنرى فيما يلي من البحث .

حلف بغداد

الاحلاف الاستعمارية في منطقتنا

يقول تشرشل : « لقد سبحنا الى النصر على بحر من البترول ، وكان يعني بترول الشرق الاوسط الذي مكنه من متابعة الحرب ضد الهتلرية ، والذي يشكل ٦٥٪ من احتياطي البترول في العالم .

ويقول ايدن في مذكراته ، الجزء الثاني ، صفحة ١٤٥ :

« ... وعندما ناقشنا وضع الشرق الاوسط في لندن قلت للروس (خروتشوف وبولغانين اللذين كانا في زيارة لانجلترة) ان استمرار تدفق البترول امر حيوي لاقتصادنا ... وقلت اننا ولا شك قد نكون متصلبين في موضوع البترول كل التصلب ، وعلى استعداد للقتال من اجله ... »

هذه المنطقة التي تسبح على بحار من البترول : منطقتنا ، كانت في عام ١٩٤٥ واقعة بأجمعها تقريبا تحت الاحتلال البريطاني : جنوب الجزيرة العربية ، مصر ، السودان ، ليبيا ، فلسطين ، العراق ، ايران الخليج العربي (حيث يوجد ٨٠٪ من بترول الشرق الاوسط) .

الا ان رياح التحرر كانت تعصف بشدة في جميع انحاء العالم ، وكانت شمس الاستعمار القديم تؤذن بالغروب • وكانت جيوش الاحتلال تستعد لمغادرة اراضي سورية ولبنان ، الامر الذي يفتح ثغرة خطيرة في اساس النظام الاستعماري في هذه المنطقة ، اضف الى هذا ان مدة معاهدتين بريطانيتين مع بلدين عربيين آخرين : مصر والعراق ، كانت مع مرور الايام تدنو من نهايتها • فكان على بريطانيا ان تجلو عن مصر في عام ١٩٥٦ ، وعن العراق في عام ١٩٥٧ ، اي ثغرتان اخريان خطيرتان • لذلك كان من البديهي ان يفعل الاستعمار البريطاني كل ما بوسعه للتشبث بموقعه في الامبراطورية البترولية العربية ، فيعمل الفكر في اختراع شتى الاساليب وابتداع مختلف الحيل لسد الثغرات التي تنفتح هنا وهناك •

ان الاحلاف الاستعمارية بالاضافة الى المشاريع الاستعمارية التي تهدف الى القضاء على استقلال سورية ولبنان (كمشروع سورية الكبرى ومشروع الهلال الخصيب ومشاريع الاتحاد المشبوهة) ، تهدف الى توطيد اركان جملة الاستعمار في المنطقة العربية ، الجملة التي قلنا انها تتألف من اسرائيل ومن القواعد العسكرية الاستعمارية ومن اساطيل اميركا وانجلتره وفرانسا ومن الرجعية والانتهازية العربية ، والتي قلنا ان الاستعمار الحديث عمل على اقامتها في بلادنا لتقف بدلا من الاستعمار القديم في وجه انطلاقنا مع قافلة التقدم الانساني • وكان من الطبيعي ان تكون بريطانيا من اشد المتحمسين للعمل على تثبيت اركان هذه الجملة ، علها بذلك تحصل على السبق بالنسبة الى المستعمرين الآخرين ، وعلها بذلك تعوض ما انهار وما

سينهار من بناء امبراطوريتها البترولية العربية • لذلك لم يكن من قبيل الصدفة ان نجد الانجليز وراء مشاريع الاتحادات المشبوهة وان نجدهم في طليعة الاستعماريين الذين يسعون دوما الى القائنا في شباك الاحلاف •

يعرف السوريون جيدا ، بتجربتهم ، كيف حاول الانجليز دوما ايقاعنا في مشاريع سورية الكبرى والهلال الخصيب وغيره • وهذا السعي من قبل الانجليز يهدف الى ابطال استقلالنا وتحررنا في سبيل حفظ مواقعهم الاستعمارية : كان تحرر سورية مثلا يساعد نضال العراق في سبيل التحرر ، وعلى العكس ، فان انضمام سورية المتحررة الى العراق المستعبد كان يوطد مواقع الاستعمار في هذين القطرين باطفاء شعلة التحرر في سورية (وهو تماما على عكس ما يرتسم في العقول المقعرة لبعض ادعياء التقدم ، عندما يدعى هؤلاء ان فقد سورية استقلالها ونظامها الديموقراطي بانضمامها الى بلد عربي آخر يحكمه اعوان الاستعمار من الرجعيين او الانتهازيين الناصريين ، يساعد على تخليص البلدين الخ •••) • الا ان المستعمرين لا يكتفون بمشاريع الاتحاد المشبوهة ، بل يسعون دوما الى ايقاعنا بمشاريع اخرى ، كمشاريع الاحلاف ، التي تؤدي الى ذات الغرض في توطيد مواقعهم • وهم على الاخص ، كانوا يندفعون في السعي الى فرض الاحلاف علينا ليعوضوا ما كان يجب ان يفقدوه بانتهاء معاهدتهم مع مصر اولا (عام ١٩٥٦) ثم مع العراق ثانيا (عام ١٩٥٧) •

يقول فاضل الجمالي في كتاب ارسله الى الوصي عبد الاله من لندن ، في ١٩٥٤/٦/٢٣ ما يلي :

« اجتمعت بسلوين لويد في وزارة الخارجية فكان حديثنا عن العراق ومركزه الطيب واستقرار سياسته وزعامته في العالم العربي وتكلم عن المعاهدة (اي تكلم لويد) فقال انها يجب ان ان تستبدل وان الدفاع عن العراق من الامور الضرورية الممكنة اليوم بعد توفر الاسلحة الذرية (كذا !... لكن اين يجب ان تنفجر هذه القنابل ؟ في العراق ؟ ومن اجل استمرار نهب البترول ؟ ولان المعاهدة كان يجب ان تنتهي بعد ثلاث سنوات من هذا القول ؟...) وان معاهدة جديدة على اساس الصداقة والدفاع يجب ان يفكر فيها ...

ثم تكلمنا عن اتحاد سورية والعراق وطلبت تأييد بريطانيا للموضوع على ان يردني الجواب (يعني الاوامر) في طريقي للعودة ، فقال (لويد) والاردن أيضا (أي ان على الاردن ان ينضم الى هذا الاتحاد ... »

(من الوثائق التي نشرتها الحكومة العراقية . الجزء الثالث من كتاب محكمة الشعب صفحة ١١٦٢) .

ويقول ايدن في الجزء الاول من مذكراته صفحة ٣٢٧ ، في تقرير له عن محادثات جرت بينه وبين وزير خارجية مصر في باريز عام ١٩٥١ ما يلي :

« ... ورددت باني لا استطيع قبول وجهة نظر الوزير على اقتراحات الدول الاربع التي تم اعدادها بمنتهى العناية والدقة ، لتتفق الى

اقصى حد ممكن مــع مطالب مصر ، ثم اخذت اعدد الفوائد المعينة ، التي تقـدمها الاقتراحات لمصر ، واعربت له عن ثقتي في ان نقاط الخلاف يمكن تذليلها والتغلب عليها اذا بحثنا الاقتراحات فقط ، واوضحت له تماما ان ليس في وسعنـا تنفيذ ما تطلبه مصر من جلائنا ، وان ليس من الخير ، للوزير ، ان يتوقع هذا الجلاء ... »

وكانت حكومة النحاس تطالب حينذاك بالجلاء دون قيد او شرط ، فتقدمت بريطانيا ، بهذه المناسبة ، بمشروع الدفاع المشترك ، وشاركها بذلك كل من اميركا وفرانسا وتركيا ، ليكون حل مسألة الجـلاء البريطاني ضمن اطار هذا المشروع ، اي للحصول على قاعدة استعمارية ابدية في مصر ، تربط بمنظمة « دفاعية » استعمارية تنص عليها معاهدة الجلاء ، بالاضافة الى ايقاع بقية البلاد العربية ، ومنها سورية ولبنان ، في شراك المنظمة المشؤومة . ذلك لان « مشاريع الدفاع المشترك » كانت لا تستهدف فقط التعويض عن المعاهدات الاستعمارية المنقضية الاجل ، كمعاهدتي مصر والعراق ، وانما كانت تستهدف ايضا ايقاع البلاد العربية باجمعها تحت شباك جملة الاستعمار الحديث في الشرق الاوسط بزعامـة بريطانيا . الامـر الذي يضمن ايضـا للاستعمار البريطاني قواعد متينة لمنافسة غريمه الاستعمار الاميركي في منطقتنا : لقد سبق وقلنا ، عندما كنا نتكلم عن اتفاق ايزنهور وتشرشل ، ان ربط الجلاء عن مصر بمشاريع الدفاع ، والنص على هذا الارتباط بمعاهدة يوقع عليها الطرفان البريطاني والمصري (النص على الارتباط باتفاقية الجلاء) ، يجعل من مصر تابعة لبريطانيا في « احلاف الدفاع

المشترك » ، الامـــر الذي يعرقل مشاريع اميركا في منطقتنا • امـا « مسايرة » هذه الاخيرة لبريطانيا ، واشتراكها معها في بعض الاحيان في اقتراح مشاريع الاحلاف في منطقتنا ، فكانت تصرفات تهدف الى عدم ترك بريطانيا تعمل وحدها في المنطقة ولتدارك ما يمكن ان يلحق بها (باميركا) من اذى نتيجة المشاريع البريطانية •

ان بريطانيا كانت دوما ، في مفاوضات الجلاء عن مصر ، تسعى الى ادخال هذا القطر الشقيق في حلف او مشروع استعماري لايقاعه ، مع بقية البلاد العربية ، في شباكها الاستعمارية • وقد اعطينا مثالا على هذا فيما سبق من البحث باقتراحات ايدن عام ١٩٥٣ ، الاقتراحات المتضمنة اعطاء قاعدة لبريطانيا في مصر ، واشراكها في الدفاع الجوي ، مع ادخال مصر في منظمة دفاعية تنضم اليها بقية البلاد العربية •

لقد تمكنت بريطانيا في منتصف عام ١٩٥٤ وفي اول عام ١٩٥٥ من الحصول على اتفاقيتين ثنائيتين : الاولى مع مصر ، وهي اتفاقية الجلاء التي سبق وتكلمنا عنها ، والثانية مع العراق (بدلا من المعاهدة العراقية الانجليزية التي ينتهي اجلها في عام ١٩٥٧) وهي لا تختلف في جوهرها عن الاولى (المصرية) الا بادخال ايران ضمن الدول التي يخول العدوان عليها بريطانيا في العودة الى القواعد الجوية العراقية • ولكي يضمن الاستعمار البريطاني استمرار فوائده من هاتين الاتفاقيتين ويخمد في ذات الوقت حركات التحرر في البلاد العربية كلها ، حاول توريط كل هذه البلاد في حلف استعماري تحت زعامته ، وهو حلف بغداد • وكان في ذات الوقت يسعى ايضا الى اقامة اتحاد مشبوه بين

العراق وسورية والاردن ، وقد سبق واستشهدنا قبل برهة بحديث فاضل الجمالي مع سلوين لويد وزير الخارجية البريطانية . وكان تاريخ هذا الحديث ٢٣ حزيران ١٩٥٤ . الا ان الذي يستلفت النظر هو ان كل هذه النشاطات كانت تجري في تواريخ قريبة من تاريخ محادثات تشرشل ايزنهور حول امور الشرق الاوسط (الحديث الذي مر ذكره ايضا) بل ان بعض تلك التواريخ يتطابق مع التاريخ المذكور . وكل هذا يدل بوضوح تام على ما اصاب الاستعمار من ذعر لانهيار حكم اديب الشيشكلي وامكانية سير سورية في طريق التحرر بعد ذلك الانهيار (الانهيار الذي وقع في مطلع ربيع ١٩٥٤) .

ان ايدن يصف ببلاغة الاهمية القصوى « لبديلات » قواعده الاستعمارية القديمة بالعبارة التالية التي كتبها في مذكراته ، صفحة ٣٦٥ من الجزء الاول :

« ... اما اذا اخذنا السبيل الثاني (سبيل الجلاء عن مصر بدون قيد او شرط) فاننا نكون قد تخلينا عن مركزنا في مصر دون تأمين قاعدة بديلة ، ولا ريب ان تأثير ذلك على سلطتنا في الشرق الاوسط كله ، سيكون مدمرا ... »

نعم كل شيء مترابط ، فالخروج من مصر بدون قيد او شرط لا يؤثر فقط على المصالح البريطانية في مصر ، بل يدمرها في كل منطقة الشرق الاوسط .

انجلترة واميركا تتجاذبان حلف بغداد

تحت ظروف انهيار حكم اديب الشيشكلي ، الحكم الذي كان من دعامات الاستعمار الاميركي في المنطقة ، جرى اجتماع ايزنهور وتشرشل في واشنطن في اواخر شهر حزيران ١٩٥٤ ، وقد مر معنا هذا فيما سبق . وبينما كانت اميركا في مايس عام ١٩٥٣ تقول على لسان دلس ، الذي كان يخاطب الصحافيين في اعقاب زيارته للقاهرة :

« ان عبد الناصر رجل ذكي ، ويجب على الغرب ان يقتنع بعدم جدوى السعي الى اقامة قيادة للشرق الاوسط (والغرب هنا هو بريطانيا منافسة اميركا ، لان قيادة الشرق الاوسط مشروع بريطاني في الاصل) ، وان مصر على عتبة مستقبل باهر » .

نجدها في الاجتماع الانف الذكر ، اي بعد اقل من سنة من تصريح دلس ، تشترك مع انجلترة في وضع الترتيبات اللازمة لاقامة حلف في المنطقة ، يقطع الطريق على نسمات التحرر التي كانت تهب من سورية وتنذر الاستعمار بالعواصف والصواعق ، ويضمن لكل من الاستعماريين راعيي الحلف ، املا في المستقبل : للانجليز امل البقاء ابدا في المنطقة عن طريق اكثرية حكومات عربية خانعة لهم تنضم للحلف ، وللاميركان امل تعديل الحالة وكسب الوقت ، ريثما تتوفر لهم الظروف الملائمة لاستئناف هجومهم على غرمائهم البريطانيين . وكان هذ الحلف هو حلف بغداد :

« فقد لعبت الولايات المتحدة دورا بارزا

في الايحاء بمشروع الحلف (حلف بغداد) عند انشائه ... »

(ايدن ، الجزء الثاني ، صفحة ١١٢ .)

وكانت انجلتره في هذه اللعبة تعتمد على عراق نوري السعيد ثم على الاردن ولبنان ، وعلى مساوماتها مع مصر في محادثات الجلاء ، وعلى دسائسها في سورية لاقامة حكم فيها يسير في مخططاتها . وكانت تأمل في النتيجة ان تقيم حلفا تتزعمه هي ويغطي مناطق بترول الشرق الاوسط باجمعها ، الامر الذي كان يجعلها في مركزها الذي كان لها قبل الحرب العالمية الاخيرة ، عندما لم يكن احد تقريبا ينازعها في امبراطورية البترول . وكانت اميركا ، في هذه اللعبة ، تعتمد على الانتهازية العربية المندسة في الحركات الثورية ضد الاستعمار المتجسد ببريطانيا بنظر فئات واسعة جدا من العرب ، الانتهازية التي كان عبد الناصر ، وما يزال ، يتزعمها والتي ترفع شعار مكافحة الاستعمار البريطاني المكروه جدا من شعوبنا ، لا لمصلحتنا وانما لمصلحة الاستعمار الاميركي . وكانت اميركا تعتمد ايضا على السعودية في توجيه الحلف العتيد في اتجاه يلائمها . وقد مر معنا ان الاستعمار الاميركي تمكن من تسجيل نجاح كبير ضد الاستعمار البريطاني ، « باقناع » تشرشل بالفصل بين قضية الجلاء عن مصر وبين قضية ضم مصر الى حلف استعماري ، وعدم توحيد هاتين القضيتين بالنص عليهما في اتفاقية واحدة ، في اتفاقية الجلاء . وبهذا تمكن الاميركان من اطلاق ناصر وتخليصه من القيود البريطانية ليتمكن من خدمتهم بشكل افضل في الحلف المذكور وفي المنطقة .

وليس صحيحا ان عبد الناصر قاوم حلف بغداد منذ اول ساعة قام فيها هذا الحلف ، وليس صحيحا انه رفض الدخول فيه بسبب غيرته من العراق او بسبب وجود دول اكبر واقوى من مصر ، كالباكستان وتركيا • بل انه كان من انشط الساعين اليه في الاشهر التي سبقت عقده ، فمهمته كانت في التأثير على البلاد العربية التي تنضم الى الحلف لصالح الاستعمار الاميركي ، وليست في التأثير على الاتراك والباكستانيين • وقد كتب فائق السامرائي في ١٦ آب ١٩٥٤ ، في العدد ١٩٤٩ من جريدة لواء الاستقلال البغدادية مقالا حول مؤتمر سرسنك • والسامرائي هذا من خدم الناصرية حاليا ومن الذين ارسلهم ناصر الى مؤتمر الجامعة العربية الاخير في شتورة للتشويش على سورية • يقول السامرائي في مقاله :

« وصل امس الصاغ صلاح سالم الى سرسنك وبدأ محادثاته مع المسؤولين ولم يكشف عن ماهية هذه المحادثات الا ان كل الظواهر تدل على انها حلقة جديدة من سلسلة طويلة من المساعي التي بذلت في الاشهر الاخيرة لزج البلدان العربية في اتون المحادثات الاقليمية • اذ لم يعد يخاف على احد طبيعة الاجتماع الخطير الذي عقد في « منى » في السعودية في الحادي عشر من الشهر الحالي بين ثلاثة من اولي الحل والعقد في بعض البلاد العربية جمعتهم وحدة ، اوضاعهم الخاصة في بلادهم ، ووحدة سياستهم (كمتحمسين للغرب) • فقد اجتمع البكباشي عبد الناصر ••• مع السيد غلام محمد حاكم

الباكستان ... وكان ثالوث الاثنين المسؤولين السعوديين ونوري السعيد ... وهكذا وقع كما يقول المثل المصري الشهير : المتعوس على خايب الرجا ... »

فمؤتمر سرسنك ، الذي عقد بعد خمسة ايام من مؤتمر « منى » ، هو نتيجة اذن للمؤتمر الاخير الذي حضرته الباكستان ، الامر الذي لا يدل على معارضة عبد الناصر للتحالف مع هذه الدولة . اما ما جرى في مؤتمر سرسنك فهو معروف في محضر الجلسات الذي كشفت عنه حكومة الثورة العراقية . ونجد في هذا المحضر ما يلي :

« افتتح صلاح سالم المباحثات فابدى اسفه الشديد للحملات التي تشنها الاذاعات المصرية على حكومة نوري السعيد ، كما اعتذر عما بدر منه شخصيا من تصريحات ضد العراق وقال ان سبب تلك التهجمات كان نتيجة لسوء فهم موقف العراق . فالحكومة البريطانية طلبت من الحكومة المصرية اثناء المفاوضات منحها الحق في عودة جيوشها الى القناة في حالة وقوع اعتداء على تركيا بالاضافة الى البلاد العربية ، وقد وافقت مصر على ذلك . الا ان الحكومة البريطانية بقيت اكثر من شهرين تماطل في التوقيع على الاتفاقية وصادف اثناء ذلك ان سافر ملك العراق الى الباكستان فخيل الى المصريين ان هنالك اتفاقا يقصد به عزل مصر عن العالم .. »

اي ان عبد الناصر « زعل » من العراق عندما ظن ان نوري السعيد يحاول منعه من دخول الحلف . كما ان ما نشرته المباحث

على لسان « توم ليتل » في كتاب « عبد الناصر رائد القومية العربية » يتناقض مع اقوال صلاح سالم بانه كان هنالك تأخير ومماطلة في التوقيع على معاهدة الجلاء . ففي الصفحة ٣٢٨ من الكتاب الآنف الذكر نقرأ :

« ... قدمت الحكومة البريطانية الى مصر في ١٢ تموز (يوليو) مقترحاتها الجديدة التي تعهدت بموجبها باجلاء جميع القوات البريطانية عن مصر وصيانة القاعدة بكادر من المدنيين البريطانيين الذين يعملون بالتعاقد .

كان العرض البريطاني حاسما بالنسبة للبكباشي عبد الناصر ، فتم في ٢٧ تموز (يوليو) توقيع الاتفاق بالاحرف الاولى في القاهرة . وربح عبد الناصر المعركة ... »

ونعود الآن الى محضر اجتماع سرسنك ، حيث يستمر صلاح سالم بالكلام :

« اما الآن ، وقد وقعنا على الاتفاقية بالاحرف الاولى (اتفاقية الجلاء عن مصر) وظهر خطأ ما ذهبنا اليه فنحن نعتذر عما بدر منا ونرجو ان تفتح صفحة جديدة في علاقاتنا الاخوية للسير بالامة العربية الى تحقيق اهدافها السامية (كذا !...) . وقد شكر نوري السعيد الصاغ صلاح سالم على عواطفه النبيلة . كما شكره على التفاتة جمال عبد الناصر العظيمة وادخاله احتمال تهديد تركيا في نصوص اتفاقية الجلاء ، وقال : اما ما يتعلق بعودة القوات البريطانية الى قاعدة القناة في حالة تعرض البلاد العربية

او التركية للاعتداء ، فكان يجب ان يكون اتفاقا تاما تشترك فيـــه جميع الدول العربية ذات العلاقة ، وتركيا ، ذلك لان القوات البريطانية التي ستعود الى القناة لمساعدة تركيـا ستمر ببلاد عربية لم تؤخذ موافقتها على ذلك وحتى رأيها فيه ٠

فسأل صلاح سالم عن الطريقة لمعالجـة هذا الوضع ، فأجابه نوري السعيد (ذو الخبرة الواسعة !٠٠) : ان الدول العربية مرتبطـة بميثاق الضمان الجماعي العربي ٠ فاذا اتفقنا على تقوية الميثاق على صورة تضمن سلامة هذه المنطقة من كل خطر وتحويله الى ميثاق اقليمي ينسجم مع المادة « ٥١ » من ميثاق الامم المتحدة ويحل محل اتفاقيتكم الثنائية مع بريطانيا ومحل معاهدتنا مع بريطانيا لسنة ١٩٣٠ كان فـي امكاننا استطلاع رأي بريطانيا وامريكا في مدى المساعدات التي تستطيعان تقديمها للمنظمـة الجديدة ٠ وقد اتفق المجتمعون في سرسنك في نهاية الاجتماعات على ما يلي :

المادة الاولى ـ اتفق الطرفان على ضرورة اعادة النظر بميثاق الضمان الجماعي وذلك للعمل على تقويته وجعله اداة قوية فعالة تمكن البلاد العربية مـن مواجهة اي خطر يهددها ويجعلها تستطيع الدفاع عن بلادها بقوة وكفاءة ، على ان يقوم كل طرف بدراسة هذا الموضوع والقيـام بالاتصالات اللازمة مع اميركا وانجلترا في هذا الشأن وسيعقد في النصف الثاني من شـهر

ايلول ١٩٥٤ اجتماع آخر في القاهرة بين مصر والعراق لعرض نتيجة الاتصالات الفردية بامیرکا وانجلترة ولاستئناف البحث ، ويقوم الطرفان بعد ذلك بالاتصال مجتمعين مع ممثلي انجلترة وامیرکا لبحث الموضوع وذلك توطئة لعرضه على باقي الدول العربية بغية الوصول الى اتفاق شامل .

المادة الثانية - تم الاتفاق على التعاون بين الطرفين على مكافحة المبادىء الهدامة بكل الوسائل الممكنة . وستوفد مصر المختصين بمكافحة هذه المبادىء الى العراق لتبادل المعلومات مع المختصين العراقيين والتعاون معهم على القضاء عليها في مصر والعراق وبقية البلاد العربية » .

(الجزء الرابع عشر من كتاب « محكمة الشعب » صفحة ١١)

يتبين من المحضر الآنف الذكر ان الطرفين ، مصر والعراق ، كانا يتكلمان باسم جميع العرب ويقرران مصير العرب بمعزل عن العرب . فالاجتماعات والاتصالات والمقررات تتم حصرا بين هذين الطرفين ، وبينهما وبين الدولتين الاستعماريتين انجلترة واميركا دون علم العرب الاخرين الذين كان من المقرر ان يبلغوا (حسب ما جاء في العبارات الدبلوماسية للاتفاق الانف الذكر) بعد انتهاء كل شيء . فعبد الناصر كان يرى في الدول العربية ، على حسب اقوال المباحث في كتاب « توم ليتل » صفحة ٣٤٤ :

« كتلة من الدول المليئة بالمثالب ومنازع الضعف ، تفتقر جميعا ، باستثناء العراق ، الى

الاستقرار والحكم المستقر ... وان التعاون بين مصر والعــراق خليق بان يغير الطابع الذي اكتسبته السياسة العربية منذ تأسيس الجامعة العربية ... » .

ويتبين ايضا بوضوح من المحضر ان هذين الطرفين (الصغيرين)، مصر والعراق ، كانا مدفوعين من طرفين كبيرين ، من اميركا وانجلترة ، للاجتماع . ولم يكن بوسعهما تعيين الخطوات التالية قبل الرجوع الى هذين الكبيرين . لذلك لا نجد اي اثر في اتفاق سرسنك لدول الحلف الاخرى : تركيا وايران والباكستان ، بينما نجد اسماء هــذه الدول الاسلامية تظهر بوضوح في المحادثات التي جرت بين الجانبين المصري والعراقي في اجتماع القاهرة ، في النصف الثاني من شهر ايلول عـام ١٩٥٤ ، وذلك بعد ان قام كل طرف منهما بالاتصال بمفرده بالاميركان والانجليز تنفيذا لما نص عليه اتفاق سرسنك .

وكان عبد الناصر يشيع انه غير راض عن النتائج التي نجمت عن محادثات سرسنك ، وانه لذلك غضب على صلاح سالم . لكنه ، بالاضافة الى عدم غضبه على زميل صلاح سالم في تلك المحادثات ، وهو رئيس وفده الحالي في الامم المتحدة ، محمود رياض (ماغيرو) ترأس بنفسه وفدا مصريا يضم محمود فوزي وصلاح ســالم ومحمود رياض للقيــام بمحادثات القاهرة الآنفة الذكر مع وفد عراقي يتألف من نوري السعيد ونجيب الراوي وخليل ابراهيم . ونجد في محضر جلسات هــذا **اللقاء ما يلي :**

« بدأ نوري السعيد يشرح وجهــة نظر

الوفد العراقي في مؤتمر سرسنك واضاف قائلا : ان العلاقات التاريخية التي تربط العراق بجارته تركيا وايران والاخطار التي تهدد هذه المنطقة برمتها مـن جراء المطامع الشيوعية التوسعية فضلا عن الاعمال التي يقوم بها الشيوعيون في داخل البلاد تجعل من المفيد انضمام البـلاد الاسلامية الى البلاد العربية لمجابهة هذه الاخطار ومجابهة الخطر الصهيوني وحل قضية فلسطين حلا عادلا يضمن للعـرب حقوقهم المشروعـة (بمساعدة اصدقاء اسرائيل اميركا وانجلتـرة وتركيا ؟...) .

« ان جمال عبد الناصر كان متفقا في كل احاديثه تمام الاتفاق مع رئيس الوفد العراقي نوري السعيد ومدركا لجميع المشاكل ، وقـد وافق الطرفان على تأجيل المباحثات الى ما بعـد التوقيع على اتفاقيـة الجلاء (بـين بريطانيـا ومصر) . وقد وجه جمال عبد الناصر الدعـوة لرئيس الجمهورية التركية وللملك العراق لزيارة مصر » .

(الجزء الرابع عشر من كتاب محكمة الشعب ، صفحة ١٢)

وعي الشعب العربي يحبط حلف بغداد

ان روائح هـذه المؤامرة الدوليـة ما لبثت ان تصاعدت تزكم الانوف ، وهب الشعب العربي في جميع اقطار الشرق الاوسط للنضال في سبيل احباطها . وكانت الامور في سـورية تسير نحو توطيـد الديموقراطية والتحرر . فجرت الانتخابات النيابية في خريف عـام

١٩٥٤ ، وبدا بكل وضوح ان آمال الاستعمار البريطاني في الامتداد الى هذا البلد بعيدة التحقيق ، بل ان سورية بعد ان نفضت عن كاهلها ، في تلك الفترة الوجيزة ، التركة الثقيلة لحكم الشيشكلي الديكتاتوري ، اخذت تركض في اتجاه اقتلاع الاستعمار من جذوره ، اقتلاع الاستعمار بكل اشكاله ، البريطانية والاميركية .

نعم لقد عادت سورية حينذاك الى حمل مشعل التحرر العربي من جديد ، عادت لتستقطب من حولها جميع حركات الكفاح العربي للاستعمار واعوانه ، عادت لتقود الشعوب العربية في طريق التقدم والخلاص من الاستعمار وآثاره . فاضطرت حينذاك اميركا والناصرية الى التراجع (بانتظام) على حساب نوري السعيد وسيدته بريطانيا ، وذلك لكي لا يفقد عبد الناصر امكانية الدجل التي سيستعملها فيما يلي من الايام لخداع الشعب العربي : انه ان استمر على السير في خط نوري السعيد فلن يصدق دجله احد وسيصبح كنوري السعيد منبوذا مكروها محتقرا من كل عربي شريف ، بعد تلك الثورة العارمة للشعوب العربية ضد الحلف . وكان هذا يفقد اميركا فرصتها في استعمال الانتهازية العربية ، وعلى رأسها الناصرية ، لتمهيد الطريق امامها للحلول مكان البريطانيين في المنطقة ، وذلك بالخداع والدجل وتزييف الشعارات .

وفي اجتماعات كانون الاول عام ١٩٥٤ لوفود الدول العربية في القاهرة ، نجد عبد الناصر يلتزم خطة التراجع شيئا فشيئا . فبينما كان يتحمس وينشط هو ووفوده ، في الاشهر السابقة ، للتحضير لحلف

بغداد ، نجده تحت ضغط الرأي العام العربي ، يتظاهر بالبراءة وبتقديم النصائح على حساب نوري السعيد (التعس الحامل لكل الاوزار) ، فيقول مثلا :

« ان اقصى ما يطلبه الغرب منا (وكأن علينا ان نلبي كل ما يطلبه الغرب منا !...) هو ضمنا للاحلاف ، ولكن ارى ان مصلحتنا في عدم التفرق ولو استدعى الامر فلندخل كلنا هذا الحلف (اي حلف بغداد) سويا لا متفرقين » .

(عن محضر جلسات اجتماع القاهرة الوارد في كتاب محكمة الشعب ، الجزء الخامس عشر صفحة ٧٠)

ان عبد الناصر عندما يكتشف بديهية معروفة بقوله : « ان اقصى ما يطلبه الغرب منا هو الاحلاف » ، يحاول ان يخفي نشاطه المحموم السابق لتوريط العرب بالاحلاف ، وهو في ذات الوقت يضع نفسه في موضع « الواعظ » بعدم التفرقة ليحتفظ بمكان ينظر فيه « من فوق » الى بقية العرب ، وذلك تمهيدا لجرهم الى شباك الاميركان . وقد اضطر ايضا تحت ضغط الرأي العام العربي الى التراجع خطوات اخرى فأعلن في بيان القاه صلاح سالم : ان ميثاق الضمان الجماعي هو الاساس في سياسة مصر الدفاعية . ومع ذلك فان الباب في هذا التصريح كان ما يزال مفتوحا امام الاميركان والانجليز ، لان ميثاق الضمان المذكور كان اساسا ايضا في مؤتمر سرسنك للوصول الى حلف يضم المستعمرين (انظر محضر سرسنك) .

في مثل تلك الظروف اضطر الاستعمار البريطاني الى الاستعجال

بتنفيذ جزء من مخططه ، باقامة حلف بغداد بين تركيا والعراق في الاسبوع الاول من عام ١٩٥٥ ، وذلك قبل ان تمتد نار الثورة على الاستعمار من سورية الى العراق فتقتلع مدرسة نوري السعيد وتلقى بها الى العدم . وقد تغاضت اميركا عن هذا الفعل ، لانه لا يزيد شيئا في مكاسب بريطانيا ، كما انه لا يوقع اية خسارة جديدة في مواقعها : كان النفوذ البريطاني في العراق ولم يمتد بالحلف الى ابعد منه . اضف الى هذا ان حماية نوري السعيد ومدرسته ضرورية ايضا للاستعمار الاميركي ريثما يعثر هذا الاستعمار على الوسائل الكافية لاقتلاع الانجليز واعوانهم من العراق ، لا لحساب تحرر هذا القطر ، وانما لحساب الاحتكارات البترولية الاميركية . وكان على بريطانيا ايضا ان تترك مصر للناصرية ، مطية الاستعمار الاميركي ، بعد ان تم توقيع اتفاقية الجلاء . وكان هذا بطبيعة الحال حساب الاستعمار المستند الى خدمات العملاء وليس على ما يمكن ان تظهره التطورات « المفاجئة » للتاريخ الذي تصنعه الشعوب . فالشعب المصري الذي اضطر الانجليز للجلاء عن ارضه ، سيتبع الناصرية بهؤلاء ، ولن يستفيد طويلا الاميركان ، المختبئين في الظل الاسود للديكتاتورية ، من اجهاض هذا الجلاء لحسابهم .

الانتهازية والملكية الرجعية في الحركة الوطنية العربية

سورية طليعة التحرر

كان غضب الشعب السوري كبيرا جدا على حلف بغداد وعلى المستعمرين الذين وقفوا وراءه . وقد تجلى هذا الغضب في الصحافة

السورية وفي مجلس النواب السوري وفي كل الاوساط الوطنية التي تمثل مختلف الاتجاهات • وكانت سورية في تلك الايام البلد العربي الوحيد الذي تم تحرره من الاستعمار ومن الديكتاتورية التي يختبىء عادة الاستعمار وراءها • فكان لذلك شعبها ينطلق للتعبير عن رأيه في تلك الايام بكل حرية وبدون « التقنين » الذي تفرضه الديكتاتوريات لتحفظ لنفسها خط الرجعة امام اسيادها المستغلين والمستعمرين ، وبعيدا عن الدجل الفارغ • لذلك كان صوتها يهز اركان الاستعمار هزا حتى يكاد يطيح بها ، ويهز قلوب الامة العربية حماسا وحمية ضد الاستعمار وضد الحلف الهجين ، بصدقه واخلاصه • وقد قامت قيامة الاستعمار على هذا البلد الصامد ولم تقعد ، فحبك المؤامرات ضده ، فما تكاد تفشل مؤامرة انجليزية حتى تتلوها مؤامرة اميركية • وحشدت تركيا جيوشها على حدود سورية في مطلع عام ١٩٥٥ ، مهددة منذرة ••• ولكن لمن !•• لشعبنا الذي لا يلين ولا تهون عليه كرامته ، لشعبنا الصامد الذي يقدم على اي اشتباك ضد اية قوة مهما عظمت ، للدفاع عن شرفه ؟ لذلك فشلت كل التهديدات وفشلت كل تلك المؤامرات وتحطمت على صخرة الوحدة الوطنية لشعبنا •

ان انطلاقة سورية ، بعد انهيار حكم الشيشكلي ، الى جانب شعب في الاردن يرى المثل في شقيقه الشمالي ويستعد للوثوب على الاستعمار البريطاني ليأخذ بخناقه ويلقي به خارج بلده ، والى جانب شعب في العراق يتململ وينتظر الفرصة السانحة لينقض على حكامه الخانعين للاستعمار البريطاني ايضا ، كل هذا كان يشكل تركيبا في منتهى

الخطورة على مواقع المستعمرين جميعا ويهددها بالزوال من المنطقة .
انه يكفي مثلا ان نتصور ما كان يمكن ان تؤول اليه احوال المستعمرين لو كان العراق والاردن متحررين كسورية في عـــام ١٩٥٤ ؛ اذن لقامت كتلة قوية من الدول العربية المتحررة قرب خليج النفط العربي وفوق مناطق النفط الاخرى في كركوك والجزيرة السورية ، اي كتلة عربية قوية وسط منطقة تتضمن ما يقرب من ٥٠٪ من احتياطي النفط في العالم . انه شيء مرعب حقا للاستعمار والمستعمرين !.. ولن يستطيع ناصر بعد هذا ان « يبتلع » افراد هذه الكتلة ، الواحد بعد الآخر ، ولن يستطيع جر هـــذه الدول الى شباك الاميركان بـدجله وشعاراته الزائفة في التحرر ، لانها متحررة وليست بحاجة الى من « يعلمها » التحرر . واذن لوقعت ، في مثل هذه الظروف ، جميع خطط وآمال المستعمرين ، وخاصة منهم الاميركان ، في العدم . ولكانت النتيجة قيام عالم عربي قوي ، وافلاس تام لعصابات النهب الاستعمارية التـــي تستنزف المليارات من ثرواتنا وقيمنا سنويا .

خطة الاستعمار الاميركي في الزحف على منطقتنا

ان الاستعمار الحديث ، وخاصة منه زعيمه الاستعمار الاميركي الذي قلنا انه يعتمد على دراسات موضوعية في حبك دسائسه ضـد الشعوب ، لا ينظر بعين الاعتبار الى حادث معين منعزل ولا الى ظاهرة خاصة ولا الى تيار واحد ، وانما ينظر الى وضع بكامله او الى حالة تامة بتغيراتها ، بجميع ما يتضمنه ذلك الوضع او تتضمنه تلك الحالة من تناقضات وتفاعلات ، وهو ينظر ايضا الى الاحتمالات المختلفـة

والمتناقضة لتطور الحالة او الوضع على حسب المعطيات المادية الراهنة ، عندما يحاول ان يضرب سير التقدم في بلد من البلدان • عندئذ وبناء على ما يستنتجه من دراسته الموضوعية الآنفة الذكر يحاول ان يتدخل ، بما لديه من وسائل مادية ضخمة ، في الاوقات المناسبة والامكنة اللازمة، ليوجه تطور البلد الضحية في اتجاه يلائم اهدافه ، او على الاقل ليؤخر الى زمن تقدم الضحية • وهو في كل هذا يفشل حينا وينجح حينا آخر ، فلا ييأس من فشل ولا ينام على نجاح يحرزه ما لم تقع الضحية تماما في براثنه • وعندئذ ، اي عند وقوع الضحية ، يفعل ما بوسعه للاحتفاظ بها في شباكه • ومع ان التقدم هو طبيعة التاريخ ، ومع أن اهداف الاستعمار تناقض مصلحة كل الناس ، بما فيهم غالبية الذين يستخدمهم الاستعمار لتنفيذ اغراضه ، ومع ان الاستعمار ينشأ عن بنيان تنهش اجزاؤه بعضها بعضا ، فان طرقه ووسائله الحديثة تشكل خطرا جسيما ، بل حاسما في بعض الحالات الجزئية ، على تقدم الشعوب وامنها • وان احسن سلاح يفل سلاحه هو الصمود تجاه مشاريعه ومخططاته وتهديداته ، الصمود المبني على ادراك سير الحوادث ووعي طبيعتها التي تختفي تحت مختلف الاشكال القاتمة او البراقة • ذلك لان جهل المتأخرين والمقهورين وقلة وعيهم ونقص خبرتهم ، كل هذا يشكل سلاحا ماضيا في يد الاستعمار • الا ان هذا الاستعمار لن يستطيع فعل شيء امام شعب يعرف كيف يصمد •

وضع الاستعمار الاميركي منطقة الشرق الاوسط العربية تحت دراساته وفحوصه ، وقد ادرك ما يشكله تصاعد مقاومة شعوب هذه المنطقة لمشاريع الاستعمار من خطر كبير على اسلابه وغنائمه الهائلة

التي يجنيها من ثرواتنا وقيمنا . فوجد ان الخطة القديمة المستندة الى طبقة معينة من الحكام بدأت تنهار تحت ضربات الشعب العربي المناضل كما وجد ان هنالك بلدا عربيا قد انطلق تماما بانهيار الحكم العميل ، حكم اديب الشيشكلي الديكتاتوري . وكان لا بد له اذن من اتباع خطة جديدة تتلاءم مع حالة وظروف المنطقة . فوجد في الانتهازية العربية التي تتزعمها الناصرية احسن من يخدم اغراضه .

ان عبد الناصر لا يتمكن من خدمة الاستعمار الحديث فيما لو حاول الاستمرار على اتباع السياسة المفضوحة لمدرسة نوري السعيد . فهو بينما كان يرى في الدول العربية :

« كتلة من الدول المليئة بالمثالب ومنازع الضعف ، تفتقر جميعا باستثناء العراق الى الاستقرار والحكم المستقر ... وان التعاون بين مصر والعراق خليق بان يغير الطابع الذي اكتسبته السياسة العربية منذ تأسيس الجامعة العربية ... »

(قول لتوم ليتل سبق لنا ان استشهدنا به)

نجده بعد عودة الحكم الديموقراطي الى سورية ، وعندما اشتدت مقاومة شعوب المنطقة ضد مشاريع الاحلاف الاستعمارية ، وخاصة في بدء عام ١٩٥٥ ، يغير خط سيره فينحاز الى جانب الخط التحرري السوري . وماكان هذا التكيف مع الظروف العربية حينذاك حبا بالتحرر ولا عن نية الاستمرار فيه ، وانما حيلة ودجلا يتمكن بهما عبد الناصر من كسب المواقع اللازمة في البلاد العربية لخدمة اسياده الاميركان

باجهاض حركات التحرر ، تماما كما فعل في مصر عندما اجهض الثورة المصرية وحولها الى ديكتاتوريته السوداء :

اولا ـ حملت اجهزة الدعاية الناصرية بشدة على نوري السعيد ، وعلى حلف بغداد • وكان هذا ، كما اتضح لنا فيما سبق ، مناقضا تماما لكل تصرفاته طيلة النصف الاخير من عام ١٩٥٤ •

ثانيا ـ ما كان عبد الناصر ان يتلكأ عن الذهاب الى باندونغ حيث عقد مؤتمر الشعوب التي طالما نهبها وقهرها الاستعمار ، دون ان يعرض نفسه الى نقمة الشعوب العربية • ان فاضل الجمالي نفسه ذهب الى هذا المؤتمر ، لا لخدمة الاستعمار فيه فقط ، بل لتهدئة النفوس الثائرة ضد مدرسته ايضا ، في العراق وفي العالم العربي • وقد وجد عبد الناصر الفرصة للتبجح بالنضال ضد الاستعمار (الاستعمار القديم فقط) بهذه الرحلة ، ولخدمة الاستعمار الحديث في المؤتمر المذكور • فقد قال السفير الاميركي في القاهرة ، المستر بايرو خليفة كافري :

« نحن ممتنون لمبادرة ناصر في باندونغ ، فهو لم ينسق مع شوآن لى ، ووقع على قرار يدعو الى حل « قضية فلسطين بالطرق السلمية » وساهم في اتخاذ وضع حيادي بين الشيوعية والاستعمار »

« مصر تتحرك » صفحة ٢١١

(مع العلم ان الشيوعية بنظر الاميركان هي كل ما لاينسجم مع مخططاتهم الاستعمارية ، كحل قضية فلسطين حلا يعيد الى العرب حقوقهم • والسفير الاميركي في دمشق لم يصرح مثلا بالامتنان من الوفد السوري الى باندونغ •••)

ثالثا ـ كانت الوفود السورية ترتاد البلاد الاشتراكية منذ نهاية عام ١٩٥٤ ، وذلك لشراء كثير من المعدات ولدراسة امكانية تزويد الجيش السوري بالاسلحة • وبعد اغتيال الشهيد المالكي ببضعة اسابيع عقدت سورية أول صفقة اسلحة عربية مع البلاد الاشتراكية • ولم يكن باستطاعة عبد الناصر ان يفعل شيئا غير الانسجام مع سورية في هذا الامر :

ـ لان حصوله على اسلحة من الدول الاستعمارية ، في الوقت الذي صممت فيه سورية على شراء الاسلحة من البلاد الاشتراكية ، لا يشرفه كثيرا ويظهر تناقض سياسته مع سياسة التحرر التي اتبعتها سورية • وذلك بسبب الكره العميق الذي تكنه الشعوب العربية للمستعمرين جميعـــا •

ـ لان تزويد الجيش المصري بسلاح يختلف عن سلاح الجيش السوري يعقد تقارب الجيشين المذكورين ، التقارب الذي كان عبد الناصر يبني عليه خططه في التآمر على حرية سورية (اما خططه لتحرير فلسطين فقد اعترف مؤخرا وعلنا بعدم وجودها ، بل انه اتهم بالكذب وبالخيانة كل من يروج لوضع مثل هذه الخطط ، وذلك امام مندوبي اهالي غزة وامام ما اسماه بالمؤتمر الشعبي) •

رابعا ـ شدد عبد الناصر هجومه على الاستعماريين القـــدماء ، كالانجليز والفرنسيين (مع التزامه السكوت عن المستعمرين الاميركان) • وكان هذا مفيدا له في كسب التأييد الواسع من قبل الشعوب العربية التي عانت ما عانته من هؤلاء الاستعماريين ، وهي ما تزال تعاني منهم

حتى الآن • وهو مفيد له ايضا عندما يعمل لصالح الاستعماريين الاميركان الذين ينافسون أولئك في نهب ثرواتنا •

ان الاستعمار الاميركي ، الذي كان يعتمد على النظم الاقطاعية في ممارسة نهبه لبترول السعودية (وذلك بسبب تأخر العلاقات الاجتماعية في هذا البلد) لم يتأخر عن دفع الحكام السعوديين الى مسايرة خطر التحرر الذي سارت عليه سورية وتبعتها فيه مصر ، عندما هبت شعوب المنطقة ضد حلف بغداد واسياده المستعمرين الانجليز • وقد انتهى هذا السير ، كما هو معلوم لدى الجميع ، الى قيام القيادات الثنائية المشتركة : بين مصر وسورية ، وبين مصر والاردن ، وبين مصر والسعودية ؛ ثم الى التحالف الثلاثي بين مصر وسورية والاردن عشية العدوان الثلاثي على مصر •

يقول ايدن في مذكراته ، الجزء الثاني ، صفحة ١٢٣ ، ١٢٤ ، ما يلي :

« وكان الوضع في الشرق الاوسط ، يتعرض للتقويض السريع ، والافساد (تقويض الاستعمار البريطاني وافساد خططه) بالاموال السعودية • وقد نقل وزير الخارجية هذا القول ، مستندا فيه الى المعلومات الواضحة الجلية التي عرفها في بغداد وبيروت ، فعملاء الملك سعود ، وقد انتفخت جيوبهم بالذهب ، كانوا يتعاونون في كل مكان مع الشيوعيين (أي أعداء الاستعمار ، لان كل عدو للاستعمار هو شيوعي بنظر هذا الاستعماري) ضد المصالح الغربية (المصالح البريطانية) •••

وناشد نوري السعيد ، في تشرين الثاني عام ١٩٥٥ ، حلف بغداد ، موجها نداءه بصورة خاصة الى المراقب الاميركي ، ايجاد سبيل ، لوقف مدفوعات « الارامكو » للسعوديين ، مدة ستة أشهر على الاقل • وأعلن رأيه ، في أن هذا لو حدث ، فان الوضع كله سيتغير في سورية ولبنان والاردن ، وحتى في مصر نفسها • وسيصبح بالامكان تحقيق الاهداف التي تبدو مستحيلة الآن ، كايجاد تسوية عربيةاسرائيلية (كذا !•••) • وكان ما قاله نوري السعيد حقا ، ولكني كنت أعرف صعوبة استشارة الولايات المتحدة لاتخاذ عمل عندما يكونمتعلقا بالملك سعود (أو بالاحرى عندما يكون متعلقا بخطتها في (تشليح) اسياد ايدنالبترولالذي ينهبونه من منطقتنا) »

ويقول ايدن ايضا في الصفحة ١٢٨ ، من المرجع السابق ، وذلك بمناسبة تكلمه عن تلك الايام الخالدة التي كان الشعب الاردني يثور فيها ضد حلف بغداد وضد تمبلر (رئيس اركان الامبراطورية البريطانية الذي اتى ليعمل على ضم عمان الى ذلك الحلف) ، تلك الايام التي انتهت بطرد غلوب من الاردن :

« وفي غضون ذلك ، كانت قوة سعودية ، تثير النقع في صحارى مضطربة ، قد قدمت وقوامها يتراوح بين الف وخمسمائة والفي جندي تعززها السيارات المدرعة وبعض المدافع الى منطقة الحقوق ، الواقعة الى الجنوب من حدود الاردن الجنوبية •••

وعلى ضوء هذا رأت حكومة جلالتها ان من الحكمة ابلاغ الحكومة السعودية ، معرفتنا بهذه الحركات وسؤالها عن اهدافها . وكذلك لم نترك لدى السعوديين مجالا للشك ، في ان هذه القوات اذا قامت بأي عمل عدائي ضد الاردن ، فسنفي بالتزاماتنا لمساعدة الاردن ..» .

الا ان الشعب الاردني « وفر » على ايدن عناء الوفاء بالتزاماته المزعومة ، وذلك بطرده « غلوب باشا » .

والخلاصة قامت في ربيع عام ١٩٥٦ جبهة قوية من البلاد العربية التي كانت تتبع خط التحرر ومقاومة الاستعمار ، من سورية ومصر والاردن والسعودية ، في الوقت الذي كان فيه لهيب الثورة الجزائرية يأتي على الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، وفي الوقت الذي كانت فيه اسرائيل تنظر بخوف كبير الى ذلك الصعود الهائل في الحركة الوطنية العربية ، الحركة التي كانت تتجه اتجاها صحيحا فتتناول اسياد اسرائيل ، وليس اسرائيل وحدها . لكن هذه الحركة الجبارة كانت ، بكل اسف ، مشوبة بمرضين خطيرين : مرض الانتهازية العربية بقيادة الناصرية ، ومرض الرجعية بقيادة الملكيات الاقطاعية . وكانت خطة الاستعمار الاميركي الاستفادة من ذلك المد الثوري لضرب غريمه الاستعمار البريطاني في منطقتنا ، ثم اجهاض هذا المد وتحويله الى مد انتهازي بالاستعانة باعوانه الانتهازيين والرجعيين .

ملاحظة : ان من السهل على المرء ان يدرك اخطار مرض الرجعية في الحركات الثورية ، عندما تضطر الظروف هذه الرجعية لاتخاذ

الجانب الوطني ، جانب الحركات الثورية . ذلك لان الرجعية صفة لطبقات وفئات معروفة جيدا ، وهي تتجسد بالدفاع عن بقايا انظمة تاريخية بالية ومعروفة ايضا ، ولان الناس جربوها في مختلف الظروف . اما الانتهازية التي تتخفى دوما بالدجل وبالكذب ، والتي لا تتحدد بطبقة او فئة معينة ، والتي لا تعبر الا عن مصالح فردية وانانية وموقتة فان من الصعب اكتشافها .

لقد قلنا ان الثورة العربية ، وثورة كل مظلوم مقهور ، ضد الاستعمار قدر لا بد من وقوعه . وقد بلغت هذه الثورة اوجها في الاشهر التي سبقت تأميم قناة السويس ، فكانت دموية ضد جيوش الاحتلال في الجزائر وفي بعض مناطق الخليج العربي ، وكانت غضبا شعبيا كاسحا ضد المشاريع الاستعمارية في سورية والعراق والاردن ومصر والسعودية واليمن والبلاد العربية الاخرى . وكان تقارب الدول المتحررة الاربع ، سورية ومصر والاردن والسعودية ، وسيرها في اتجاه واحد ضد الاحلاف الاستعمارية ، يعكسان تلك الحركة الوطنية الجبارة للشعوب العربية ويعكسان الوحدة النفسية لتلك الشعوب في تلك الظروف الثورية . وما كان باستطاعة الاستعمار الحديث (أو بالاحرى ما كان باستطاعة اميركا زعيمة هذا الاستعمار) تبديل شيء من ذلك الواقع الثوري الذي كان يلف أقطارنا العربية بأجمعها ، ما كان باستطاعته تبديل ذلك القدر . والانتهازية التي في خدمته ما كانت لتستطيع الا مسايرة تلك الظروف والا الانضمام الى الفئات الوطنية لتكسبها ولتمد جذورها فيها ، كي تستطيع في النتيجة ضرب هذه الفئات واجهاض

ثورتها في الوقت الملائم ، ولصالح الاستعمار الاميركي • والا فان وقوف هؤلاء الانتهازيين علانية الى جانب الاستعمار الاميركي ، كان يؤدي حتما الى افتضاح أمرهم وانعزالهم عن الجماهير ، فيصبحون منبوذين ملعونين عاجزين عن خدمة أسيادهم تحت ستار مكافحة الاستعمار البريطاني • ان هذه النقطة ، برأينا ، على غاية من الاهمية لكشف دجل الانتهازية التي ترافق الحركات الثورية والحركات التقدمية ، ولفهم التناقضات التي تبدو في مجرى الحوادث الاجتماعية ، الاقتصادية السياسية ، لذلك ترانا نكررها في كل مناسبة ، ونذكر بها ، بمختلف الاشكال والصور •

الناصرية تنطلق لاجهاض الثورات العربية

الاتجاهات المحتملة لكفاحنا عام ١٩٥٦

قلنا ان الحركة الوطنية العربية بلغت اوجها في الاشهر التي سبقت تأميم قناة السويس • وقلنا ان هذه الحركة انعكست في قيام كتلة الدول العربية المتحررة ، كتلة سورية ومصر والاردن والسعودية وكان من الطبيعي ان يصطدم ذلك المد الثوري الهائل بالوجه المباشر للاستعمار في منطقتنا ، بالاستعمار البريطاني الذي كان ، وما يزال ، يخضع لنفوذه مناطق واسعة من العالم العربي • وبعد ان نزلت بهذا الاستعمار ضربة شديدة في الاردن ، بطرد غلوب باشا ، أصبح طبيعيا أن يكون الاصطدام التالي معه في مناطق نفوذه الاخرى من بلادنا • وكان طبيعيا أيضا أن لا يقف مد ثوري عربي ، تقوده فئات وطنية لا تعير أذنا للمستعمرين ، عند التخلص من الاستعمار البريطاني وحده •

بل لا بد لمثل هذا المد ، بتلك القيادة الوطنية المخلصة ، من أن يستمر حتى يأتي على جميع أشكال الاستعمار الحديث . فالنصر يعزز مواقع الثوار ، لينطلق هؤلاء الى نصر آخر وهكذا . وهذا ليس في صالح الاستعمار الاميركي الذي يتمنى زوال منافسه البريطاني ، ولا يتمنى الزوال معه .

وكنت قد بينت في بيان نشرته صيف عام ١٩٦٢ ، انني وبعض الرفاق السوريين قابلنا قائد ثورة ١٤ تموز العراقية ، وذلك في الاردن أيام العدوان على القناة . وبينت اننا سمعنا من اخواننا العراقيين تفاصيل ما أعدوه للقضاء على الحكم الخانع للانجليز في بلدهم . وهذا يعني بوضوح أن الثورة في هذا القطر الشقيق كانت ناضجة تماما منذ ما قبل العدوان الثلاثي على مصر . فاذا انتبهنا الى أن اسرائيل كانت ، وما زالت ، تتحرش دوما بنا ، لانها قاعدة استعمارية مهمتها تأخير تقدمنا ، واذا انتبهنا الى أن الانجليز كان لهم في تلك الايام الاشراف التام على قناة السويس ، طريق تدفق بترول الشرق الاوسط الى اوربا ، تبين لنا بجلاء تام ان اصطدام المد الثوري العربي كان لا بد من أن يتناول هذه المواقع الثلاثة في جملة الاستعمار في منطقتنا : النفوذ البريطاني في العراق ، والاشراف البريطاني على القناة ، واسرائيل . ولننظر الآن الى الاحتمالات التالية :

أولا : أن تكون الحركة الوطنية العربية في تلك الايام سائرة بقيادات مخلصة ومنزهة عن التأثر بالاستعمار الاميركي وبدسائسه ، وان تستمر في الهجوم على حلف بغداد لتخليص العراق منه ومن

الحكام الخانعين للاستعمار البريطاني ، فتنطلق الثورة العراقية بدلا من انطلاق أزمة السويس ، وبالتالي يأتي هذا القطر الشقيق ، الغني بامكانياته ، الى صف الدول المتحررة التي سبق ذكرها • من الواضح ان وقوع هذا الاحتمال كان يعطي الحركة الثورية العربية في تلك الايام أشكالا مرعبة للاستعمار الانجلو - أميركي - افرنسي من البلاد العربية ، وكانت اسرائيل تفقد فعاليتها كمهدد للبلاد العربية ومعرقل لتقدم هذه البلاد ، اذ لا يمكن قياس قوتها بقوة تلك المجموعة العربية الثورية • وكانت تصفيتها في مثل تلك الظروف قضية وقت ، لان الكرم أبعد صفة عن الاستعمار الذي يساعد الصهاينة الا للاستفادة من خدماتهم ولا فائدة منهم أمام عرب أقوياء • أما تأميم القناة فكان يصبح أمرا تافها جدا ، لان قيمة هذه القناة تنعدم بنظر الاستعمار الذي يطرد من مناطق النفط : لقد قلنا ان القناة طريق تدفق النفط الى أوربا •

ثانيا : أن تكون الحركة الوطنية في تلك الايام سائرة بقيادات مخلصة ومنزهة عن التأثر بالاستعمار الاميركي وبدسائسه ، فتشتبك الدول العربية المتحررة باسرائيل ، دون اثارة ازمة السويس • ان النتيجة ما كانت لتختلف كثيرا عن نتيجة قيام الاحتمال السابق • لان العرب كانوا في تلك الايام أقوى من اسرائيل ، فكان بامكانهم أن يلقوا على الصهاينة درسا لا ينسى • ومما لا شك فيه أن المستعمرين كانوا سيتدخلون لحماية قاعدتهم هذه في مثل هذا الاحتمال • الا أن آثار الدرس كانت تبقى في جلود الصهاينة وما كانت اسرائيل لتفيد الاستعمار كثيرا بعد هذا الدرس • أما انضمام العراق الى الصف المتحرر فكان

حتميا في مثل هذه الظروف ، وبهذا نعود تماما الى نتائج الاحتمال السابق .

ثالثا : أن تكون الحركة الوطنية في تلك الايام سائرة بقيادات مخلصة ومنزهة عن التأثر بالاستعمار الاميركي وبدسائسه ، فيحصل تأميم القناة ، كما حصل ووقع بالفعل ، ان القيادات المخلصة كانت تتلافى الهزائم التي سببتها القيادة الناصرية للجيش المصري الشقيق . وبالاضافة الى الدروس التي كان بالامكان تلقينها للاستعمار ولربيبته اسرائيل ، كان بالامكان أيضا أن يستمر الهجوم على مواقع الاستعمار الاخرى فينضم العراق الشقيق في مثل تلك الظروف الى الركب العربي المتحرر . الامر الذي يعود بنا الى الاحتمالين السابقين . وان اثر الانذار بالصواريخ السوفياتية ، وأثر غضب جميع الشعوب التي تكره الاستعمار وتكره العدوان في مثل هذه الحالة التي يتماسك فيها الدفاع العربي أمام الغزاة المعتدين ، كانا يصبحان اشد بكثير منهما عندما سببت القيادة الناصرية تلك الفوضى المحزنة في تلك المعركة .

نجد مما سبق ان السر الاوحد في عدم حصول أية نتيجة مفرحة من النتائج الثلاث السابقة يكمن في قيادة الحركة الوطنية في تلك الايام أو بالاحرى يكمن في توجيه هذه الحركة وفي تحديد أهدافها الوطنية فالاستعمار الاميركي ، ان كان يتمنى زوال غريمه البريطاني من منطقتنا ، فانه كان يدرك أيضا ما لتوجيه الحركات الوطنية وما لاهداف هذه الحركات من خطورة فائقة على وجوده هو بالذات ، ليستمر بنهب العرب . لذلك كان هذا الاستعمار يستفيد من القيادات الانتهازية

لمسخ الانتصارات وايقافها عند الحدود التي تنفعه هو وحده ، ولا تنفع من ضحى للوصول اليها . فكان ان ورطت الانتهازية الناصرية حركة الكفاح العربي في معركة القناة ، بمناورة استعمارية اميركية (سنراها فيما يلي من البحث) ، لا لتوصل العرب الى النتيجة المفرحة التي استنتجناها آنفا ، بل :

أولا : لتكون المبادرة في يدها في توجيه حركة التحرر العربي في اتجاهات تخدم انتهازيتها وتخدم الاستعمار الاميركي المتستر وراءها . ذلك لان القناة تقع في مصر ، أي في الارض التي تتحكم هي بها ، وقيادة المعركة لها في مثل هذا الظرف ، فيلتف الشعب العربي حولها ويعطيها ثقته ويقبل بقراراتها ، كقائدة للمعركة ، وينفذ لاغراضها هذه القرارات .

ثانيا : لتحاشي دور الجماهير العربية بقياداتها المخلصة ، الجماهير التي لا يمكن ضبطها من قبل الانتهازية الناصرية أو الرجعية الملكية في حالة قيام ثورة في العراق تؤدي الى انضمام هذا القطر الى الركب المتحرر ، أو في حالة اشتباك مع اسرائيل يشترك فيه كل عرب المنطقة . ففي مثل هاتين الحالتين يصعد المد الثوري العربي الى درجة خطيرة يستحيل معها على الانتهازية أو الرجعية ان تحرف هذا المد في اتجاهات خائنة . بل ان انعزال الانتهازية في مثل هذا الظرف وسقوطها يكادان أن يكونا حتميين .

ان عبد الناصر أبعد الجيش السوري عن الاشتباك في فلسطين غداة العدوان على مصر ، فهو ما كان يرغب في امتداد الثورة العربية

على المستعمرين كي لا تخرج الامور من يديه . وكان فتح خليج العقبة أمام الصهاينة نتيجة لتمكن الناصرية من الوصول الى مركز قيادة الكفاح العربي في تلك الظروف .

المناورات الاميركية لتوجيه الكفاح العربي نحو القناة

قلنا فيما سبق ان تيار الاستعمار الحديث في بريطانيا فرض على التيار القديم البريطاني اتفاقية الجلاء عن مصر ، وذلك للسير في سياسة استعمارية حديثة تتلاءم مع ظروف الاستقلال السياسي في المنطقة العربية . وقد حاول هذا التيار ايضا ان يسير أبعد في طريق التشبه بالاستعمار الاميركي فيشدد من علاقاته الاقتصادية ببلاد منطقتنا ، في الوقت الذي يتظاهر فيه بتخفيف اساليبه الاستعمارية القديمة ويضع فيه خططا أكثر مرونة لتطور استعماره في منطقتنا ، وذلك على الرغم من تعاظم موجة الغضب الكبير التي اجتاحت المنطقة حينذاك ضد حلف بغداد الذي أقامه . وقد رأى هذا التيار ان يستمر في توجيه عنايته الى مصر ، في ذات الوقت الذي كان يشدد فيه تآمره على سورية والاردن بواسطة الحكام السابقين للعراق وبواسطة أعوانه في المنطقة .

وقامت بريطانيا لذلك بتنفيذ ما نصت عليه اتفاقية الجلاء ، وعقدت اتفاقية مع مصر للافراج عن الارصدة الاسترلينية المصرية ، وأبرمت أيضا في مطلع عام ١٩٥٥ اتفاقية تجارية لشراء القطن المصري .

يقول توم ليتل في كتابه الذي سبق واستشهدنا به مرارا ، في الصفحات ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٥ ، ما يلي :

« كانت بريطانيا قد ارسلت بعثة تجارية الى مصر وغيرها من الاقطار في مطلع ١٩٥٥ حيث كان الاتفاق المصري - البريطاني على حد قول وزير التجارة المصري قد ازال العقبات في وجه توسع التجارة بين البلدين ... »

« كما ان بريطانيا وقعت اتفاقا تنال مصر بموجبه ٢٠ مليون جنيه سنويا حتى ١٩٦٠ من ارصدتها المجمدة ، ثم تنال ١٠ ملايين جنيه سنويا الى ان يستهلك ما تبقى من الارصدة .. »

« اما خطب الرئيس عبد الناصر في احتفالات المرحلة الاخيرة من الجلاء فقد كانت معتدلة اللهجة وامتدح فيها وفاء بريطانيا بتعهداتها (للجلاء) ... »

ووافقت بريطانيا على الدخول في مباحثات مع مصر لتقدم مساعداتها في بناء السد العالي ، وحاولت أيضا جر دول الاستعمار الاخرى ، أميركا وألمانيا الغربية وفرانسا ، الى خدمة أغراضها الاستعمارية في مصر باشراك هذه الدول (بزعامتها طبعا) في مسألة السد العالي .

يقول ايدن في الجزء الثاني من مذكراته ، صفحة ٢٢٨ ، ما يلي :

« وتضامنت عدة شركات بريطانية وفرنسية والمانية ، في اتحاد وقتي لتنفيذ المشروع (السد العالي) . واعربت حكومات هذه الدول الثلاث عن رغبتها في مساندة شركاتها المتعاقدة هذه بعون مالي . وللمساعدة في مواجهة الاخطار العظيمة ، ادخلنا في حسابنا عون حكومة الولايات المتحدة ، والبنك الدولي .

ثم وضع خطة تتضمن اسهامنا جميعا ، في هذا المشروع ، وكانت الخطة على الرغم من بالغ تكاليفها ، عملية وقابلة للتنفيذ ، وتقرر ان تكون الهبة الانكلو - اميركية الاولية نحوا من سبعين مليون دولار ، حصتنا منها اربعة عشر مليونا ، كما وافق البنك الدولي على اقراض مائتي مليون دولار » .

فالاستعمار البريطاني بهذا كان يبني بما سبق ذكره جملة من وسائل الضغط الاقتصادي على مصر ، أكبر وأغنى بلد عربي بامكانياته المادية والثقافية :

- تسمح الارصدة الاسترلينية المقسطة على عدد كبير من السنين لهذا الاستعمار بالتهديد بقطع الاقساط كلما عن له ذلك . والملاحظ ان كل قسط من أقساط السنين الخمس الاولى ، ١٩٥٦ - ١٩٦٠ ، يشكل مبلغا ضخما يعادل تقريبا ثلثي واردات القناة في تلك الايام : ٢٠ مليون جنيه استرليني سنويا . الامر الذي لا يبعد كثيرا احتمال ادخال بريطانيا خطورة تلك السنين الخمس في حساباتها عند عقد اتفاقية الارصدة المذكورة ، من حيث احتدام الصراع بينها وبين الحركة الوطنية العربية من جهة ، وبينها وبين الاستعمار الاميركي من جهة أخرى .

ان وسيلة الضغط المالي بالارصدة لا تضعف كثيرا بعد عام ١٩٦٠ اذ يبقى دوما على بريطانيا أن تفرج عن ١٠ ملايين جنيه استرليني سنويا لمصر .

- تعطي مسألة شراء القطن المصري بريطانيا مجالا واسعا للضغط

على الفرع الاساسي في اقتصاد مصر ، على فرع انتاج القطن . وهـذا الفرع الذي كان يتعلق دوما بسوق انتاج القطنيات البريطانية ينعش مصر أو يخنقها على حسب كساده أو رواجه .

– تجد مصر في السد العالي فرجا لازمة التزايد الهائل في عدد سكانها . وان البدء في تنفيذ هذا المشروع يصبح من المسائل الملحة عندما لا يكون هنالك خطة اقتصادية بديلة لتلافي خطر ازدحام السكان. فتزعم بريطانيا عملية تعهد هذا السد ، مع مطاولتها ومراوغتها في الوصول الى اتفاق نهائي ، ثم المطاولة والمراوغة في بدء التنفيذ الخ .. يعطي هذه الدولة وسيلة حاسمة للضغط على مصر ، على أن لا يكون هنالك أطراف أخرى منافسة .

فاذا أضفنا الى ما سبق مـا كانت بريطانيا تحيكه من مؤامرات ودسائس ضد مصر وضد البلاد العربية الاخرى ، تبينت لنا العدة التي كان يعدها الاستعمار البريطاني لمواجهة الحركة الوطنية التي انعكست بتقارب الدول المتحررة الاربع ، ولمواجهة دسائس غريمه الاستعمار الاميركي الذي كان يحاول التأثير في تلك الحركة عن طريق الانتهازية العربية والرجعية الملكية .

الا ان هذا الاستعمار « المفلس » ، الذي هو الاستعمار البريطاني كان يريد الاستفادة من أموال الاستعمار الاميركي ومن أموال البنك الدولي (التي تخضع أيضا للمتمولين الاميركيين) « ليتزعم » مساومات ومراوغات السد العالي ، ولقد كان من « الافلاس » و « البلاهة » على

درجة جعلته يقع بسهولة في مصيدة مناورات غريمه الاستعمار الاميركي .

وكان باستطاعة الاستعمار الاميركي ان يسبق البريطانيين الى « تزعم » عملية السد ، بل انه كان بامكانه ان يقوم بها جميعها دون الحاجة الى تلك الشركة الدولية المؤلفة من بريطانيا والمانيا الغربية وفرانسا ، الشركة التي مر ذكرها في القول السابق لايدن . الا أن الدول الاستعمارية لاتقدم على مشاريع كهذه ، تجمد فيها أموالها مدة طويلة ، الا لقاء منافع تفوق بكثير أرباح هذه الاموال ، منافع اقتصادية وسياسية : حصولها مثلا على الاشراف الكلي على اقتصاد البلد صاحب المشروع ، بالاضافة الى « الضمانات » السياسية التي تكفل استمرار هذا الاشراف ، أي بالاختصار « رهن » هذا البلد لديها . فبمثل هذه الوسيلة يضمن الاستعماريون تدفق ما يفوق بكثير ارباح رؤوس أموالهم « المجمدة » ، لا من المشروع الذي تساهم في اقامته هذه الاموال ، وانما من نهب الفروع الاخرى لاقتصاد البلد صاحب المشروع ، الفروع التي يشرفون عليها « لضمان » أموالهم . وهذا لا يمنع بالطبع حصولهم أيضا على أرباحهم من اقامة المشروع ذاته . وما كان الاستعمار الاميركي بحاجة الى عملية السد العالي ليضع يده على مصر ، ما دامت الانتهازية الناصرية تحكم هذا البلد وتوجهه في الاتجاهات التي يريدها ، الاتجاهات التي أوصلت مصر حاليا الى الخنوع تماما ، اقتصاديا وسياسيا للاميركان . وهذا الذي كان ، على ما يبدو ، بعيدا عن ادراك المستعمرين

البريطانيين « الاذكياء » ، الذين طالما تورطوا في « بلاهة » و « بساطة » المستعمرين « الجدد » الاميركان .. حتى أصبحوا خدما لهم .

كانت بريطانيا تناور وتطاول علها تصل الى الاشراف على الاقتصاد المصري بطريق السد العالي ، أو علها تصل الى الاطاحة بنظام عبد الناصر في أثناء هذه المناورات والمطاولات ، أي باختصار ، علها تعيد مصر الى منطقة استعمارها . وكانت تحتج مثلا بأن مصر توسع علاقاتها مع الدول الاشتراكية وتعقد القروض مع هذه الدول وتشترى الاسلحة منها ، وذلك لتماطل في توقيع اتفاقيـة المساعدة لبناء السد . مع ان الاستعمار الاميركي كان ينظر « بعقل أوسع » الى كل تلك الصفقات من البلاد الاشتراكيـة ، صفقات الاسلحة وغيرها ، وذلـك لاظهار « زعامة » ناصر وحفظ « هيبته » في البلاد العربية ، ولكي لا يختلف السلاح المصري عن السلاح السوري ، ولا تتعقد بالتالي علاقةالجيشين المصري والسوري ، العلاقة التي كان ناصر يبنى عليها تآمره علينا . وصحيح أن أميركا كانت تحمل حملات كبيرة على تلك العلاقات مع البلاد الاشتراكية ، الا أن هذا كان من باب الخداع والدجل لتغطية عبد الناصر ، الذي كانت وما تزال « تثق » به ، ومن جهة اخرى لكي لا تنتشر هذه « الموضة » ، « موضة » العلاقات بالبلاد الاشتراكية ، بدون لزوم ومن قبل آخرين لم يصل الاميركان الى التحكم بهم عن طريق فئات انتهازية كالناصرية .

يقول عبد الناصر في الخطاب الذي القاه في نادي ضباط القاهرة ، في ٩ آذار ١٩٥٧ ، ما يلي :

« اننا خاطرنا عام ١٩٥٥ حين قررنا عقد صفقة الاسلحة مع تشيكوسلوفاكيا ، كان هناك من اعتراهم الخوف والذعر ، وقالوا ان اميركا لن تغفر لنا هذا (كذا ! ٠٠) فقلت لهم ان اميركا لن تحاربنا « (وهذا يعني بلغة ناصر الديماغوجية : ان اميركا لن تزعل) وأما الدول الاخرى فلا خطر منها على مصر » ٠

ولقد تغاضت أميركا عن شراء مصر للاسلحة من الكتلةالاشتراكية لانها كانت أيضا تعد العدة لجر العرب الى معركة مع بريطانيا ، لا لصالح الشعوب العربية ، ولا في مكان يعينه العرب أنفسهم ويتلاءم مع ضرورات كفاحهم ضد الاستعمار ، وانما لصالحها وفي مكان تتمكن فيه من منع المعركة من التوسع الى جميع مواقع الاستعمار ، بما فيها مواقعها هي بالذات : لجر العرب الى معركة السويس مثلا حيث تكون الناصرية في قيادة المعركة ٠ وفي هذه الحالة يكون السلاح الاميركي محرجا جدا للاستعمار الاميركي تجاه شريكه في الاحلاف وغريمه في الاسلاب ، تجاه الاستعمار البريطاني ٠

قلنا ان الاستعمار البريطاني وقع في فخ الاميركان عندما قبل « تزعم » عملية السد العالي وحاول جر هؤلاء الاميركان الى مساعدته في هذه المناورة التي كان يهدف بها الى العودة لمصر ٠ فكان الاميركان يشجعون مماطلات البريطانيين في التوقيع على الاتفاقية و « يشاركونهم » رياء « بالخوف من تغلغل النفوذ السوفياتي » ومن « ازدياد ارتباط الاقتصاد المصري باقتصاد الكتلة الاشتراكية » ٠

يقول ايدن في الجزء الثاني من مذكراته ، صفحة ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ما يلي :

« ومع مضي الاشهر ، ازدادت نسبة ما ينفق من واردات مصر ، لاداء أثمان ما ابتاعته من أسلحة من دول ما وراء الستار الحديدي ، وقد جزعنا (كذا ! ..) لما تقوم به مصر من رهن لاقتصاديات بلادها ، وكان عبد الناصر يقابل عتابنا ، في هذا الصدد ، ومناشدتنا التوقف عن هذا السبيل ، اما بالتجاهل ، أو بالتذرع بما تقوم به اسرائيل ..

« وشرع وزير الخارجية سلوين لويد ، في العمل وتبادل وجهات النظر مع حكومة الولايات المتحدة الاميركية فوجد من وزارة خارجيتها مشاركة لنا في شكوكنا الحاضرة ، وقلقنا من مستقبل المشروع .. »

لقد كانت صفقة الاسلحة التشيكية في أيلول عام ١٩٥٥ ، وكان قبلها مؤتمر بندونغ ، وقبل هذا كانت سياسة الحياد ، كما ان الصفقات مع البلاد الاشتراكية لم تنقطع ، لا قبل ولا بعد ، فكان شراء البترول من رومانيا ، وشراء مختلف المعدات من تشيكوسلوفاكيا وغيرها من البلاد الاشتراكية ، وكان بيع قطن مصر الى الصين والاتحاد السوفياتي الخ .. وكل هذا لم يمنع بريطانيا من الدخول في محادثات بناء السد في مطلع عام ١٩٥٦ ، وعلى الاخص لم يمنع أميركا من قبول المساهمة بالمساعدة ، ولم يمنع يوجين بلاك ، مدير البنك الدولي الذي يشرف عليه المساهمون الاميركان ، من أن يأتي الى القاهرة ، وان يعلن في ٩

شباط ٩٥٦ موافقته على أسس المشروع المذكور • فالواقع يكذب اذن ايدن عندما يدعى بأن « الخوف كان يتملكه على اقتصاد مصر فكان لذلك يتردد في المضي في تعهد المشروع » • والاصح انه كان يماطل ويسوف ليضغط على مصر في غاية اعادتها الى نفوذ دولته الاستعمارية • فقد قال :

« وكنت أفضل التريث في هذا الموضوع الى أطول مدة ممكنة ، وان لا أصل الى النتيجة بسرعة لا سيما ولم يكن هناك داع للاسراع ••»

(ذات المرجع السابق)

وما كان قبول اميركا بادىء الامر المساهمة في هذا المشروع الا « لتوريط » بريطانيا في المضي فيه ، وهي تعلم انها قادرة على نسفه في الوقت الذي تريده ، بسبب « افلاس » الانجليز (الذين كانوا يتوهمون انهم يجرون الاستعمار الاميركي الى « خدمة » خطتهم في التسويف بدخول هذا الاستعمار تحت زعامتهم في تعهد هذا المشروع) • فخطة الاميركان كانت افتعال قضية « يتورط » الانجليز « بتزعمها » ، ثم العمل على « زيادة حجم هذه القضية بنفخها » ثم •• « تفريغها » في الوقت الذي يناسبهم ، وليس في الوقت الذي يناسب مناورات الانجليز ويناسب تسويفهم :

« •• لكن الامور لم تجر لسوء الحظ كما شئت •• ورأى المستر دلس في التاسع عشر من تموز •• نفسه مضطرا الى ابلاغ السفير المصري ، الغاء العرض السابق (الغاء مساهمة أميركا في السد) ، وقد بلغنا القرار دون أن

نستشار به مسبقا ، وهكذا لم تتح لنا الفرصة لنقده أو التعليق عليه ..»

(ايدن ، المرجع السابق).

ان هذا الانسحاب الاميركي المفاجىء كان « صفعة » لمخطط التسويف والمماطلة الانجليزية أكثر بكثير من كونه موجها الى « الصديق » جمال عبد الناصر . فقد أعطى الاميركان « صديقهم » هذا فرصة لتأميم القناة في مناسبة ملائمة جدا ، مناسبة عيد الثورة : كان الانسحاب الاميركي في ١٩ تموز ، والعيد في ٢٣ تموز . لقد كان هذا موضوعا دسما لخطاب دسم في عشية العيد . ولسنا ندري سببا للتجلي المفاجىء « لخوف دلس من سياسة الحياد الناصرية ومن علاقات الناصرية بالعالم الاشتراكي » في هذا التاريخ بالذات : قبل أعياد الثورة بأربعة أيام ، لسنا ندري سببا الا اعطاء الفرصة لعبد الناصر ليؤمم القناة بذلك الاسلوب المسرحي ، ثم ليجر العرب الى المعركة في هذا المكان الذي حدده الاستعمار الاميركي بمناوراته الآنفة الذكر ، حيث يصطدم الكفاح العربي (بقيادة انتهازية هي الناصرية) بالاستعمار البريطاني .

وكان بوسع عبد الناصر ان يؤمم القناة دون اللجوء الى حجة انسحاب اميركا وشركائها من تمويل بناء السد . الا ان « التمثيلية » التي بنيت على « السد » تغطي علاقة عبد الناصر بالاميركان الذين انسحبوا من العملية قبل انسحاب « زعماء » هذه العملية ، قبل انسحاب الانجليز . كما انها (التمثيلية) تظهره بمظهر العدو الكبير للغرب المستعمر فيحارب الانجليز بالعرب ... ويكتفي بشتم الاميركان

قليلا . اضف الى هذا ان تأميم القناة « بدون سبب » (بنظر الاستعمار ، لان هنالك كل الاسباب لطرد الاستعمار من كل مكان على وجه الارض) يجبر الاميركان على الوقوف ، ولو في الظاهر ، الى جانب حلفائهم ، ويعطل بالتالي مناوراتهم ضد هؤلاء « الحلفاء » اثناء قيام الازمة ، المناورات التي سنراها فيما يلي من البحث .

ملاحظة : قد يتساءل المرء عن السبب الذي يدعو اميركا الى عدم « الغضب كثيرا » على عبد الناصر عندما يعقد هذا اتفاقية بناء السد مع السوفييت . والجواب على هذا بيناه فيما سبق عندما قلنا ان الدول الاستعمارية لا تقبل بتجميد رؤوس اموالها في مشاريع طويلة الاجل ، الا لاصطياد منافع تفوق بكثير ارباح هذه الاموال ، منافع سياسية واقتصادية . واميركا ما كانت بحاجة الى مثل هذه المشاريع الضخمة لاصطياد مصر ما دامت الناصرية في خدمتها في هذا القطر الشقيق . اضف الى هذا ان بناء السد من قبل السوفييت لن يقلل من اخلاص هذه الناصرية للاستعمار الاميركي .

ازمة القناة

وجد الاستعمار البريطاني ، وخاصة منه تيار الاستعماريين من الطراز القديم ، التيار الذي كان يتزعمه ايدن ، وجد هذا الاستعمار ان الفرصة قد سنحت للعودة الى مصر عن طريق القوة بمناسبة تأميم عبد الناصر للقناة . كانت هذه المناسبة ، برأي الاستعماريين الانجليز ، هي « الفرصة » للاطاحة بعميل غرمائهم الاميركان ، الفرصة التي طالما انتظروها ، عندما كانوا يساومون ويماطلون في محادثات بناء السد

العالمي . لقد قلنا ان هؤلاء الاستعماريين قبلوا الدخول في مساومات بناء السد للوصول الى واحد من هدفين :

– ان يجتذبوا الناصرية بالمشروع المذكور فيعيدوا مصر الى شبكة نفوذهم عن طريق اشرافهم على اقتصاد مصر كله ، الاقتصاد الذي كان يجب ان « يرهن » لديهم « ضمانا » لرؤوس اموالهم العاملة في بناء السد .

– ان يجدوا في اثناء تلك « المساومات » الفرصة للاطاحة بالناصرية واستبدالها بحكم آخر اقرب الى مدرسة نوري السعيد .

وقد ظنوا ان هذه « الفرصة » قد سنحت باقدام عبد الناصر على تأميم القناة ، وظنوا ان مطاولاتهم ومماطلاتهم طيلة الاشهر التي سبقت التأميم قد آتت اكلها « بنفاذ » صبر عبد الناصر واقدامه على هذا الفعل « المتهور » ضد سيدة البحار ... (في القرن الماضي) . وما كان هؤلاء « الاذكياء » ليتمكنوا من رؤية تغيرات العصر ، وما كان يدور بخلدهم ، على الاخص ، ان الاستعمار الاميركي كان يعد العدة ليجعل من تلك المماطلات والتسويفات ، ومن قطعها فجأة « فرصة » لتدميرهم نهائيا في مصر ، وللحلول مكانهم .

وكان تأميم القناة « فرصة » ايضا للاستعماريين الانجليز من الطراز القديم « ليثبتوا » للاستعماريين الانجليز الآخرين من الطراز الحديث ان اساليب القرن التاسع عشر ما زالت قائمة ، وان « لاشيء قد تغير في الدنيا » . وكما كانت مظاهرة عدد من البوارج البريطانية تجبر السلطان على الركوع لجبروت سيدة البحار في الايام « الطيبات »

الخوالي ، وكما كان فوج من بضع مئات المغامرين الاشقياء يتمكن من احتلال عاصمة قارة الصين تحت العلم البريطاني ويرغم مئات ملايين « المتوحشين » على اطاعة امر « المتمدنين » الاوربيين بالاستمرار يتعاطى الافيون (لقد كان اسمها حرب الافيون) ، لان هذه « الطاعة » توفر الارباح الخيالية « للمتمدنين تجار المخدرات » على حساب « المتوحشين » ، فان نزهة عسكرية في اتجاه مصر تكفي ، برأي ايدن وجماعته من المستعمرين القدماء ، لاعادة هذا البلد الى « ظل الحماية ».

يقول ايدن في الجزء الثاني من مذكراته صفحة ٢٣٧ ما يلي :

« وقررت الحكومة (يا لطيف !...) بعد ان درست الوضع ، بتعمق ، في صباح ذلك اليوم ـ الجمعة ـ (صباح التأميم) انها لا يسعها ، ان تسمح لعبد الناصر ، باغتصاب السيطرة على القناة ، متحديا بذلك ، جميع الاتفاقات الدولية ... وقررت الحكومة ، وجوب تأمين مصالحنا الحيوية في هذه المنطقة حتى ولو بالقوة والعمل العسكري ، اذا اقتضت الضرورة لذلك ، كما قررت اتخاذ الاستعدادات اللازمة لهذا الاجراء ... وعلى الحكومة البريطانية ، اذا لزم الامر ، ان تعمل بمفردها ، وان لا تتردد في استخدام القوة لحماية مركزها. هذه هي وجهة نظرنا التي سجلناها ذلك اليوم (وجهة نظر المستعمرين من الطراز القديم ، وجهة النظر التي اوصلته الى جامايكا ... واتت بماكميلان الذي يستميت هذه الايام في كسب رضاء اسياد الاستعمار الحديث

الاميركان) ، وما زلت متمسكا بها حتى يومنا هذا » .

وبينما كان هؤلاء الانجليز يجدون في التأميم « فرصة » لتوطيد استعمارهم المتزعزع في المنطقة كلها ، وليس في مصر وحدها ، وذلك بناء على القول السابق لايدن ، كان الاميركان لا يرون في هذا التأميم الا حلقة من سلسلة مناورات رأيناها فيما سبق ، وهي تنتهي بطرد الانجليز من المنطقة باجمعها ، وليس من مصر وحدها ، والحلول مكانهم : في « الفراغ الذي خلفوه » ، والذي « اكتشفه » ايزنهور .
ويستمر ايدن في استغلال « بلاهة » الاميركان لجرهم الى « خدمة » اغراضه الاستعمارية فيرسل برقية الى ايزنهور في السابع والعشرين من تموز :

« قمت في صبيحة هذا اليوم باستعراض الموقف كلية مع زملائي في الوزارة ورؤساء اركان الحرب واتفقنا جميعا على انه ليس في مكنتنا ان نسمح لعبد الناصر بتسلم الاشراف على القناة بهذه الطريقة ... اما اذا تقاعسنا ، فنحن واثقون ، من ان نفوذنا ونفوذكم في الشرق الاوسط كله (اقرأ من فضلك : استعمارنا واستعماركم في الشرق الاوسط كله) ، سينهار دفعة واحدة » .

ويتظاهر الاميركان بالوقوف في صف حليفتهم بريطانيا في بادىء الامر ، لا لمساعدتها في استعادة ما فقدته ، وانما للاستمرار في تمثيل دور « الابله » تجاه « الاذكياء » من زمرة ايدن ، ومن جهة اخرى

للتهويل على الشعوب العربية في هدف تجميد حركتهم الوطنية الجارفة لمنعها من ان تتجاوز الحدود التي رسموها لها ، ولتصبح هذه الحركة اكثر طواعية للقائد الانتهازي الذي نصبوه لقيادتها بمناورة التأميم (لتصبح اكثر طواعية لعبد الناصر) . وتظاهر دلس ، عندما اتى الى لندن اول مرة بعد التأميم ، بغضبه الشديد على عبد الناصر ، ليزيد من خداعه للبريطانيين وليستوثق من تصميمهم على اتباع اساليب مستعمري القرن التاسع عشر ، الاساليب التي لا تقف امام « مرونة » و « مكر » الاستعمار الحديث ، ولا تقف ابدا امام التقدم الهائل لوعي الشعوب حقها في الحرية والتقدم .

يقول ايدن في الجزء الثاني من مذكراته ، صفحة ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ما يلي :

« ولخص المستر دلس ، في اجتماعه الاول بوزيري الخارجية الآخرين (الانجليزي والفرنسي) في الاول من آب ، آراءه على الصورة التالية :

١ ـ ان بقاء القناة تحت سيطرة دولة واحدة دون اي اشراف دولي ، شيء لا يطاق .
٢ ـ علينا ان نتخذ ميثاق ١٨٨٨ اساسا للبحث ...

٣ ـ القوة هي آخر طريقة يمكن اللجوء اليها ، لكن الولايات المتحدة لا تستبعد استعمال القوة ، اذا فشلت جميع الوسائل الاخرى .
٤ ـ علينا ان نعبىء الرأي العام العالمي لتأييد فكرة ادارة القناة دوليا ...

وقال دلس في المناقشات التي تلت بعد ذلك في نفس الاجتماع : علينا ان نجد طريقة نحمل بها عبد الناصر على ان يلفظ ما يحاول ازدراده ••• ويجب ان نتمكن من خلق رأي عام عالمي ، معارض لعبد الناصر ••• فاذا تطلب الامر القيام بعملية عسكرية (اي في حالة احتمال خروج الامر من يد المستعمرين جميعا ، ومن جملتهم الاميركان ، وطغيان الحركة الوطنية العربية بحيث يفقد اصدقاء اميركا ، يفقد عبد الناصر السيطرة عليها الخ •••) ، آنذاك ، كانت امكانيات العملية العسكرية في النجاح اعظم وتكون عواقبها اقل خطورة مما يتركه عمل متسرع ومرتجل (وقد يودي بالانتهازية العربية وبالرجعية العربية وبالاستعمار معها)•

واجرى دلس عدة محادثات ••• وقد شجعتنا تصريحاته ••• لقد كانت كلمات صريحة ظلت تدوي في اذني عدة اشهر » •

ومضى المستعمرون الانجليز والفرنسيون في استعداداتهم العسكرية والسياسية ، واجتمع مؤتمر الثماني عشرة دولة في لندن ، واتفقت الدول الاستعمارية ، بما فيها اميركا ، على تدويل القناة • وكانت بريطانيا مسرورة جدا من سلوك الاميركان في هذا المؤتمر • فقد ابرق ايدن الى الرئيس الاميركي قائلا :

« ابعث اليك بهذه الرسالة لاشكرك ، على كل المساعدة التي قدمها فوستر • وعلى الرغم من انني لم اتمكن من حضور المؤتمر شخصيا ،

الا انني سمعت الثناء من جميع الجهات على خطبه البارزة ... »

(المرجع السابق ، صفحة ٢٧٣)

وبعد ان استوثق الاميركان من ان الانجليز جادون في «التورط» عسكريا في السويس ، عندما لا يتراجع عبد الناصر عن التأميم ، وكان في الواقع لا يستطيع ابدا القيام بهذا التراجع الا بثمن سقوطه ، الامر الذي يتحاشاه هو ويتحاشاه معه الاميركان ، نقول بعد ان استوثق الاميركان من ان التدخل العسكري اصبح امرا واقعا ، بدأوا في مناورة الانفصال عن حلفائهم . فاخذوا ، في بادىء الامر ، يطالبون ، رياء ، باستبعاد فكرة استعمال القوة ، في الوقت الذي كانوا يعرفون فيه تماما كل الاستعدادات القائمة لمباشرة العدوان ولا يفعلون اي شيء جدي لمنعه :

« واتخذت القوات الفرنسية مراكزها في جزيرة قبرص في الثامن والعشرين من آب ، وتحتم علينا ان نستعد لتوجيه ضربتنا في غضون اسابيع قليلة ، اذا صحت عزيمتنا على توجيهها (اي اذا لم تركع مصر على ركبتيها امام الاستعمار البريطاني) » .

(المرجع السابق صفحة ٢٨٠)

واستمر الاميركان بالانفصال عن حلفائهم ، بعد ان استوثقوا من تصميمهم على العدوان ، فلم يجمدوا مثلا ارصدة مصر الا جزئيا ، ورفضوا مقاطعة الادارة المصرية للقناة مقاطعة كلية ، وابتدعوا فكرة المنتفعين بالقناة ثم نسفوها الخ ... ووصل الامر بهم الى نعت حلفائهم

بالاستعماريين ، فيقول دلس في الثاني من تشرين اول ما يلي :

« لا يمكن للولايات المتحدة ان تقف مائة في المائة ، لا الى جانب الدول الاستعمارية ، ولا الى جانب تلك الدول التي تجعل شغلها الشاغل الحصول على استقلالها كاملا باسرع وقت ممكن • وانا اعترف ، بان هنالك خلافات في طريقة معالجة الدول الثلاث لمشكلة السويس ، وهذه الخلافات راجعة الى تباين اساسي في المفاهيم • اذ بينما نقف صفا واحدا ، وارجو ان يستمر هذا الوقوف دائما ، في علاقاتنا التعاهدية المتعلقة بشمال الاطلنطي ، فان اية منطقة تعاني بشكل او بآخر من المشكلة التي يسمونها « الاستعمار » ، تعرف ان الولايات المتحدة ، مضطرة الى القيام تجاهها بدور مستقل (اي ان على بريطانيا ان تمضي وحدها من الآن فصاعدا) » •

(المرجع السابق صفحة ٣٣٧)

وليس احسن من الاستعماري الآخر ، ايدن ، للرد على هذا الاستعماري ، الذي هو دلس ، والذي يفضح الاستعمار القديم بقوله السابق •

يقول ايدن :

وتختلف وجهة نظر الولايات المتحدة في موضوع الوصاية (اي الاستعمار) عن وجهة نظرنا ، تمام الاختلاف ، فهي ترى ان لا ضير في انفاق مبالغ ضخمة من رؤوس الاموال في تطوير احدى البلاد ، للحصول على ارباح كبيرة من وراء

هذه العملية .. فالحقيقة قائمة في أن ثمة بلدين من اكثر بلاد الشرق الاوسط وافريقيا تأخرا وهما العربية السعودية وليبيريا ، هما ايضا وفي الوقت نفسه ، اكثر بلدين ، تلعب فيهما المصالح الاميركية دورا بارزا .

(المرجع السابق ص : ٣٤٠)

فيا لايدن المسكين الذي كان ينتبه الى الحقيقة ، في بعض الاحيان ، فيعرف الاستعمار الحديث بهذه البلاغة المعجزة ، الا انه ما كان يحاول الاستفادة من هذا « الانتباه » ، فكان يسير بعناد في طريق العدوان . الطريق الذي رسمه له هذا الاستعمار الحديث ليتحطم عليه .

وليس صحيحا ابدا ان الاميركان كانوا غير عالمين بالتحضير للعدوان وبالنية على ارتكابه . ان دخول اسرائيل في مخطط الانجلو ـ فرنسيين كان اكثر من كاف لوقوف اميركا على كل شاردة وواردة في كل ما كان يخططه أولئك العدوانيون . فاسرائيل التي قال عنها هندرسون وكيل وزارة الخارجية الاميركية ، في مؤتمر استمبول عام ١٩٥٧ ، اثر اكتشاف مؤامرة ستون في سورية :

ونحن نستطيع ان نمنع اسرائيل من التدخل « فاذا رفعت اصبعا واحدا يكون فناؤها وهي تفهم ذلك (لكن بعض العرب لا يفهم ذلك ، ومن هذا البعض عبد الناصر طبعا ...) .

(من وثائق حلف بغداد ، الجزء الرابع

من كتاب محكمة الشعب ، الصفحة ٢٩٣)

نقول : ان اسرائيل ، التي قال عنها هندرسون هذا القول ،

لا تستطيع ابدا ان تخفي عن اميركا ما كانت تتآمر به بكل تفاصيله • ثم اين جواسيس اميركا في كل من انجلترة وفرانسا واسرائيل وقبرص ؟ وهل من المعقول ان يكون هؤلاء نياما فلا يعلمون حكومتهم بما كانت تلك الدول تنوي القيام به من عدوان على مصر ؟ ••• وقد قام عدد من الملحقين العسكريين الاجانب ، منذ اواخر شهر آب ، بابلاغ القيادة السورية من ان العدوان واقع لا محالة ، وذلك لنأخذ حذرنا ونستعد لمجابهته • وقد ابلغت مصر بذلك • فلا يعقل اذن ان تكون اميركا جاهلة لنية العدوان • والصحيح انها تجاهلت الاستعدادات العسكرية المحمومة ، وتجاهلت نية العدوان الواضحة للعيان كي لا تتدخل جديا لمنع تحقيقها ، ومن جهة اخرى لتنفصل عن المعتدين بعد وقوع العدوان بحجة انها لم تحط علما به قبل وقوعه • لقد كان موقفها دوما موقف من يرى كل شيء ولا يريد ان يظهر عليه انه يعلم اي شيء • اما القول بان انجلترة لم تكن عالمة بدخول اسرائيل في مخطط العدوان فكان من قبيل « النكتة » :

« واقر دلس (في اوائل تشرين اول) مرة اخرى حقنا في التهديد باستخدام القوة ، على انه يرى ان استخدامها في المستقبل القريب خطيئة كبرى ، ما دام موقف عبد الناصر في رأيه قد اخذ في التدهور ، ويبدو انه لم يكن هناك اي اساس واضح لهذا الرأي الاخير (لتدهور عبد الناصر) » •

(المرجع السابق صفحة ٣٤٢)

ان هذا كان اكثر من تشجيع لانجلترة من قبل دلس ، على

استعمال القوة ، بل انه كان اغراء بتدهور مزعوم لموقف عبد الناصر ، ليتوهم الانجلو - فرنسيون بان نزهة عسكرية صغيرة تكفي للاطاحة بالحكم الناصري .

يقول مؤلفا كتاب « اسرار حملة مصر » ، ميري وسيرج برومبرجير ، في الصفحة ١٥ من النسخة الفرنسية ما يلي :

« ... كان انطوني ايدن يشعر بان اميركا ستغض النظر (عن قيام الانجلو - فرنسيين بالعدوان) . بل ، انه كان يبدي قناعته التامة ، الى السياسيين الفرنسيين ، بان اميركا ستقوم ، بدون مناقشة ، بتموين المعتدين بالبترول ، عندما يقطع ناصر المرور في القناة » .

وكان للعدوان عدد من الفوائد بالنسبة لاميركا :

اولا : يصاب الاستعمار البريطاني بطعنة مميتة في منطقة الشرق الاوسط ، وعندئذ تقوم اميركا مع الانتهازية العربية باحتلال « الفراغ » الذي يخلفه ذلك الاستعمار ، باحتلال « فراغ ايزنهور » .

ثانيا : بالقيادة الانتهازية الناصرية ، تصاب الحركة الوطنية العربية بهزيمة عسكرية تسبب قيام اليأس في قلوب العرب ، الامر الذي يسهل انتشار الدعاية القائلة باستحالة احراز اي نصر عسكري ضد الاستعمار وضد قاعدته اسرائيل .

ثالثا : ان الهزيمة العسكرية تخلق لدى الانتهازية العربية التي يتزعمها عبد الناصر شعورا بضرورة حماية اميركا لها من الانجليز ومن

اسرائيل ، فتزداد هذه الانتهازية ارتماء في احضان الاستعمار الاميركي.

رابعا : يتمكن عبد الناصر من فتح خليج العقبة في وجه التجارة الاسرائيلية ، نتيجة هزيمته العسكرية ، الامر الذي يعذره عليه العرب في غمرة تلك الفوضى الفكرية التي يسببها كذبه ودجله .

خامسا : ان الزعامة التي يكتسبها عبد الناصر ، كضحية للعدوان ، تساعد اميركا في مستقبل الايام على تفتيت وتفكيك الجبهة الوطنية الجبارة في البلاد العربية .

وقد حدث العدوان بالفعل ، وسارع عبد الناصر الى طلب عدم تحرك الجيش السوري والجيوش العربية الاخرى ضد المعتدين ، وخاصة ضد اسرائيل . وذلك لكي لا يمتد النضال العربي ضد مواقع الاستعمار الاخرى ، ولكي يبقى هذا النضال محصورا في منطقة القناة ، ومشلولا في المناطق الاخرى ، اي ليبقى هذا النضال بيد عبد الناصر ومن ورائه الاستعمار الاميركي . لقد كانت خنادق العدو فارغة ، الا من جنود اغرار ، لانشغال جميع قواته في سيناء ، فكان بالامكان توجيه ضربة مميتة ضده . وكنا بينا ان ثورة العراق كانت ناضجة ، حينذاك ، فما كان اذن من صالح الاستعمار الاميركي ابدا ان يمتد لهيب الثورة العربية بعيدا عن القناة ، كي لا يخرج الامر من يد الانتهازية الناصرية ، فكان ذلك الامر العجيب بتجميد الجيش السوري والجيوش العربية الاخرى .

وتدخلت اميركا لصالح عبد الناصر واسرائيل معا ، وليس لصالح الشعوب العربية . ولم تمتد الثورة العربية نتيجة لذلك العدوان وانما

اختنقت في معارك القناة وسيناء ، المعارك التي غابت عنها القيادة الوطنية المخلصة ، فدبت في اثنائها الفوضى ، ولحقت الهزيمة بالجيش المصري. ثم فتح خليج العقبة ، وتحققت كل الاهداف الاميركية الآنفة الذكر .

شطر الدول العربية المتحررة

بعد ان اصيب الاستعمار القديم ، الاستعمار الانجلو - فرنسي ، بالهزيمة الشنيعة في معركة القناة ، كان من المنطقي (في الظاهر) ان يبادر الاستعمار الانجليزي الى ضرب الدول العربية المتحررة في نقطة اخرى ، غير قناة السويس ، وذلك للتعويض عن هزيمته تلك ولحماية مواقعه المتزلزلة في العالم العربي ، المواقع التي تحمي له مصالح هائلة . وكان الاردن اصلح مكان لعمل هذا الاستعمار ، اذ ان له فيه بقايا مدرسة عريقة عمل على اقامتها طيلة اربعة عقود من السنين . الا ان الواقع ناقض هذا الظاهر « المنطقي » فكان ان بادر الاستعمار الاميركي ، وليس البريطاني ، الى ضرب الدول العربية المتحررة في الاردن . فاميركا التي تغاضت عن تقارب هذه الدول ، بل شجعته كما سبق ورأينا ، رأت ان هذا التجمع العربي قد استنفذ اغراضه ، بالنسبة الى خطتها الاستعمارية في المنطقة (بعد ان تزعزع بنيان الاستعمار البريطاني في البلاد االعربية ، اثر هزيمته في القناة) ورأت ان استمراره (التجمع) بعد هذا يهدد كل الاستعمار ، بما فيه استعمارها . لقد قلنـا ان ما يهم الاستعمار الاميركي هو الحلول مكان البريطانيين ، وليس تحرر الشعوب العربية. وكان هنالك خطر اكيد ضد جميع المستعمرين ، وضد اعوانهم الانتهازيين والرجعيين ، من استمرار الزحف العربي ، الى مواقع

الاستعمار الاخرى ، بعد ظفره في القناة ، وذلك على الرغم مما سببته القيادة الناصرية من تشويه وبتر لهذا الظفر . فرأى الاستعمار الاميركي ان الوقت قد حان لابعاد الجماهير العربية عن ساحة الكفاح :

اولا : بتفتيت جبهة الدول العربية المتحررة وتوزيعها بين الانتهازية والرجعية .

ثانيا : بتفتيت الجبهات الوطنية في كل بلد من البلاد العربية .

ثالثا : بسجن الجماهير العربية داخل اسوار الكذب والدجل الانتهازي .

ورأى الاستعمار الاميركي ان يستمر بمطاردة غريمه الاستعمار البريطاني بالانتهازية العربية التي اكتسبت رصيدا جماهيريا كبيرا خلال معارك الكفاح السابقة ، الانتهازية التي تخدمه ايضا في قمع كل اتجاه تحرري صحيح بعد ان انقلبت الى فاشستية دموية . وقد وجه هذا الاستعمار ضربته الاولى الى الاردن ليخرجه من ساحة التحرر ، وليخرج السعودية معه . وبهذا تمكن من شطر الجبهة العربيـة المتحررة الى ثلاثة اقسام : قسم بقيادة الرجعية الملكية ويتألف من السعودية والاردن ، وقسم آخر يتألف من مصر التي تحكمها الانتهازية الناصرية ، وقسم ثالث يتألف من سورية الديموقراطية المتحررة .

ومن المفيد ان نعود قليلا الى الماضي لتتضح لنا بعض النقـاط الغامضة . ففي اعقاب كارثة فلسطين نشطت حركة الضباط الاحرار الاردنيين الذين حاولوا القيام بحركة ضد المستعمرين البريطانيين وضد اعوانهم الذين كانوا يحكمون الاردن . فاتصل زعيمهم حينذاك ، عبد الله التل ، بحسني الزعيم ، ثم كرر اتصاله بقيادة الجيش السوري في

عهد الحناوي • وكان ذلك لضمان قبول انضمام الاردن اليها ، بعد الاطاحة بالحكم العميل لبريطانيا وبالاستعمار البريطاني ، بحركة انقلاب يقوم بها الجيش الاردني بقيادة أولئك الضباط • ولا بد لنا من القول هنا ان شعب الاردن كان وما يزال يرى في سوريا : الشقيقة التي سبقت في طريق التحرر والانعتاق ، فيود دوما وابدا ان يزيل الحواجز المصطنعة التي تفصله عنها ، ولكن في ظل التحرر والتقدم ، وليس في ظل المشاريع المشبوهة •

وقد انتبه غلوب الى ما كان يدبره الضباط الاحرار في الجيش الاردني ، فأرسل بعضهم ببعثات دراسية او بمهمات طويلة الى البلاد الاوربية ، ونقل آخرين منهم الى مراكز ثانوية ، كما اضطر عبد الله التل للفرار من الاردن واللجوء الى مصر • وقد اعتبر القائمون بالحركة الوطنية في الجيش الاردني بهذا الدرس فأصبحوا في تصرفاتهم اكثر حذرا واشد حيطة •

وفكر الانجليز في عام ١٩٥١ بالعمل على ضم الاردن الى العراق ، لانهم كانوا يظنون ان مدرسة نوري السعيد اقدر على حفظ هذا القطر لهم من اعوانهم فيه ، سيما وان ثقتهم بولي العهد آنذاك (الامير طلال بن عبد الله) كانت ضعيفة ، لشعبية هذا الامير من جهة وكرهه لهم من جهة اخرى • وكان الحل الذي تصوروه حينذاك ان يقوم الملك عبد الله بن الحسين بعزل ولده عن ولاية العهد وتسمية الملك فيصل ، ملك العراق ، وريثا لعرش الاردن من بعده • وقد جرت الاتصالات فعلا بين بغداد وعمان بواسطة شخصية لبنانية مارونية في بادىء الامر ، ثم

حاول رياض الصلح اكمال هذه الوساطة فذهب الى عمان حيث لقي مصرعه • ثم اغتيل الملك عبد الله بعد ذلك باسبوع •

ان الاستعمار الاميركي كان منذ تلك الايام ينشط لنسف الحكم البريطاني في عمان • وقد رأى في تلك الخطوة • خطوة ضم الاردن الى تاج العراق ، عائقـا كبيرا في طريق تنفيـذ مخططه في الشرق الاوسط • فشجع قيام جبهـة تضم اديب الشيشكلي والملك فاروق والملك سعود لتحبط مشروع توحيد الاردن والعراق • وليس مـن قبيل الصدف ان يحتمي احد قتلة رياض الصلح ، وهو من الحزب السوري القومي بصلاح الشيشكلي ، شقيق اديب الشيشكلي ، طيلة حكم هذا الاخير لسورية ، وان يسهل حكم الشيشكلي الفرار لاحد كبار المتهمين في قتل الملك عبد الله الى السعودية ، حيث اصبح مستشارا مقربا للملك هناك • وقد ادان التحقيق الملك فاروق بالاشتراك في هذا الامر •

وكان الكولونيل « سويني » الملحق العسكري الاميركي ينشط نشاطا كبيرا في اوساط المجتمع الاردني ، سيما في اوساط ضباط الجيش وبين عشائر البدو • فكان يقوم بينه وبين غلوب صراع مميت • ولقد كان هذا الضابط الاميركي يشتم علنا الاستعمار البريطاني ويحرض عليه كل من يلقاه في عمان ، حتى انه كان في بعض الاحيان يحمل اطلسا لمستعمرات بريطانياليعرضه عـلى الضباط الاردنيين وغيرهم ، محاولا بهذا ان يظهر مدى امتداد هذا الاستعمار في العـالم ومدى اضطهاده لبني الانسان (وكان ينسى طبعا شراسة الاستعمار الاميركي وجرائمه في كل انحاء العالم •)

وكانت السفارة الاميركية تهتم بامور الزراعـــة في الصحراء ، فتساعد البدو على بناء السدود للري وعلى اتباع الاساليب الحديثة في الزراعة الصحراوية . ومن الواضح ان هذه الاعمال كانت لتسهيل اتصال الاميركان بالبدو . وما كان غلوب نائما عن هذا النشاط ، بل انه كان يفعل كل ما بوسعه لعرقلته . ففي مرة من المرات مثلا حاول الاميركان اقامة بيارة لشيخ عشائر الحويطات ، حمد باشا الجازي ، فتدخل غلوب و « اقنع هذا الشيخ برفض هـــذه النقطة الرابعـــة الاميركية » . ووصل الامر الى ان عشائر الحويطات هذه ، بتحريض من غلوب منعت الملحق العسكري الاميركي ، وكل من يمت الى السفارة الاميركية بصلة ، من ارتياد مرابعها .

وشجعت السفارة الاميركية توثيق الصلات الودية بين البيت المالك وبين السفارة المصرية ، فكان رجال السفارة الاميركية ، وخاصة منهم الملحق العسكري « سويني » ، ورجال السفارة المصرية كثيرا ما يلتقون في سهرات عائلية تضم الملكة الوالدة او غيرها من افراد الاسرة المالكة . وقد ادى هذا التقارب الى قيام الملكة الوالدة والملك حسين بعدد من الزيارات الى القاهرة ، حيث كان حكم عبد الناصر قد توطد حينذاك . وانتهى الامر الى ان الحكم المباحثي المصري تمكن « بتمثيلياته » من ايقاع الملك بزواج امرأة مباحثية ، هي الملكة دينا . وقد اكتشفت انا بنفسي ، صدفة ، صلة هذه الامرأة بالمباحث المصرية ، وذلك عن طريق يوسف البنـــدك ، المباحثي المشهور وصاحب الماضي القاتم كعميـــل بريطاني .

وكـــان البريطانيون ينظرون بقلق كبير الى هـــذه العلاقات

الاميركية ـ الناصرية ـ الملكية ، سيما وان الناصرية كانت تستغل لجوء عبد الله التل الى مصر للتقريب بين الملك وبين الضباط الاحرار الذين لم تنقطع صلتهم بالتل ابدا • وبعد طرد غلوب وضعت المخابرات الاردنية يدها على رسالة ارسلها السير باتريك كوك هل ، مدير المباحث العامة في الاردن ، الى محمد السحيمات الذي كان يرافق الملك حسين في رحلاته الى مصر • وقد حمل هذه الرسالة الملازم سلامة هويمل وهي تتضمن وجوب مراقبة الملك حسين وكشف اتصالاته بالمصريين وبعبد الله التل • وتقول هذه الرسالة ، من جملة ما تقوله :

« ••• انك ربما تفاجأ بان خلف حدادين يعمل معنا • فاذا لم تستطع مراقبة الملك جيدا ، اخبرنا بكلمة لنرسل خلف لمساعدتك ••• »

وخلف حدادين هذا كان يتظاهر بالتعصب « للقومية العربية » • فكانت له اتصالات واسعة في مصر وفي الاردن • وكان يحمل رسائل السلطات الناصرية ، ورسائل عبد الله التل الى الملك حسين ، الا انه كان يسلم في ذات الوقت نسخة عن هذه الرسائل الى غلوب • وقد حاول هذا « الحدادين » المجيء الى سورية كلاجيء ، في عام ١٩٥٧ بعد انقلاب الزرقاء ، وذلك ليتجسس على اللاجئين الاردنيين ، الا ان السلطات السورية اعادته الى الاردن •

وفي مطلع كانون اول ١٩٥٥ وصل السيد جيرالد تمبلر الى عمان ليمهد طريق انضمام الاردن الى حلف بغداد • فعمت المظاهرات الشعبية جميع انحاء الاردن تشجب زيارة هذا المندوب الاستعماري وتشجب حلف بغداد • وانعكست تلك الموجة الوطنية الطاغية على

ضباط الجيش الاردني وافراده • وكان الضباط الاحرار في تلك الاثناء ينشرون خلاياهم في جميع قطعات الجيش • وما كان من شيء حينذاك يقف امام الشعب الاردني المسلح بجيشه الذي نذر نفسه لانقاذ الوطن من المستعمرين واعوانهم • الا ان الاستعمار الاميركي الذي طالما تآمر على غريمه الاستعمار البريطاني في هذا البلد الشقيق ، لا يفرح كثيرا بهذه الحالة التي تهدد وجوده مع وجود الاستعمار البريطاني في المنطقة • وصحيح ان السعودية كانت طيلة عام ١٩٥٥ وحتى طرد غلوب تبذل الاموال الوفيرة وتبذل كل مابوسعها لعرقلة انضمام الاردن الى حلف بغداد ، وصحيح ان الناصرية بذلت كذلك الاموال الطائلة وفعلت كل ما بوسعها لمحاربة حلف بغداد في الاردن ، فكانت محطة صوت العرب تهدر بمهاجمة هذا الحلف طيلة عام ١٩٥٥ وحتى طرد غلوب ، الا ان هذا كله ، نشاط الرجعية السعودية ونشاط الانتهازية الناصرية ، ما كان من اجل الشعب الاردني ، وانما خدمة للانتهازية التي كانت وما زالت ابدا تحمل الاستعمار الاميركي على ظهرها • ان استمرار ثورة الشعب الاردني ، التي بدأت بزيارة تمبلر لعمان ، واتساع هذه الثورة وشمولها الجيش الاردني الذي كان حينذاك على اتم استعداد لمؤازرة الشعب في انقاذ الوطن من المستعمرين الانجليز ، كل هذا كان يؤدي حتما الى تحرر الاردن والى عودته الى الام سورية • الامر الذي يشعل النار المقدسة في كل المنطقة العربية الاسيوية ، يشعل نار الحرية التي كان بالامكان ان تأتي على الاستعمار منذ تلك الايام في العراق وغيرها • وهذا

ما عمل الاستعمار الاميركي على تلافيه بمساعدة الانتهازية الناصرية ، وبمساعدة الرجعية الملكية . لقد توسط عبد الناصر ، كما رأينا ، لينضم الملك الى جماعة الضباط الاحرار ، ومن الطبيعي بعد هذا ان تستبعد « الجمهورية الاردنية » ، وان تستبعد عودة الاردن الى سورية الام . الامر الذي يفيد كثيرا توسع الانتهازية الناصرية ، الانتهازية التي تريد ان تبتلع الاقطار العربية الواحد بعد الآخر ، والتي تجد في التحرر الحقيقي حاجزا قويا امام مدها فتفضل عليه حواجز الرجعية الضعيفة . لقد قال عبد الناصر في رسالته الشهيرة الى الملك حسين بانه « ساهم في خلق اسطورة الملك الشاب ، الملك البطل » ، ونحن نفهم الآن جيداً ما يعنيه هذا « الخلق » .

وسكت عبد الناصر فجأة عن الاردن عندما اصبح اعوان الاميركان في الحكم فتشكلت وزارة ابراهيم هاشم وكان فيها سمير الرفاعي وزيرا للخارجية ، ثم قامت وزارة سمير الرفاعي الذي ارسل اليه عبد الناصر بتهانيه « القلبية » . **وفي اول اذار ١٩٥٦ طرد غلوب باشا من الاردن** بامر من الملك حسين ، الذي كان قداجتمع قبل هذا بالضباط الاحرار . فكان ذلك ظفرا تستبعد به « الجمهورية الاردنية » لصالح ملكية متحالفة مع الانتهازية الناصرية ، برعاية وبركة الاميركان . اليس هذا اجدى بكثير على الاستعمار الاميركي من حركة وطنية نظيفة يقوم بها الشعب مع جيشه ؟

وبعد معركة القناة بدأت المناورة الاميركية التي كانت تهدف الى انتزاع الاردن والسعودية من الخط التحرري ، اي الى تحطيم جبهة

الدول المتحررة . وكان لكل من الرجعية الملكية والانتهازية العربية مكان معين في تلك المناورة :

– كان دور الرجعية الملكية القيام بالهجوم الاساسي على حركة التحرر العربي ، فتعمل على تغيير اتجاه السعودية من الوقوف في وجه الغرب المستعمر الى رفع راية الاستعمار الاميركي وقبول مبدأ ايزنهور والدعوة له ، ثم تعمل على نسف الحكم الوطني في الاردن لاستبداله بحكم رجعي عميل للاميركان ، ثم تتابع الهجوم بعد ذلك لنسف الحكم الوطني في سورية .

– اما الانتهازية فما كان باستطاعتها القيام بالدور السابق ، الدور الذي قامت به الملكية ، لان هذا كان يعريها امام الجماهير في تلك المرحلة التي لم يكن الامر فيها قد استتب بكليته لها ، وكانت بحاجة حينذاك الى الدجل والتظاهر كذبا بالبقاء في الصف الوطني . الا ان دورها كان تفريق هذا الصف والعمل على تحطيمه من الداخل ، الامر الذي يسهل المهمة الانفة الذكر للرجعية الملكية .

وهنا لابد لنا من ان نلاحظ ان السير التاريخي الحالي في منطقتنا يضع الرجعية بين شقي الرحى . فهي من جهة عدوة للجماهير التي تزحف لتصفيتها ، ومن جهة اخرى لا يثق الاستعمار الحديث بها ويفضل عليها الانتهازية . ويستخدمها هذا الاستعمار الآن لتمهيد الطريق امام الانتهازية ، كعامل يدفع بالجماهير الى احضان هذه الاخيرة . ونجد ايضا ان الرجعية تشكل الآن حارسا موقتا لمصالح الاستعمار الحديث (ريثما ينضج استبدالها) وتشكل ترسا يحتمي هذا الاستعمار وراءه ،

فتتجه كل سهام الانتهازية نحوها في الوقت الذي تغفل فيه هذه الاخيرة الاستعمار الحديث عن عمد ٠

وكان اعلان ايزنهور عن وجود فراغ بخروج الاستعمار البريطاني مهشما من معركة القناة ، اشارة لبدء تنفيذ مخططه الجديد في منطقتنا ٠ وقد اعلنت حكومة النابلسي الوطنية رفض هذا المبدأ ، جملة وتفصيلا ٠ كما رفضته سورية ، بينما اعلن عبد الناصر ان « القومية العربية هي التي ستملأ الفراغ المزعوم » ، وهو يعني بهذا ان « الناصرية » هي التي ستملأ الفراغ لحساب الاستعمار الاميركي ٠ اما السعودية فقد قبلت بالمبدأ ، بعد رحلة قام بها الملك سعود الى واشنطن في مطلع عام ١٩٥٧ ٠ وبهذا انفصلت هذه الدولة عن جبهة الدول العربية المتحررة ، وتحققت بهذا الانفصال الخطوة الاولى من المخطط الاميركي ٠ وسنرى فيما يلي من البحث ، عندما سنتكلم عن سورية ، حكاية الشيخ يوسف ياسين الذي حاول اقناعنا بقبول مبدأ ايزنهور وبتغيير السير التحرري الذي كنا نسير فيه ٠

وعندما رفضت حكومة النابلسي مبدأ ايزنهور وجه الملك حسين خطابا بالراديو يتهم به هذه الحكومة « بالشيوعية » وينذرها بتغيير خطها الوطني ٠ وكان في هذه الاثناء احمد الكحيمي ، سفير السعودية في عمان ، يجتمع ببعض الضباط الاردنيين ، وخاصة منهم على ابو نوار قائد الجيش الاردني آنذاك ، ويحاول اقناعهم بتشكيل حكومة عسكرية ٠ وما كان هذا السعي « يزعج » كثيرا ابو نوار الذي كان يحلم بمنصب رئيس الوزراء ٠ ان هذا الشخص معروف بخفته وتقلبه ٠ وقد ساير

في بادىء الامر السعوديين كثيرا وقبل منهم الهدايا . وكان لموقفه الملتوي بين الضباط الاحرار وبين حكومة النابلسي الوطنية وبين القصر اثر حاسم في نسف الحكومة الوطنية الاردنية . فكان في تلك الظروف الحرجة يهدد الحكومة ويشعرها بعدم ولاء الجيش لها ، مع ان الواقع كان على عكس هذا تماما . فالضباط الاحرار طمأنوا الحكومة اكثر من مرة ، بل انهم عرضوا عليها عند اشتداد الازمة توقيف جميع اعوان الاستعمار الاميركي ، بعد ان وضعوا لذلك خطة مفصلة . الا ان ابو نوار نسف هذا العرض بمناوراته الملتوية وبتشويشه في العلاقات التي تربط الجيش بالحكومة ، و باشعاره الحكومة بانه يريد حكما عسكريا ، الامر الذي اخاف الوزراء في وزارة النابلسي وجعلهم يظنون بان اعتقال اعوان السفارة الاميركية هو مقدمة لديكتاتورية عسكرية .

وكان الريماوي وزيرا للخارجية في حكومة النابلسي . (وهذا الشخص مشهور بانتهازيته المفرطة) ، ومشهور ايضا بانه كان من عملاء الاستعمار البريطاني في ايام الانتداب على فلسطين ، ثم انتقل الى خدمة الناصرية فأصبح من اشد الدعاة لها وما يزال حتى الآن في القاهرة يعمل في اجهزة التخريب الناصري . لقد احبط هذا الشخص بأمر من ناصر دخول الجبهة الوطنية في قائمة واحدة في انتخابات الاردن التي جرت في آب ١٩٥٦ . فاحتج في بادىء الامر بتوزيع المقاعد ، وعندما استجابت الاطراف الاخرى الى كل مطالبه عاد ونكل عن الدخول في القائمة الموحدة . وعندما احرج بالسؤال عن اسباب نكوله قال :

« لاسباب لا اتمكن من اذاعتها ارفض دخول حزب البعث في القائمة الموحدة » .

وكان على ابو نوار يساعده ايضا في هذا العمل فيضغط على الاطراف الاخرى لمنعها من الدخول في القائمة الانتخابية الموحدة . ونتج عن ذلك ان سقط سليمان النابلسي في الانتخابات التي جرت حينذاك . الا ان فوز حزب هذا الاخير بأغلبية المقاعد اضطر الملك لاستدعائه لتشكيل وزارته القوميـة . ثم ان الريماوي كان يوهم الوزراء الاردنيين بان الجيش الاردني « بامره » ، مع ان الضباط الميالين الى حزبه في هذا الجيش كانوا قلة ضئيلة جدا . وكان من جهة اخرى يشيع بين الناس بان الملك « انضم الى حزب البعث » ، وبأن حـزب البعث سيقدم « عرش سورية » هدية الى الملك حسين ...

وبينما كان ابو نوار يعمل في تشويش علاقات الجيش بالحكومة الوطنية ، كان الريماوي يعمل على افساد وهدم العلاقات بين مختلف الفئات التي كانت تتألف منها هذه الحكومة ، وذلك بالاتفاق التام مع فؤاد هلال ، الملحق في السفارة المصرية . لقد وجد الريماوي بالازمة التي افتعلها الملك ، بالخطاب الذي وجهه الى الحكومة بالراديو والذي اشرنا اليه آنفا ، نقول وجد هذا الريماوي ان الفرصة سنحت لابعاد خصومه من الوزارة ولتأليف حكومة تكون له فيها الكلمة العليا . وكان هذا بطبيعة الحال من باب الدجل والخداع الموجه الى اعضاء حزبه وانصاره في الاردن ، الا انه ينسجم تماما مع الخطة التي كانت تهدف الى نسف الحكم الوطني .

وفكرت حكومة النابلسي بتقديم استقالتها في ٥ نيسان ١٩٥٧ ، الا انها لم تقدمها بالفعل ، ومع ذلك فان هذا الخبر تسرب الى الصحافة المصرية ، عن طريق الريماوي وفؤاد هلال ، فاشتدت الحالة تأزما بهذا . وسعى الريماوي لتشكيل حكومة تلائمه ، فرأى أن يسبق مناورته السياسية هذه بعملية عسكرية . وقد اوعز لذلك الى انصاره من العسكريين ليقوموا بمظاهرة توهم الناس بتأييد الجيش له . فقامت لذلك كتيبة المدرعات الاولى بمحاصرة عمان في صبيحة الثامن من نيسان ١٩٥٦ ، بعد أن خدع انصار الريماوي بعض ضباط هذه القطعة واوهموه بأن هذا الفعل هو تنفيذ لقرار الضباط الاحرار . والواقع ان الاكثرية الساحقة لهؤلاء الضباط الاحرار كانت تجهل أمر هذه الحركة ، وقد بوغتت ، بل روعت بقيامها . وعندما سئل الضباط الريماويون عن الاسباب التي دعتهم الى القيام بهذه المظاهرة أجابوا : نريد أن نرهب القصر ... الا ان النتيجة كانت وقوع الانقسام في صفوف الجيش الاردني في تلك الظروف الحرجة ، مع اثارة انتباه الرجعية وحثها على العمل السريع كي لا تضيع الفرصة من يديها .

وكانت اكثرية الضباط الاحرار ترى بعد الحركة الآنفة الذكر ، الحركة التي كشفتهم ، القيام بالثورة في اليوم ذاته ، والاطاحة بكل اعداء الاردن قبل أن يبطش الملك بكل الضباط الاحرار ، بعد ان نبهته تلك الحركة . الا ان موقف الريماويين كان التريث ... ورفضوا اكمال حركتهم التي بدأوها هم بالذات . وقد طالبوا بقيام

مظاهرات شعبية اولا ثم بتدخل الجيش بعد ذلك لدعم هذه المظاهرات .

وفي العاشر من نيسان طلب الملك الى وزارة النابلسي تقديم استقالتها ، فاجتمع اثر هذا الطلب زعماء الجبهة الوطنية (او بالاحرى شبح الجبهة الوطنية التي لم يكن لها حينذاك وجود عملي) وتداولوا أمر قيام مظاهرات في صباح اليوم التالي فكان رأي الريماوي التريث ... وقد قال أحد ممثلي الجبهة للمجتمعين آنذاك ان الوضع يشبه ما كان يجري في ايران عندما اطاح الاميركان بحكومة مصدق ، فيجب العمل على عدم اخلاء الساحة من الجماهير . الا ان الريماوي اصر على وجوب التريث ...

واجتمع انصار الريماوي من الضباط بمفردهم وقرروا ابلاغ الملك طلبا باسم الجيش لتشكيل حكومة يسيطر عليها الريماوي ، واقترحوا رجلا ضعيفا ليرئس هذه الحكومة ، وهو عبد الحليم النمر . ثم اجتمع هؤلاء في القيادة ببعض الضباط الاحرار الآخرين (من غير انصار الريماوي) واقنعوا هذا البعض بتشكيل وفد يبلغ الملك قرارهم الآنف الذكر . وتشكل الوفد بالفعل من علي أبو نوار وعلي الحياري ومحمد المعايطه ، الا ان هذا الوفد بدلا من أن يذهب الى الملك ذهب الى سعيد المفتي ، وبدلا من تقديم طلب لانهاء الازمة وتشكيل حكومة تحل مكان حكومة النابلسي الوطنية قدم انذارا لم يكلفه بتقديمه أحد . ويقول هذا الانذار : ان على الملك ان ينشر اسماء الوزارة الجديدة بنشرة أخبار الساعة التاسعة مساءاً ، وعند عدم الاستجابة الى هذا الطلب فان قائد الجيش علي أبو نوار لا يضمن عدم قيام

أحداث خطيرة . الا ان الملك قام قبل الساعة التاسعة بقبضة من الجنود بانقلاب الزرقاء الشهير . فتمكن من سجن وتشتيت معظم الضباط الاحرار خلال عدد من الايام ، فقلب بهذا الحكم الوطني في الاردن ، وتمت الخطوة الثانية من المخطط الاميركي بخروج هذا القطر الشقيق من جبهة الدول المتحررة وانضمامه الى السعودية في ملء فراغ ايزنهور .

وكان في الاردن لواء سعودي حينذاك . وقد نشط هذا اللواء في قمع الحركة الشعبية التي قامت ضد الانقلاب الذي قام به الملك . وبعد أن استتب الامر للرجعية في الاردن أرسل هذا اللواء الى منطقة المفرق ، حيث كانت تعسكر الفرقة السورية الموضوعة تحت تصرف الاردن . وكان الغرض من هذه الحركة واضحا : هو استفزاز القطعات السورية ، واستفزاز سوريا ، لأن المفرق يقع على حدودنا (تقريبا) .

واصبح الوضع العربي بخروج الاردن من جبهة التحرر على الشكل التالي :

- العراق الذي كان منضما الى حلف بغداد بقيادة بريطانيا .
- السعودية والاردن ، أو الرجعية الملكية التي انضمت الى مبدأ ايزنهور .
- الانتهازية الناصرية في مصر ، التي كانت تستعد للقيام بدور من يملأ فراغ ايزنهور لحساب الاستعمار الاميركي ، والتي كانت ترى في الرجعيات الملكية حواجز ضعيفة امام دجلها وتبجحها .
- سورية المتحررة التي كانت حينذاك ما تزال تشكل خطرا

جسيما على مخطط الاستعمار في المنطقة وعلى مواقع هذا الاستعمار (حديثه وقديمه) ٠

ملاحظة : ان الحوادث التي ذكرناها في الجزء السابق من بحثنا استقيناها من الاشخاص الذين عاشوها ، ومن جملتهم الريماوي وعلي أبو نوار ٠

تصفية جبهة الدول العربية المتحررة

بعد تصفية الحكم الوطني في الاردن بقي من الدول العربية المتحررة دولتان : مصر وسورية ٠ وكانت سورية تتبع سياسة صادقة في التحرر ومعاداة الاستعمار بينما كان الحكم الانتهازي الناصري يتظاهر رياء بمعاداة الاستعمار ، وهو في الحقيقة كان يعمل للاستعمار الاميركي ولانتهازيته ضد الاستعمار البريطاني ٠ بقي اذن على الاميركان تصفية التحرر في سورية وبقي عليها ايضا ابراز الانتهازية الناصرية كوريثة « غير شرعية » لحركة التحرر العربي ٠

وكانت الولايات المتحدة الاميركية قد اعلنت مبدأ ايزنهور في ٣ كانون الثاني ١٩٥٧ ، المبدأ الذي يشير الى قيام « فراغ » في منطقة الشرق الاوسط ، فراغ مزعوم خلفته هزيمة الاستعماريين البريطاني والفرنسي في قناة السويس امام حركة التحرر العربي وامام جميع شعوب الارض ، الشعوب التي هبت تشجب الاستعمار وتهدد المستعمرين ، أدبيا وماديا ، بسوء المصير ٠ وقد قلنا ان السياسة الاميركية اختارت الرجعية الملكية (التي كانت قد انضمت الى السير العربي المتحرر منذ ما قبل العدوان على قناة السويس بزمن ليس بالقصير)

للبدء بالهجوم على جبهة التحرر العربي وشطرها بالتالي • فالملك سعود سافر في شهر شباط الى واشنطن حيث قابل الرئيس ايزنهور ، وعاد بعدها ليرسل بتقرير الى كل من الرئيس جمال عبد الناصر والرئيس شكري القوتلي والملك حسين عن محادثاته مع الرئيس الاميركي • وكان هذا التقرير « يبشر » بتغير مزعوم في السياسة الاميركية تجاه البلاد العربية • ويدعو العرب الى قبول مبدأ ايزنهور • الا ان هذا التغير في السياسة الاميركية ، اتضح جيدا وبشكل عملي بنسف الحكم الوطني في الاردن وبشطر جبهة التحرر العربي ، وقد مر معنا تفصيل هذا فيما سبق من البحث •

وكان الاستعمار الاميركي يظن ان العلاقات القديمة للعائلة السعودية ببعض الزعماء السوريين ، العلاقات التي تعود الى ما قبل عام ١٩٣٠ ، تساعد على نسف الحكم الوطني في سورية • وكانت اميركا قد اغتالت عدنان المالكي بيد أحد أفراد الحزب السوري القومي ، لانها كانت تعتقد ان بقاء الشهيد المالكي على قيد الحياة يعرقل عمل الانتهازية الناصرية ويعطل فائدة العلاقات السعودية في مخططها ، كما انها كانت تظن أن الشهيد كان من أنصار تولي شخصية سورية معينة رئاسة الجمهورية ، ويضاف الى هذا ما كان يعرف عن الشهيد المالكي من عداء شديد للاستعمار • ثم ان السعودية والناصرية بذلتا كل ما بوسعهما لمنع نجاح مرشحين لرئاسة الجمهورية السورية : مرشح متهم بمناصرة حكام العراق البائدين له وآخر هو الشخصية السورية الآنفة الذكر ، الشخصية التي ما كانت تبعث على الاطمئنان بنظر

الاستعمار الاميركي وبنظر الانتهازية الناصرية . وبلغ الامر الى أن أحد مشايخ البدو المقربين من البيت المالك السعودي اتى الى مواطن سوري ليشكره على الجهد الكبير الذي بذله في الاتجاه الذي كانت السعودية والناصرية تعملان له معا ، وقد حاول هذا الشيخ دفع مبلغ خمسة عشر ألف ليرة سورية لهذا المواطن « كهدية » . الا ان المواطن المذكور كان يعتقد انه انما كان يقوم بواجب وطني يخدم به سورية وليس السعوديين ، سيما وانه كان يعلم ان جمال عبد الناصر يتفق معه بوجهة نظره تلك ، وهو ، أي المواطن السوري ، كان من الذين يعجبون بعبد الناصر ويعتقدون بصدق وطنيته . الامر الذي جعله يرفض بإباء تلك « الهدية » .

وقد رأينا كيف قام الانقلاب على الحكم الوطني في الاردن ، وكيف أتى اللواء السعودي الى جانب الفرقة السورية في المفرق ، لاستفزاز سوريا . وفي اليوم الذي بلغنا فيه وصول القطعة السعودية الى حدودنا ذهب اللواء توفيق نظام الدين مع أركان قيادته ، وكنت أنا من جملة ضباط الاركان ، الى القصر الجمهوري لابلاغ الرئيس القوتلي هذا الامر الخطير . وقد كان اشد ما يشغل بالنا ان يقتتل العرب في تلك الظروف العصيبة ، لأن اي استفزاز أو أية حادثة بسيطة بين جنودنا والجنود السعوديين في ذلك الجو الغائم كان يؤدي الى كارثة عربية مؤلمة . واستهول الرئيس القوتلي الامر وطلب دعوة الشيخ يوسف ياسين الى اجتماعنا ، وكان هذا الشيخ موجودا في تلك الايام في دمشق . وعندما وصل هذا الأخير أنكر وجود أي جندي سعودي

في المفرق وحاول أيهامنا بأننا مخطئون ، الامر الذي كان يبعث على السخرية منه • فانكار لواء يعسكر على بضع مئات من الامتار من الفرقة السورية كانكار الشمس في رابعة النهار • وبعد أخذ ورد وعد الشيخ يوسف بالرجوع الى حكومته التي كان هو بذاته عضوا فيها ، ثم استمر الحديث وتطرق الى موقف السعودية من الانقلاب الاردني على حكومة النابلسي الوطنية وموقفها من مبدأ ايزنهور • وفي النهاية اقترح الرئيس القوتلي أن نجتمع في فرصة اخرى مع يوسف ياسين ليشرح لنا وجهة نظر حكومته وما قام به الملك سعود عندما زار أميركا•

وكان الشيخ يوسف ياسين قد وصل الى دمشق في تلك الظروف ليبذل نشاطا محموما ضد الحكم الوطني القائم في سورية آنذاك ، النشاط الذي ما كان خافيا عنا • وفي اليوم التالي لاجتماعنا به في القصر الجمهوري ، اتى الى مقر قيادة الجيش ليجتمع بنا تنفيذا للوعد الذي أعطاه لنا في الاجتماع السابق • وقد بلغنا عند وصوله بأن معلوماتنا عن وجود اللواء السعودي على حدودنا وبالقرب من قطعات جيشنا صحيحة • ثم اعتذر عن اطالة الحديث وقال لنا ان مشاغل تدعوه للذهاب الى بيروت فورا • الا انه وعد بالحضور في اليوم التالي ليجتمع بنا في بيت اللواء توفيق نظام الدين قائد الجيش آنذاك • وكان من الواضح أن ذهابه الى بيروت كان للاتصال بحكومته لابلاغها عن نتائج نشاطه في دمشق ، ولابلاغها ، على الاخص ، اجتماعه بنا وما كان يرجوه من اجتماعاتنا المقبلة •••

وقد اقترحت على الرفاق ، الذين كان من المقرر حضورهم الى

الاجتماع بيوسف ياسين في بيت اللواء نظام الدين ، خطة للحديث . فكنت أرى عدم جدوى « صدم ضيفنا » بمناقشة حامية ، لأن النتيجة ستكون عقيمة بالنسبة لنا وسينكر هذا « الضيف » كل ما نود الاطلاع عليه من نيات حكومته في تلك الظروف الحرجة : كان الاصطدام به يجعله يختبىء وراء العبارات الفارغة المألوفة ، العبارات الطنانة التي تخفي الانحياز للاستعمار الاميركي . واتفقت مع الرفاق على أن نكون مستمعين ، بل مشجعين في بادىء الامر ، لنطلع على غاية ما يمكن الاطلاع عليه . وكانت النتيجة والحق يقال مدهشة بل مذهلة . فقد عرض علينا الشيخ يوسف ياسين عددا من المطالب ، وكان من أهمها ما يلي :

أولا : ان نسعى الى توجيه سورية الى استرضاء اميركا والتسليم بسياستها في المنطقة ، ووعد بتوسط حكومته بيننا وبين الحكومة الاميركية لوضع أسس سياسية نسير عليها في مستقبل الايام . وكان هذا يعني بصريح العبارة دعوة الى نسف الحكم الوطني القائم حينذاك .

ثانيا : ان نؤيد علنا الانقلاب على الحكم الوطني الاردني ، انقلاب الزرقاء الشهير الذي تحدثنا عنه فيما سبق . فنعلن على رؤوس الاشهاد ان الملك حسين يملك الاردن ويحق له التصرف به كملك خاص . وكان هذا يعني اعتبار الشعب الاردني شعب عبيد .

ثالثا : أن نقبل بالتقارب مع السعودية والاردن ، وربما مصر في المستقبل ، من دول حلف بغداد ، على أن نكون كتلة مستقلة عن العراق . وقد أكد على المعنى الاخير بمختلف العبارات والاستعارات .

وكان هذا يعني تشكيل كتلة اميركية ضد الكتلة البريطانية في هذا الحلف • الامر الذي يظهر بوضوح صارخ التناقض بين الاستعمارين الاميركي والبريطاني ، ويظهر أيضا بوضوح صارخ الصورة التي كان قد قررها الاميركان لحلف بغداد ، عندما كان ناصر يرسل بمندوبيه الى سرسنك ويوالي اجتماعاته بنوري السعيد وربعه قبل افتضاح هذه الطبخة وتظاهر عبد الناصر بالعداوة لهذا الحلف (انظر ما كتبناه سابقا ، في هذا البحث ، عن حلف بغداد) •

رابعا : ان يذهب بعض ضباط الاركان لزيارة السعودية ، حيث تستأنف المحادثات هناك بين وفد الضباط هذا وبين المسؤولين السعوديين (والضيافة « كريمة » هناك كالضيافة في هذه الايام عند عبد الناصر) •

وقد أجبنا الشيخ يوسف ياسين في نهاية تلك السهرة أن واجبنا يقتصر فقط على تأييد الحكم الوطني القائم حينذاك ، وان هذا الحكم هو الذي يوجه سياسة سورية لا نحن • وما نسينا ابداء أسفنا العميق على ما آلت اليه حركة التحرر العربي نتيجة المؤامرات المجرمة التي كانت تدبر للعرب من قبل المستعمرين الاميركان ومن قبل الرجعية الملكية • الا انه يجب علي أن أعترف هنا اننا نسينا في تلك اللحظة بلاء الناصرية الذي لا يقارن أبدا ببلاء الرجعية المفضوحة ، بل ان أفعال الرجعية في تلك الايام ما كانت الا لتمهيد الطريق أمام ذلك البلاء الاشد ••• وغادر الشيخ يوسف ياسين دمشق الى السعودية في اليوم التالي ، وقد غضب عليه الملك غضبا شديدا

« لبساطته » وافضائه بتلك الامور الخطيرة دون روية ، فأقصاه مدة طويلة عن شؤون الدولة •

وقد جن جنون الاستعمار الاميركي بعد هذه الضربة الاليمــة لخططه • فاستدعى ستون الذي اشتهر بتدبير الانقلابات ضد الحكومات الوطنية في العالم المتخلف ، في غواتيمالا والسودان وايران • وراحت السفارة الاميركية تعمل بلا كلل ولا ملل في تدبير المؤامرات والمكائد ضدنا ، الا انها كانت تخبط خبط عشواء •

« كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها ، وأوهى قرنه الوعل »•

فكانت اخبارها تردنا بالدقيقة بواسطة مواطنينا الذين آلوا عـلى أنفسهم أن لايدعوا هذا الاستعمار يمر الى بلادنا • الا ان هذا الاستعمار كان يخفي احتياطيا لئيما ، كان يخفي الناصرية لضرب سورية عندما تفشل مؤامراته الاخرى التي كان يحيكها ضدنا مباشرة أو بواســطة الرجعية الملكية •

وكانت الناصرية تختفي تحت ستار الوطنية فتنشر شباكها في كل دائرة ، وفي كل فئة أو حزب ، فلا تترك مكانا الا وتضع فيه عينا لها (انظر ملحق الكتاب في آخره ، فهو يتضمن بيانا اذعته حول هذه الامور في صيف عام ١٩٦٢) • وقد تمكنت هذه الناصرية من تضليل كثير من الفئات الوطنية السورية باخافة هذه الفئات من خطر مزعوم ، هو « الخطر الشيوعي » ، وبوعدها « بتصفية هذا الخطر المزعوم (وقد اعترف عبد الناصر صراحة بهذه الافعال في حديث جرى له مع الصحفي الهندي كرانجيا ، وذلك في شهر نيسان عام ١٩٥٩) • فكنت ترى السوريين من مختلف الفئات تذهب الى القاهرة (بمساعي محمود

رياض ومباحثيه طبعا) لمقابلة الرئيس عبد الناصر الذي ما كان يرد أبدا أحدا منهم . وقد تبين فيما بعد ان كل ذلك النشاط النـــاصري المحموم ، نشاط ناصر ونشاط أعوانه في القاهرة ، ونشاط محمود رياض ونشاط أعوانه في سورية ، كان لتفتيت الجبهة الوطنية السورية ، العائق الاساسي أمام الاستعمار الاميركي وامام المد الانتهازي الناصري .

وكان أشد ما يخيف عبد الناصر في تلك الايام أن يستمـر الصعود الوطني في سورية ، وأن يتعزز هذا الصعود بانتصارات وطنية في الاردن والعراق . ففي شهر نيسان عام ١٩٥٧ ذهبت الى القاهرة بصحبة ضابط أردني ، لجأ الى سورية بعد انقلاب الزرقاء ، وبصحبة عبد الله الريماوي . وكان الغرض من تلك الرحلة التشاور مع القيادة المشتركة في وضع الفرقة السورية التي كانت قد وضعت تحت تصرف الاردن أثناء العدوان على مصر ، والتي كانت ما تزال في الاردن حتى تاريخ ذهابنا هذا الى القاهرة . وقد بينت لعبد الحكيم عامر آنذاك ، بحضور رفيقي في الرحلة ، أن سوريا تشعر بوحدة المصير مع الشعب الاردني وانها مستعدة للوقوف بدون تحفظ مع هذا الشعب الشقيق ضد مؤامرات الاميركان . وقلت له ان دور سوريا آت بدون ريب ، بعد أن سقط الحكم الوطني الاردني بمؤامرة الزرقاء ، وان أفضل خطة للدفاع هي أن نهاجم الاستعمار في قواعده قبل أن يهاجمنا . وأضفت أن الاستعمارين الاميركي والبريطاني ، على الرغم من تنافسهما ، يتفقان في تلك الظروف على تقويض الحكم الوطني في سوريا ، لأن تحرر هذا البلد الصامد يقض مضاجع جميع المستعمرين (وما كنت

أعلم أن تحرر بلدنا يقض مضاجع الناصرية أيضا) . وقد أكد بعد ذلك الضابط الاردني أن باستطاعة شعب الاردن التخلص من نتائج انقلاب الزرقاء واعادة الحكم الوطني ، على أن نضمن منع أي تدخل من قبل حكام العراق آنذاك في شؤون الاردن الداخلية ، كما أكد ان لا حاجة مطلقا لتدخل الجيش السوري في الشؤون الداخلية للاردن ، بل من الواجب والمصلحة ، بحسب قوله أن لا يتدخل هذا الجيش ، لأن الشعب الاردني قادر على حل مشاكله بنفسه . فكان جواب عامر تثبيط عزائمنا واقناع الاردنيين بعدم القيام بأية حركة . وقد قابلنا الرئيس عبد الناصر بدوره ، فكان موقفه لا يختلف أبدا عن موقف زميله عامر . والآن نفهم جيدا ، على ضوء حوادث السنين السابقة ، موقف الناصرية هذا ، الموقف الذي كان يعني من الناحية العمليـة تسليم الاردن الى الرجعية الملكية . فعبد الناصر لا يخشى أبدا هذه الرجعية التي يرى فيها عقبات تؤخر التحرر الحقيقي ريثما يصل مده الانتهازي الى مواقعها . وقد كان يخشى خشية شديدة كل تحـرر حقيقي يطلق العراق والاردن من قيودهما ، كيلا يؤدي هذا التحرر الى قيام جبهة عربية قوية في المنطقة الآسيوية ، جبهة تكشف دجله بالتحرر وتفشل خططه « لبلع » أقطارنا الواحد بعد الآخر ، وتفشل خططه لاجهاض حركـة التحرر العربي واستبدال هذه الحركـة بمده الانتهازي .

وعندما عينت قائدا للجيش السوري ، في ١٢ آب ١٩٥٧ ، اثر الكشف عن مؤامرة ستون ، وقام الشعب السوري بأجمعه يشـجب

هذه المؤامرة الاميركية ويبين لاميركا استعداده الكلي للوقوف في وجهها مهما كان ثمن هذا الوقوف غاليا ، أعلن عبد الناصر لاحد الصحفيين الاميركيين أن « ليس من نزاع بينه وبين الولايات المتحدة الاميركية » . وحينذاك هرع الي عبد المحسن أبو النور ليقول لي ان هذا التصريح هو من باب ذر الرماد في عيون الاميركان ، والغاية منه ابقاء الباب مفتوحا لتتمكن مصر من التوسط لمنع غزو اميركي ضد سورية . وقد تبين فيما بعد أن كلام ابو النور كان من باب ذر الرماد في عيوننا نحن (وليس في عيون الاميركان ولافي عيون الاسرائيليين). ثم ان الصحافة الاميركية كتبت حول حديث طويل جرى في شهر ايلول عام ١٩٥٧ بين السفير الاميركي وبين عبد الناصر ، وكان موضوع الحديث يدور حول الطريقة التي يجب اتباعها لتخليص سورية من ايدي « الحمر » ... أي الطريقة التي يجب اتباعها لنسف الحكم الوطني في سوريا . وقد حملنا أيضا هذه الكتابات على محمل الدس بيننا وبين مصر . الا ان كشف الحكومة العراقية فيما بعد لمحضر مؤتمر استنبول الذي عقد في تلك الايام والذي حضره هندرسون وكيل وزارة الخارجية الاميركية ، بين بوضوح ان ذلك الاجتماع ، الذي عقده عبد الناصر مع السفير الاميركي في القاهرة ، ما هو الا تنفيذ لما كان قد اتفق عليه في ذلك المؤتمر الاستعماري . لأن هنالك بندا اتفق عليه المؤتمرون في استنبول ، يدعو الى « لفت نظر عبد الناصر الى خطورة الحالة في سورية ... خطورة الحالة بالنسبة الى مشاريع الاستعماريين الاميركان .

وقد بلغ العمل في تحطيم الجبهة الوطنية السورية أقصاه بعد عقد اتفاقية المساعدة مع الحكومة السوفييتية . فشنت الحملات الظالمة على السيد خالد العظم رئيس الوفد الذي عقد تلك الاتفاقية . وقد بدأت الصحافة المصرية المباحثية في شن تلك الحملة بالادعاء بأن الاتفاقية المصرية السوفييتية أفضل من اتفاقيتنا الآنفة الذكر . وتبعت ، بكل أسف ، بعض الصحف السورية الصحافة المصرية في تلك الحملة المقصودة ، كما تبعتها أيضا أوساط وطنية خدعت بالناصرية وأوساط أخرى انتهازية كانت الناصرية قد اشترتها منذ زمان بعيد . والمؤسف أن أية محاولة جدية لم تبذل لانقاذ الجبهة الوطنية ، أو بالاحرى ان المحاولات التي بذلت لم تلق اذنا صاغية من قبل معظم الفئات الوطنية ، والسبب هو أن اتجاه هذه الفئات كان نحو الاستعاضة بالوحدة عن الجبهة الوطنية . لقد قلنا ان محمود رياض لم يضيع وقته بل فعل كل ما باستطاعته ليدس بين الناس ويفرقهم ثم ليحملهم على زيارة « الريس » في القاهرة . الا ان السوريين لا يلامون على طلبهم للوحدة العربية التي حلمت بها أجيالهم السالفة . انهم رواد الوحدة العربية ، وقد صعد منهم في سبيل هذا الهدف العشرات على أعواد المشانق وسقط منهم في هذا السبيل ألوف الشهداء . الا اننا نلام لأننا ذهبنا الى هذه الوحدة متفرقين ، ولو اننا ذهبنا اليها بجبهتنا الوطنية لما استطاع عبد الناصر أن يفعل بنا ما فعل ، وكنا كشفناه منذ الايام الاولى فخلصنا العرب من شره وشر ناصريته . وهذا عندما لا نكون واعين لطبيعة الناصرية ، والافضل أن نعي هذا الخطر المميت ، كما

نعيه الآن ، فنعمل على فضحه ومكافحته بكل ما أوتينا من قوة لنخلص منه الناس .

وبعد قيام الوحدة أعلن جمال عبد الناصر نهايـــة المعركة مع الاستعمار ، على رؤوس الاشهاد وبكل صفاقة ، كما أعلن صراحـــة « صداقته » لاميركا الاستعمارية ، وما يزال يعلن هذه « الصداقة » حتى اليوم ويعلن معها « اعترافه » بما لهذه الدولة من مصالح استعمارية في منطقتنا (انظر كتاب عبد الناصر الى كندي ، الكتاب الذي نشرته الاهرام في ٢١ ايلول ١٩٦٢) . وبقيام الوحدة بلغ المخطط الاميركي جميع أهدافه بمساعدة الرجعية الملكية ومساعدة الانتهازية الناصرية . فقد وقعت سورية ، البلد العربي الوحيد الذي كان وما زال يقـــاوم الاستعمار ، كل الاستعمار وعلى رأسه زعيمته أميركا ، بصدق واخلاص ، نقول وقعت سورية بتلك الوحدة في براثن الناصرية . فلم يبق بعد ذلك من أثر للجبهة العربية المتحررة :

ـ قام في سورية ومصر حكم ناصري وقح يحـرق كل ما في طريقه خدمة لأسياده المستعمرين الاميركان .

ـ وفي الاردن والسعودية تماسكت موقتا الرجعيـــة الملكية التي تحرس مصالح الاستعمار الاميركي ، ريثما يأتي دورها ليسلمها هذا الاستعمار الى الانتهازية الناصرية .

ـ وعلى النطاق العربي تحطمت الجبهات الوطنية للكفاح ضد الاستعمار بانقياد جماهير واسعة لدجل الناصرية وكذبها .

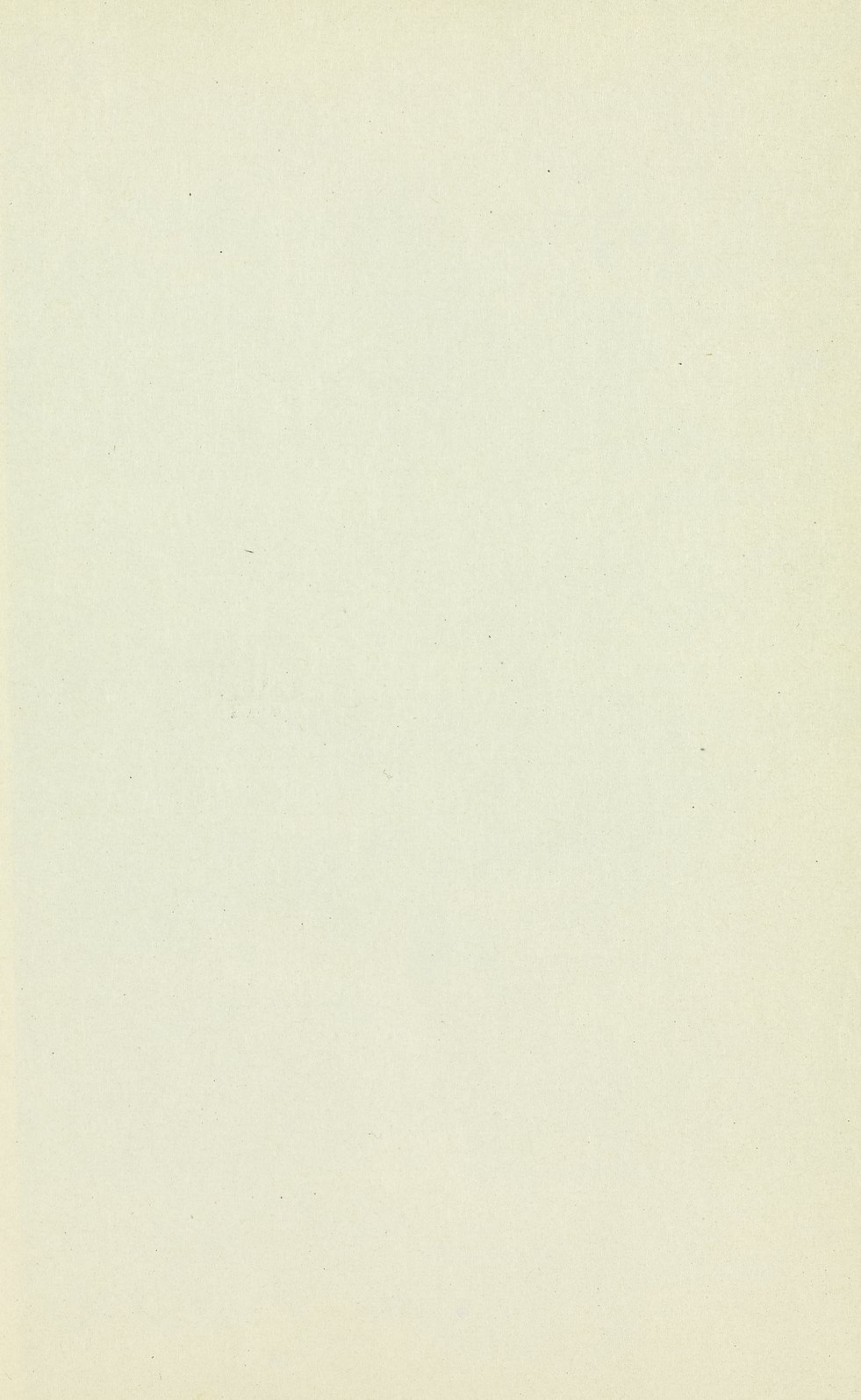
ويبدو ، في هذه الايام التي عادت فيها سورية الى التحرر وعادت

لتقض مضاجع المستعمرين ، ان الاستعمار الاميركي قد عقد العزم على استبدال الرجعية الملكية بالناصرية • فأرسل عبد الناصر جنوده الى اليمن ، ببركة ورضاء المستعمرين الاميركان ، بينما يفر امراء سعوديون الى القاهرة وبينما ينشط عملاء ناصر مع عملاء اميركا في الاردن • الا ان الوقت قد فات الاستعمار الاميركي ، وقد افتضح أمر ناصر كعميل حديث لهذا الاستعمار الحديث ، وسنرى أن الشعوب العربية هي التي ستسبق الاستعمار لتضع يدها ليس فقط في عنق الرجعية ، بل وفي عنق الناصرية أيضا ، الناصرية التي يراهن (على ظهرها) هذا الاستعمار • ان انتفاضة ٢٨ ايلول أعادت الى سورية كيانها ، وها نحن أولاء نفضح الاستعمار ونقاومه ، تماما كما كنا نفعل قبل الوحدة وبوعي أكبر • ولن يفرح الاميركان ولا غيرهم من المستعمرين برؤيتنا مرة أخرى ننخدع بخدمهم من الانتهازيين أو الرجعيين • ولن يمر الاستعمار ولا أعوانه الينا أبدا أبدا •

ملحق

بيانات نشرها المؤلف صيف عام ١٩٦٢
في الصحافة السورية

الطامعون ليسوا وحدويين



كنت ، منذ اوائل عام ١٩٥٩ ، قد رأيت ان من واجبي اطلاع الرأي العام العربي ، والسوري منه خاصة ، على ملابسات الوحدة بين سورية ومصر وعلى ما شاهدته بحكم ظروفي ومركزي من انحرافات الادارة المصرية بعد ان تمت تلك الوحدة . وقد نشرت بيانا في ذلك الحين سردت فيه كيف ان الرئيس جمال عبد الناصر كان قبل الوحدة يبذل كل الوعود والعهود ويضع شرفه وشرف ثورته ضمانا لوعوده وعهوده هذه ، فيؤكد بأنه سيرعى الوحدة من كل طغيان وافتئات من قبل احد شطريها على الآخر . فوعد وتعهد بالديمقراطية وبالتعاون مع كل القوى الخيرة دون استثناء او تمييز ، ووعد وتعهد بأن يحفظ كيان سورية من كل عبث ، هذا الكيان الذي اعترف به نفسه عمليا في نصوص اتفاقية الوحدة وفي دستوره الموقت الذي أصدره عند أول زيارة له لدمشق .

فمن الناحية الاقتصادية كان الرئيس عبد الناصر ـ وما زال حتى الآن ـ يتظاهر بالاعتراف بأن لكل من القطرين ظروفه الموضوعية التي فرضها عليه تاريخه الخاص به . فالسياسة الاقتصادية يجب ان ترتكز على هذه الظروف بحيث لا يفتئت القطر الاكبر عن حقوق القطر الاصغر ، وبشكل يضمن تقارب القطرين مع ضمان تقدم وازدهار كل منهما . فلا يزدهر مثلا القطر المصري على حساب القطر السوري

لتحقيق التقارب ، اذ ان هذا النوع من التقارب لا يشكل في الواقع تقاربا وانما ابتلاعا .

ومن الناحية التنظيمية كان على كل من القطرين ان يسعى الى اخذ الافضل من انظمة وقوانين القطر الآخر . وفي هذه الحالة لا بد ان يكون هنالك في كل قطر ، البالي والصالح ، على السواء ، من القوانين والانظمة كما لا بد ان يكون لكل قطر ، بحكم ظروفه الخاصة ، ما ينفعه وما لا ينفعه من قوانين وانظمة القطر الآخر . فلا يصح عندئذ ان نمصر سوريا مثلا بفرض انظمة مصر وموظفي مصر عليها ، لمجرد كون هذه الانظمة واولئك الموظفين من القطر الشقيق الاكبر . ولا يصح ايضا ان يأتي المواطن المصري الى سورية فيأمر وينهي كما يشتهي وان يذهب المواطن السوري الى مصر فيكون فيها كالرجل الخامسة في الكرسي اي زائدا ولا لزوم له حتى ولو كان وزيرا أو نائبا للرئيس .

ومن الناحية الادارية كان قد وقع الاتفاق على أن يكون لكل قطر كيانه الخاص به مع سلطاته التنفيذية والتشريعية . وذلك لمراعاة الظروف الموضوعية المحلية ولتسهيل اعمال الناس ولمنع طغيان السلطات المركزية طغيانا أعمى يؤدي الى الاضرار بمصالح سكان القطر . ان مجرد فكرة وجود المجلس التشريعي الاقليمي ينفي تسلط وزير مركزي بشكل ديكتاتوري على وزير اقليمي . فالسيد مرعي مثلا لا يحق له في أيام الوحدة أن يفرض ارادته على وزير الزراعة السوري ، لان من واجب هذا الاخير ان ينفذ ما يشرعه له المجلس

التشريعي السوري . اما احترام القانون وعدم العبث به ، واما احترام الحريات واحترام الناس ، فكانت امورا مفروغا منها واتت في اتفاقية الوحدة وفي الدستور الموقت بالنص وبالاشارة . فلم يكن يخطر ببال أحد مثلا أن تنقض قطعان المباحث الناصرية على المواطنين من كل لون وفكر لتذيقهم مر العذاب منذ الايام الاولى للوحدة بدون اي ذنب أو أي مبرر معقول ولم يكن يخطر ببال احد مثلا أن يأتي من هو اقل قدما في الجيش او في دوائر الدولة الاخرى ليقود او يأمر من هو أكثر قدما منه لمجرد كون الاول مصريا والثاني سوريا ، أو كون الاول مباحثيا أو يمت بصلة قريبة او بعيدة الى المباحث الناصرية. اما من الناحية الخارجية فكان من المفروض ان ترث العربية المتحدة تقاليد النضال ضد الاستعمار وفي سبيل التحرر العربي . النضال الذي كنا نخوضه بنجاح ضخم قبل الوحدة . فكان علينا مثلا ان نتبع بحزم سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز ، وسياسة محاربة الاستعمار بشكليه القديم والحديث ، وسياسة التعامل مع الدول الاجنبية على قدم المساواة وعدم التفريط بحقوق ومصالح شعبنا وبقية الشعوب العربية . وسياسة التضامن والاخوة مع بقية الاقطار العربية فنشجع هذه الاقطار بسلوكنا تجاهها وبتصرفاتنا الداخلية والخارجية لتسلك طريقنا في التقارب والوحدة الخ ..

فماذا جرى بعد الوحدة ؟ وماذا تحقق من كل الذي ذكرناه اعلاه ؟ لقد شهدت ببياني الآنف الذكر عام ١٩٥٩ على بعض ما رأيته في باكورة عهد الوحدة . فمن الناحية الاقتصادية أشرت الى ان اتجاه

السلطات المصرية كان نحو تجميد الاقتصاد السوري وضربه لصالح الاقتصاد المصري • فلم يكن هذا الاتجاه اذاً نحو توفير الازدهار لكل من اقليمي الجمهورية عندما نعمل على تقريب اقتصاديهما من بعضهما البعض ، وانمـــا كان الاتجـــاه نحو ابتلاع الاقليم المصري للاقليم السوري • وفي الايام الاخيرة بين الاستاذ خليل الكلاس وزيـر الاقتصاد للاقليم السوري لفترة طويلة من ايام الوحدة ان ما نبهت اليه في بياني المذكور كان أكثر من صحيح وذلك عندما نشر رده على مفتريات أجهزة الاعلام الناصرية عليه • بل ان سوقنا التجاري يشهد برمته على هذا الواقع كما يشهد عليه أيضا كل ما نشر في الجرائد الناصرية ذاتها أيام الوحدة حول هذا الموضوع • وليس هذا فحسب اذ بالاضافة الى ان سوريا اضحت فعلا مدى حيويا لتفريج ضائقـة العمل في مصر وتفريج عطالة الشبيبة المصرية المثقفة في الوقت الذي يلقى فيه بالشغيلة والشبيبة السوريين في الشوارع كانت النية مبيتة لجلب مليونين ونصف او ثلاثة ملايين فلاح مصري ليسكنوا الجزيرة السورية ؛ وان مشروع السد على الفرات لم تكن الغاية منه النهوض باقتصاديات سورية العربية وانما كانت الغاية منه توسيع المدى الحيوي المصري • وانني بذاتي سمعت في أول أيام الوحدة حديثا دار بين الرئيس عبد الناصر والشيخ الباقوري وزير الاوقاف المصري ، أثناء نزهة الغوطة التي دعا اليها الرئيس القوتلي اعضاء الحكومة • وكان الحـديث يدور حول خصب منطقـــة الجزيرة السوريـة وحول مستقبلها الاقتصادي الهائل بعد اقامة سد الفرات • وعند ذهابنا الى

مدرسة خرابو للغداء طلب الي الشيخ الباقوري أن أدله على موقع الجزيرة على خارطة كانت موجودة في غرفة مدير المدرسة • وكان مثار دهشتي وتساؤلي هذا الاهتمام الزائد الذي كان يبديه هـذا الشيخ حول هذا الموضوع الذي ما كان من اختصاصاته • الا ان الامر اتضح لي عندما سألني الاستاذ الباقوري فيما اذا كانت المساحة التي يراها على الخارطة تكفي لاسكان مليونين ونصف او ثلاثة ملايين فلاح مصري ! •• وعندما سألته وماذا نصنع بالسوريين الذين يسكنون الجزيرة ؟ وماذا نصنع بالسوريين الآخرين الذين سنحتاج الى اسكانهم في الجزيرة بنتيجة تطورنا الاقتصادي ؟ سكت وابتعد عني •

وهل نحن بحاجة الى التكلم عن التبذير واتلاف المال والنقود بشكل لا مثيل له في تاريخ الامم • ان المسؤولين السوريين نشروا في الجرائد في اعقاب ثورة ٢٨ ايلول وثائق تتعلق بانفاق عشرات الملايين من قبل مسؤول واحد ، وهو عبد الحميد السراج • وهذا الانفاق لم يكن على تعليم الناشئة ، ولا على بناء المشاريع الاقتصادية ولا بناء المنافع العامة ، وانما على التجسس والتخريب • وقد ذكر لي احد المسؤولين ان لاجئا اردنيا في سوريا اغرته حكومته بالعودة الى بلده ، وعلى الرغم من افتضاح امره بالنسبة الى المخابرات الناصرية فان هذا اللاجيء تمكن من ان يحمل معه نصف مليون ليرة سورية قبل ان يعود الى بلده حيث اعتقلته هنالك السلطات الاردنية مدة ثم اطلقت سراحه • وقد كلفت المذبحة التي اثارها الرئيس عبد الناصر في الموصل ملايين الليرات ، هذا بغض النظر عن الدماء البريئة التي اهـرقت

هناك والدمار الذي أصاب هذه المدينة الشهيدة (وبهذه المناسبة اذكر ان الرئيس عبد الناصر اتهمني كذبا بالذهاب الى العراق ، وقد افترت اجهزة دعايته حكايات اسطورية عن اعمال شنيعة الصقتها بي • مع العلم بأنني لا اعرف العراق ولم اذهب اليه طيلة الحياة التي عشتها حتى الآن • وانني وان كنت حاولت في عام ١٩٤١ ان اشترك في ثورة رشيد عالي الكيلاني ، الا ان انتهاء هذه الثورة سريعا واحتلال الانكليز لبغداد منعني من الوصول الى القطر الشقيق • فكانت هذه المحاولة الوحيدة التي قمت بها للذهاب الى هذا القطر) • وهذه المبالغ ليست على ضخامتها الا نقاط بحر زاخر من النقود التي كانت تصرف في غير أوجه البناء •

ان كل السوريين الذين قاموا بأعمال لجان التنسيق رأوا بأم اعينهم كيف استحالت أعمال التنسيق بين الاقليمين الى أعمال تمصير القطر السوري • وأنا أكاد أجزم بأن جميع اللجان التي عملت لتنسيق أنظمة الجيشين ، المصري والسوري ، قبيل الوحدة (أيام القيادة المشتركة) وفي مطلعها ، فشلت في الوصول الى اية نتيجة ايجابية لفشل المصريين في قبول أي اقتراح سوري • الا انه بعد اتمام الوحدة عندما كانت اللجان المصرية السورية تفشل في الوصول الى قرار ما ، كانت الاوامر العليا أو القرارات الوزارية والجمهورية تحسم الخلاف بفرض النظام المصري مائة بالمائة • ولو ان هذا الامر اقتصر على دائرة واحدة أو مصلحة واحدة لكان شاذا وتافها ، الا ان وقوعه في كل الدوائر وفي كل لجان التنسيق يعطيه مدلولا خطيرا وهو وجود فكرة تسلط احد الشريكين على الآخر •

فسوريا وان كانت الاقليم الصغير في تلك الوحدة ، كانت قبلها دولة مستقلة وتعد في طليعة الدول التي نالت استقلالها في أعقاب الحرب العالمية الثانية من حيث تقدمها الاجتماعي والتنظيمي . فلا بد اذن من أن يكون حظها من وجود الحسن في أنظمتها معادلا حظ مصر على أقل تقدير . لذلك كان الرفض المستمر لكل اقتراح تتقدم به جهة سورية في هذه الناحية لا يمكن أن يستهدف الاحسن دوما ، كما لا يمكن أن يكون مصادفة او خطأ غير مقصود .

وقامت بعد الوحدة في الاقليم السوري ادارة سورية تنفيذية وتشريعية وكان هذا يحفظ شكليا كيان اقليمنا ويأخذ بعين الاعتبار نوعا ما مصالحنا المحلية . الا أن سرد بعض الحوادث التي سبقت قيام الادارتين المحليتين في مصر وسوريا يفيد في اظهار النيات الناصرية منذ الايام الاولى للوحدة . فالمخابرات المصرية كانت تمتلك ، منذ ما قبل الوحدة بزمن طويل ، معلومات شبه كاملة عن الاوضاع السياسية في سوريا :

كان لديها اضبارة كاملة عن كل شخصية هامة من رجال السياسة ، ولديها معلومات كافية عن اوضاع كل حزب سوري ، وتعرف علاقات الاحزاب ببعضها البعض وتعرف تناقضاتها وكان لها جماعات تنتشر هنا وهناك في كل مكان وبين كل جماعة تعمل في الحقل السياسي الخ ... أي أن السفارة المصرية والبعثات المصرية المختلفة في سورية لم تكن تكتفي بالنشاط المتعلق بمهماتها الرسمية ، وانما كانت تهتم بالصغيرة والكبيرة . وبالاضافة الى المعلومات

التي كانت هذه الجهات تجمعها عن الاوضاع السورية ، كانت تتدخل دوما بمختلف الحجج « الطيبة » لتوجيه الامور في اتجاه يلائم اطماع الناصرية • ان محمود رياض مثلا لم يكن سفيرا عاديا في دمشق ، بل رئيسا لشبكة واسعة من المباحثيين تغطي تقريبا جميع النشاطات السورية الهامة • وهو كثيرا ما كان يتدخل في الشؤون السياسية الداخلية ، وكانت الجهات السورية تتقبل هذا التدخل بصدر رحب بدافع من الاخوة العربية ومن المحبة العميقة التي يكنها الشعب السوري لكل اتجاه عربي يقف في وجه الاستعمار • لقد كان لتأميم قناة السويس اثر كبير في نفوسنا نحن معشر السوريين • الا ان هذا السفير أخذ يتجه في نهاية الامر في اتجاه تفريق الصف الداخلي السوري بالدس بين مختلف الفئات والعناصر الوطنية • وكثيرا ما كان ينصح المسؤولين السوريين نصائح مشبوهة • وانني اذكر له موقفا اتفقت فيه وجهة نظره مع وجهة نظر السفير العراقي السيد الراوي • فمن المعلوم ان سوريا كانت قد نسفت انابيب البترول لمساعدة مصر ايام العدوان الاستعماري على بور سعيد • ولتضمن بريطانيا عدم عودة السوريين الى مثل هذا العمل الوطني فيما اذا اشتبكت مرة أخرى بحرب استعمارية ضد بلد عربي حاولت اقناع الحكومة السورية بتدويل انابيب البترول المارة في سوريا • لذلك تقدمت عن طريق الحكومة العراقية في ذلك الوقت بمشروع تتعهد بموجبه سوريا دوليا بصيانة الانابيب المذكورة •

وكانت سوريا بحاجة الى المال ، وهذا أمر طبيعي في بلد يناضل بهذه الشجاعة والعزيمة ضد مشاريع المستعمرين المختلفة وفي سبيل البناء

والرقي • الا ان قبول هذا المشروع الاستعماري يناقض كما هو واضح الاسباب التي تدعونا لطلب المال : نريد المال لنقف بقوة ضد الاستعمار ولا نريده ثمنا لتوطيد مواقع الاستعمار • ثم ان هذه المسألة كانت من اختصاصات الحكومة الا انني كمواطن سوري كنت ابدي معارضـــة شديدة لهذا المشروع • وقد زارني أكثر من مـــرة السفير العراقي لاقناعي عبثا بعدم خطورة هذا التعهد بالنسبة الى استقلال سوريا • ولشد ما كانت دهشتي عظيمة عندما زارني السفير المصري اياه لاقناعي بوجاهة الطلب العراقي • وهنا طفح الكيل لدي ، وكنت قد لا حظت منذ مدة طويلة مساعيه المحمومة في الدس بين الفئات السورية ، فأجبته بجفاء ظاهر بأن هذه الامور لا تدخـــل في اختصاصاته وانني سأشكوه الى الرئيس عبد الناصر عندما تتاح لي فرصة لقياه • ذلك لانني كنت أظن خطأ بأن سفيرا ناصريا يمكن أن يخرج على أوامر سيده • وفي الواقع كان جمال عبد الناصر قبلنا ، على علم بمجيء الوحدة فكان يريـــد التخلص من هذا الامر القذر بدفع حكومتنا آنذاك الى قبوله • وهنالك حوادث لا تحصى مثل هذا الحادث ، حوادث يعرفها كل من عمل في الحقل الوطني في تلك الحقبة من الزمن ، كلها تدل دلالة واضحة على مدى التدخل الناصري في شؤون سوريا ، وعلى مدى معرفة عبد الناصر للصغيرة والكبيرة في سوريا • ومع ذلك فان الرئيس ناصر كان يتظاهر امام السوريين ، بعد ان تمت الوحدة وقبيل تشكيل الحكومة بعـــدم معرفته لشؤون سوريا ، فهو لذلك يريد اشخاصا يطمئن اليهم ليتعاون معهم في الحكم المحلي في اقليمنا • وقد دعاني مرة الى مصر بعد الاستفتاء

على الوحدة وسألني رأيي في تعيين البغدادي أو السادات رئيسا تنفيذيا في سوريا • وكانت حجته في ذلك انه يريد تعيين الشخصيات السورية في مصر ليتعرف عليها ومن جهة أخرى يريد ان يطمئن الى من يعينه في دمشق لانه لا يعرف شيئا عن اقليمنا • عندئذ حذرته من هذا الامر بشدة وقلت له بأن السوريين سوف لا يقبلون ابدا بمثل هذا التعليل وسيتساءلون بحق عما اذا لم يكن هنالك سوري جدير بهذا المنصب • عندئذ اجابني بأن السوريين منشقون على بعضهم البعض ، وانه رآهم جميعا فكان كل واحد منهم يدس على الآخر أمامه • ثم انه ضرب لي مثلا بشخصي أنا فقال ان فلانا وفلانا أتوا اليه واتهموني عنده بالتحزب وانه دافع عني امامهم ونفى عني جميع التهم الخ ••• ومن جملة من ذكرهم لي من هذه الشخصيات الاستاذ اكرم الحوراني • عندئذ أجبته ان ما نحن فيه لا يمت الى الامور الشخصية بصلة ، فقد يستلطف شخص شخصا آخر ، وقد لا يستلطفه ، الا ان امور الدولة لا تتوقف عند العواطف الشخصية ولا عند الاشخاص • وقلت له ان آخر ما يهمني في امور وطني هو شخصي ، وانا لا اشعر بفخر عندما اقول هذا القول لان من واجبي وواجب كل مواطن سلوك مثل هذا السبيل • والا كيف يبذل المواطن دمه للذود عن وطنه ؟ الا تتعارض هذه التضحية مع مصالحه الشخصية ؟ واضفت اخيرا بأنني لن أكف أبدا عن احترام الاستاذ أكرم الحوراني كمناضل وزعيم وطني كبير • و قلت له ان امور الاقليم السوري يجب ان تبقى بيد جبهة وطنية تتسع لجميع الفئات السورية ، وانه لن يحمي الوحدة الا الجبهة الوطنيـة السورية • واستمـرت

المناقشة على هذا المنوال مدة طويلة • الا ان الرئيس عبد الناصر كان يعود دوما الى البغدادي والسادات ويتساءل : ومالهم ؟•• البغدادي عمل كذا ونجح ، والسادات فعل كيت ••• بل انه قال مرة في اثناء المناقشة أنه سيصطحب معه هذين الشخصين ليرى كيف سيستقبلهما الشعب السوري • فأجبته بأن السوريين سيستقبلون كل الاشخاص الذين يعتقدون فيهم الصلاح والاخلاص استقبالا حسنا ، الا ان هذا لا يعني قبولهم في تلك البرهة التاريخية والى مدة طويلة بغير الجبهة الوطنية السورية تتولى امورهم • وقد انتهى الحديث عند هذا الحد ، ثم اتى الرئيس عبد الناصر الى دمشق واصطحب معه فعلا البغدادي والسادات • الا ان المشاورات التي اجراها في سوريا أقنعته على ما يظهر بالعدول مؤقتا عن فكرة تسليم سوريا الى حـــاكم مصري فتشكلت الوزارة الاقليمية على النحو الذي نعرفه • وهنا لا بد لي من ان اذكر بأن الرئيس عبد الناصر عندما كان يخبرني بأن كثيرا من الشخصيـــات السورية كانت تتكلم بالسوء عني امامه ، كان يخبر كثيرا مـــن الاشخاص السوريين بأنني تكلمت أنا ايضا بالسوء عنهم ، لان بعضهم قد صارحني بهذا الامر • وانا الآن لا أحتاج أبدا الى تكذيب هذه الافتراءات ، لكنني لا أجد ابدا بين مهام أي رئيس للجمهورية مهمة نقل قيلة السوء الى اصحابها حتى ولو كانت صحيحة •

ان تشكيل أول حكم اقليمي سوري كان مع كل ما سبق منافيا لما اتفق عليه في اتفاقية الوحدة نصا وروحا • فمن المعلوم انه عندما لا تكون النصوص واضحة في شأن من الشؤون في اتفاقية ما ، وخاصة

في اتفاقية بين اشقاء واخوة ، تعود الاطراف الى محاضر جلسات المفاوضات التي أدت الى الاتفاقية المذكورة لتسترشد بروح هذه المحاضر من أقوال تلك الاطراف • وانني الآن أستطيع أن أؤكد بأن ما وقع الاتفاق عليه بين الطرفين هو أن يكون تشكيل الحكم المحلي بطريق ديمقراطي •

ـ فيما يخص كيفية تأليف المجلس التنفيذي

نصت الاتفاقية بكل وضوح على ان رئيس الجمهورية يعين رئيس المجلس التنفيذي الذي يختار وزراءه بنفسه •

ـ فيما يخص المجلس التشريعي :

كان مفهوما من المناقشات المدونة في المحاضر ان يجري انتخاب هذا المجلس بشكل ديمقراطي من قبل شعب الاقليم • فكان على رئيس الجمهورية ايضاح طريقة الانتخاب في الدستور الموقت • ومن الواضح ان الامور في اقامة الحكم الاقليمي المذكور لم تجر وفقا لما سبق ، وانما مسخ المجلس التنفيذي الى عدد من الوزراء ونواب الرئيس الذين

عينهم جميعا رئيس الجمهورية دون ان يستشير واحدا منهم في الامر على اعتبار انهم شركاء في الحكم • ثم ان رئيس الجمهورية بعد هذا أصدر قرارا تنظيميا سمى فيه احد نوابه رئيسا للمجلس التنفيذي وكان الاستاذ أكرم الحوراني ، وسمى فيه نائبا آخر له ، الاستاذ صبري العسلي ، رئيسا للمجلس التشريعي • وقد اعطى الوزراء

الاقليمين صفتين : صفة الوزير المنفذ وصفة النائب المشرع . أي أن أعضاء المجلس التنفيذي وأعضاء المجلس التشريعي وجدوا جميعا ، وبشكل افرادي من قبل رئيس الجمهورية ، قبل ايجاد هذين المجلسين وبعد اختيار رئيسيهما . كما ان رئيسي هذين المجلسين وجدا قبل ايجاد المجلسين . هذا بالاضافة الى أن أعضاء المجلس التشريعي وجدوا بشكل بعيد كل البعد عن الديمقراطية . فأين اتفاقية الوحدة وروح المحادثات مما تم بالفعل ؟! لقد كان هذا العمل الذي قام به عبد الناصر نكولا تاما وانقلابا قام به بكل ما في الكلمة من معنى . وكان قصده منه مسح كل آثار الديمقراطية السورية وتكريس الحكم الديكتاتوري . فالوزراء التنفيذيون مسؤولون امامه مباشرة وليس لرئيسهم الا شرف اللقب ، اما المجلس التشريعي فليس اكثر من سكرتارية تافهة تدون القرارات التشريعية للديكتاتور ..

مما لا شك فيه ان الجانب السوري قصر كثيرا في حق سوريا عندما لم يدون في اتفاقية الوحدة كل شاردة وكل واردة . الا ان النتيجة لن تختلف كثيرا مع هذا ، لأن عبد الناصر الذي لم يتحمل الاتفاقية الراهنة بضعفها ، كان مستعدا لنقض كل اتفاق وجعله حبرا على ورق . ومن ناحية اخرى كان الرئيس عبد الناصر قد استعد منذ وقت طويل لاستقبال السوريين ، منذ سنوات قبل الوحدة . فقد لاحظ ان الوحدة العربية بالنسبة للشعب السوري تشكل مطلبا شعبيا ضخما . فصمم على استغلال هذا الشعور الشعبي النبيل ليجعل من

سوريا اول مدى حيوي لاطماعه في التوسع ، واطماع التوسع هذه واضحة في كتابه فلسفة الثورة . الا ان الوحدة شيء والتوسع شيء آخر . فالامر الاول لا يتم في هذا العصر الا بطريق ديمقراطي يحقق مصالح جميع الاطراف بينما لا يتم التوسع الا عن طريق الغدر والتآمر في مصلحة طرف واحد ضد الاطراف الاخرى . وكان في طريق الناصرية للتوسع في سوريا كل المؤسسات الوطنية السورية التي ترضى بالوحدة المتكافئة ولا ترضى بالتوسع . فعمل عبد الناصر عن طريق سفارته في دمشق وعن طريق كل البعثات المصرية التي كانت ترتاد سوريا لمختلف الاسباب والشؤون على تفتيت قوانا الوطنية وضربها بعضها بالبعض الآخر . وقد شكوت له مرة من تصرفات السفير محمود رياض الذي سبق وقلت انه كان يعمل على الدس بين الاحزاب والفئات الوطنية الاخرى ، وكان السراج عندئذ برفقتي في القاهرة . فقال لي بجوابه الكلاسيكي انه يجهل شؤون سوريا ، وان محمود رياض يفعل ما يفعل من تلقاء نفسه ، وانه سينصحه بتغيير تصرفاته .. وكان بهذا الجواب ، الذي كثيرا ما كرره في مناسبات اخرى ، يتظاهر بأنه الشخص المغلوب على امره ، الوارث كل مفاسد عهد فاروق ، المحتاج الى مساعدة كل الناس الخ .. لينجح في مهمته التاريخية . اما الواقع الذي اكتشفناه بعدئذ ، فهو عدم وجود من يتجرأ على اي تصرف لا يأمر به هو نفسه .

بهذا وبأشباهه توصل عبد الناصر الى اضعاف الجانب السوري

وتفريقه ضد صالح الوحدة التي ينشدها السوريون من صميم قلوبهم ، وفي صالح توسع ديكتاتوريته .

ان الحكم الاقليمي لم يعجب الديكتاتورية الناصرية ، لانه على ما فيه من ضعف كان يشكل عقبة كبيرة امام هذه الديكتاتورية التي تهدف في نهاية الامر الى محو الكيان السوري وتنصيب حاكم مصري على ولاية لا حول لها ولا طول . وكلنا نعلم كيف سارت الامور بالتخلص من السوريين الواحد بعد الآخر ، الى ان انتهى الامر الى الاستغناء عن السراج ذاته . وفي اثناء ذلك كانت اللجان تأتي من القاهرة الى دمشق لغاية اضعاف هيبة الادارة الاقليمية وبالتالي اضعاف الكيان السوري ذاته . فتألفت مثلا لجنة البغدادي وغيرها ، وأتى المشير في نهاية الامر مفوضا مطلق الصلاحية ليزيح السراج من الطريق . وانتهى الامر بالغاء الكيان السوري كما هو معلوم لدى الجميع .

ان الديكتاتورية لا تحترم أي قانون وهي تنتهك القوانين التي تضعها هي نفسها . فهي سلب كل الانظمة بما فيها نظامها هي ذاتها ، وهي الفوضى المطلقة . ولكي تحصل على هدوء الناس واستكانتهم تلجأ الى الارهاب الدموي .

وقد ذاقت جميع فئات الشعب السوري طيلة أيام الوحدة ما ذاقت وما يعلمه الجميع ، من ارهاب وسجن وتعذيب وقتل وتسريح واسقاط جنسية .

ان الفرد في أيام الحكم الناصري ، مهما علت منزلته ورتبته كان

اقرب الى الزنزانة من فراشه وكانت الديكتاتورية الناصرية ، اذ كانت تبذخ بلا حساب لتوفير حياة الفخفخة الفارغة للوزراء والاعوان الكبار ، تخير هؤلاء بين السكوت على جرائمها وبين السقوط الى درك الملاحقات المباحثية او درك الزنزانات ، مع ما يرافق هذا من فقر وحاجة . اي ان على الوزير ان يختار شرطيا يقدم له التحية على بابه ، بالدخول والخروج ، او مباحثيا يعد عليه انفاسه ويسجل اسم كل من يقترب من الباب ذاته . اما بقية افراد الشعب فعليهم ان لا ينبسوا ببنت شفة والا كان نصيبهم الذل والهوان . ألم يسجل مئات المواطنين السوريين شكاياتهم على ما ذاقوه من عدوان المباحث الناصرية في ايام الوحدة ؟ ومن ذا الذي يجرأ على تكذيب هؤلاء المواطنين الا ديكتاتورية مثل الناصرية ؟

صارحني عبد المحسن ابو النور اول ايام الوحدة بقوله ان من جملة نعم هذه الوحدة هو ان سيادة الرئيس تخلص بواسطتها من مجلس الامة المصري . ثم انه اخذ يكيل لهذا المجلس الشتائم وقال انهم يدينون للرئيس بنعمة انتخابهم نوابا ، اي ان ارادة الشعب المصري زورت لوصول هؤلاء الى النيابة . ومع هذه المنة من قبل الرئيس على هؤلاء الكفرة ، على حد قول عبد المحسن ابو النور المذكور ، فانهم كانوا يتجرأون على مناقشة الوزراء ومضايقتهم . وكل العالم يعلم ان هؤلاء المساكين ما ضايقوا احدا بالمعنى الصحيح « للمضايقات » النيابية. اي ان عبد الناصر كان يضيق ذرعا حتى بمثل هذا المجلس ..

ان خروجي من الجيش كان سببه اني لم اكن لاقبل بمخالفة

النظام والقانون ، ولم أكن لاقبل بامتهان كرامة الجيش السوري ، ولم اكن لاقبل بالتسريح بناء على وشاية سخيفة او بدون حق ، ولم اكن لاقبل بالنقل الا لصالح الخدمة . ان الجيش السوري لم يكن ولن يكون بالشكل الذي وصفه به عبد الناصر في اعقاب ثورة ٢٨ ايلول بلسان حسنين هيكل في تحقيقاته الصحفية المحزنة . لم يذهب الضباط الى الوحدة لانهم يتربصون ببعضهم البعض كما قال عبد الناصر . ولم يكن يدفعهم الى ما قاموا به الا وطنيتهم وتفانيهم في حب امتهم . انهم بمجموعهم وبدون استثناء من الجندي البسيط حتى القائد الكبير مثال الوطنية الحقة ونكران الذات . لذلك فشلت كل مؤامرات الاستعمار وتحطمت على صخرة وطنية شعبنا وجيشه الباسل . وانا لا اقول هذا من باب الحماس لجيش تشرفت بقيادته في فترة من الزمان وانما يقوله تاريخ امتنا من يوم جلاء الاجنبي حتى اليوم . واذا كانت الدعاية الناصرية البذيئة نسبت الي امورا لا تمت الى الواقع باية صلة ، فان هذه الدعاية كذبت نفسها عندما قالت بلسان هيكل المذكور ، الذي هو في الواقع لسان عبد الناصر انني ضربت بقبضتي على طاولة المشير واندرته بان لا تكرر مصر في سورية ما ارتكبته الادارة المصرية من سخافات في السودان ، لان سيء النية المتحزب لا تصل جرأته الى هذا الحد في الدفاع عن وجهة نظره . اما الواقع فهو انني كنت ادافع بكل ما اوتيت من قوة وايمان عن الوحدة بدفاعي عن مصالح سورية ومصالح جيشها . لكن هل كان عبد الناصر يبغي الوحدة حقا ؟ ابدا لم يكن يبغي الا التوسع .

ان البلد المتخلف ليس له من عدو الا التخلف ومن يقف وراء التخلف . ومن البديهي أن الاستعمار هو اول من يقف سندا لكل تخلف في العالم . ذلك لان التخلف في بلاد الغير يضمن له نهب ثروات هذا الغير : يضمن له التخلف سوقا يصرف فيه منتجاته ، ويضمن له نهب المواد الاولية الثمينة ، كالبترول وغيره بابخس الاثمان . والاستعمار الذي يقف على رأسه الامريكان يعتبر كل خطوة للبناء في بلد متخلف شيوعية ، ويعتبر كل من يدعو الى منعه من الاستغلال ، ببناء وطنه شيوعيا . ان الاستاذ خالد العظم مثلا شيوعي بنظر الاستعمار الامريكي ، وان كل حركة تهدف الى تصنيع سوريا هي بنظر هذا الاستعمار حركة شيوعية .

ونحن معشر العرب لا نكره الاستعمار بدافع اخلاقي فقط ، بل نكرهه ونحقد عليه لما انزله فينا من مصائب وكوارث : سلب منا فلسطين وسلمها للصهاينة ، قتل اكثر من مليون جزائري ، وهو ما زال يحتل اجزاء كبيرة من وطننا العربي ، ما زال ينهب بجشع ثرواتنا البترولية ، ما زالت بلادنا تؤلف سوقا لتجارته اللصوصية الخ .. لذلك لا يمكن ان تنسجم الدعوة الى البناء والتقدم في بلادنا مع الاستسلام لاي مستعمر من المستعمرين . وان مما يضعف نضالنا ضد اسرائيل مثلا هو انتشار الامريكان وغيرهم من المستعمرين وتنقلهم بكل حرية في دوائرنا ومنظماتنا الوطنية . ذلك لان هؤلاء على اقل تقدير ، ينقلون الى العدو كل ما يريده هذا العدو من اخبار الا ان تجاربنا تؤكد لنا ان عمل هؤلاء المستعمرين لا يقتصر فقط على التجسس ، وانما ينشطون دوما في

حبك المؤامرات لمنع الاستقرار الذي لا يمكن التقدم بدونه ، ان لم نقل لايصال اعوانهم الى الحكم ، كذلك الاتفاقيات التجارية والمالية غير المتكافئة لا تنسجم مع خططنا لبناء اوطاننا لان مثل هذه الاتفاقيات تستنزف ثرواتنا فلا يبقى منها ما يكفي للبناء في بلدنا .

وقد دلت جميع التجارب التي عانيناها بانفسنا ان انجح طريقة للتغلب على كل المصاعب التي يضعها الاستعمار والتخلف في طريقنا هي قيام الجهات الوطنية التي تتألف من كل من له مصلحة في البناء والتقدم : الجبهات التي تضم الفلاح والعامل والتاجر وصاحب المصنع واصحاب المهن الخ .. ذلك لان التقدم هو في صالح الغالبية العظمى من الناس في البلد المتأخر . وعلى العكس ، فان غياب مثل هذه الجبهات الوطنية عن الساحة يسهل الى حد بعيد مناورات المستعمرين ويوقع الوطن في براثنهم . فالحكم الناصري مثلا ، الحكم الذي حطم كل المؤسسات الوطنية ، الاقتصادية والسياسية ، انزلق الى الاستسلام للاستعمار الامريكي واصبح ينفذ له جميع رغباته الاساسية في وطننا العربي . وقد افتضح هذا الانزلاق يوم اعلن الرئيس عبد الناصر انتهاء المعركة مع الاستعمار في أول أيام الوحدة ..

كل منا يذكر هذا الاعلان الرسمي العجيب من قبل رئيس دولة تخوض معركة الموت او الحياة مع الاستعمار وربيبته اسرائيل . اننا الآن ، نلمس نتيجة هذا الاعلان في البيانات الرائعة والمحزنة التي نشرها مؤخرا على الرأي العام العربي الاستاذ اكرم الحوراني . وانني لا أريد هنا تكرار ما اورده الاستاذ الحوراني في بياناته الآنفة الذكر

عن مواقف عبد الناصر من قضايا تسليح الجيش وفتح العقبة وتحويل نهر الاردن الا أنه من المفيد ان اذكر حادثة واحدة ذكرها لي مسؤول كبير جدا في الدولة عن مشروع جونستون الاميركي الاسرائيلي . وكان حديث هذا المسؤول في اول ايام الوحدة فقال انجمال عبد الناصر كان منذ ما قبل الوحدة بزمن طويل يلح الحاحا شديدا على السوريين بقبول هذا المشروع الاستعماري وكان جواب السوريين له بانه لا يقدر بهذا الالحاح ظروف سوريا !.. ونحن الان نلمس نتيجة سياسة ارضاء الاستعمار في حالة العرب وما هم عليه من انقسام وتشتت في الرأي . أما عدوتنا اسرائيل التي أنعشها عبد الناصر بفتح العقبة فانها ترقص حبورا لما نحن فيه من فوضى سببتها لنا الدكتاتورية الناصرية .

ان الرئيس عبد الناصر لا يحسن التكلم باسم العرب . فهو في كل مرة يحاول فيها سرد تاريخ الامة العربية يغفل اقطار العرب لصالح مصر ويغفل شعب مصر لصالح نفسه . ففي بيانه الاخير ، البيان المطول الذي سرده امام ما سماه مؤتمر القوى الشعبية ، غطى العرب بقصص الفراعنة بل انه لم يجعل من الفتح الاسلامي العربي اكثر من ضوء يلقى على مفاخر مصر وامجادها . ولست من الذين ينكرون على الشعب المصري مفاخره وامجاده ولست من الذين ينكرون الاثار العظيمة للمدنية الفرعونية على التقدم الانساني . الا ان للعرب الاخرين مفاخرهم ايضا . وهي لا تقل عن مفاخر الفراعنة بالضخامة والنوعية . كما ان الحضارة العربية لم تكن مجرد ضوء يلقى على آثار الحضارات القديمة وعلى بقاياها لابراز خرائب التاريخ من خلال ظلمة الليل . انها كانت

حضارة عالمية احيت ما يستحق الحياة من تراث السابقين ، وابدعت كل مايمكن ابداعه في ظروفها التاريخية • وكان ما ابدعته هذه الحضارة بحر زاخر من الفكر والجمال •

ومع ان مصر هي كل شيء في نظر المؤرخ عبد الناصر ، نجده عندما يروي تاريخها الحديث في بيانه الانف الذكر يتهم جميع قادتها الذين سبقوه بالتقصير في حق الشعب وبالانتهازية والخيانة : من سعد زغلول حتى محمد نجيب • ذلك لان مفهوم الشعب عند عبد الناصر يتطابق مع كل مفهوم ديكتاتوري عن الشعب • وكأنه كان على سعد زغلول مثلا ان يكون شبه اله فيقول للشيء كن فيكون ، وليس زعيما انسانا ، كأي زعيم آخر ، عليه ان ينسجم مع الامكانيات التاريخية • ولعل سعد زغلول اول فلاح مصري يتزعم حركة وطنية ضخمة منذ عشرات القرون وهو قد سجن ونفي وجاع واضطهد كما ينفى ويجوع ويضطهد كل زعيم يقود نضالا وطنيا • اما عبد الناصر فلم نسمع عنه الا بعد ٢٣ يوليو أي أنه لم يذق ذرة مما ذاقه سعد زغلول في سبيل وطنه • وهو اذا كان يتبرع باعصابه ودمه في سبيل امته ، فهو يفعل ذلك وهو جالس على كرسي فاروق في قصور فاروق • الا ان انكار كل الحركات الوطنية التي قامت في مصر وفي غير مصر من البلاد العربية ، قبل ٢٣ يوليو ، بانكار زعماء هذه الحركات وانكار نتائجها الايجابية ، ما هو الا في غاية وضع عبد الناصر كبداية ونهاية للعالم العربي ، او تأليهه على العالم العربي بعد تأليهه على مصر • وهذا هو الحكم الديكتاتوري بعينه • الا ان الشعب المصري كذب عبد الناصر

بوجهه عندما صفق مندوبو المؤتمر الآنف الذكر طويلا وبحماس كبير لاسم سعد زغلول الذي مر في تقرير الرئيس .

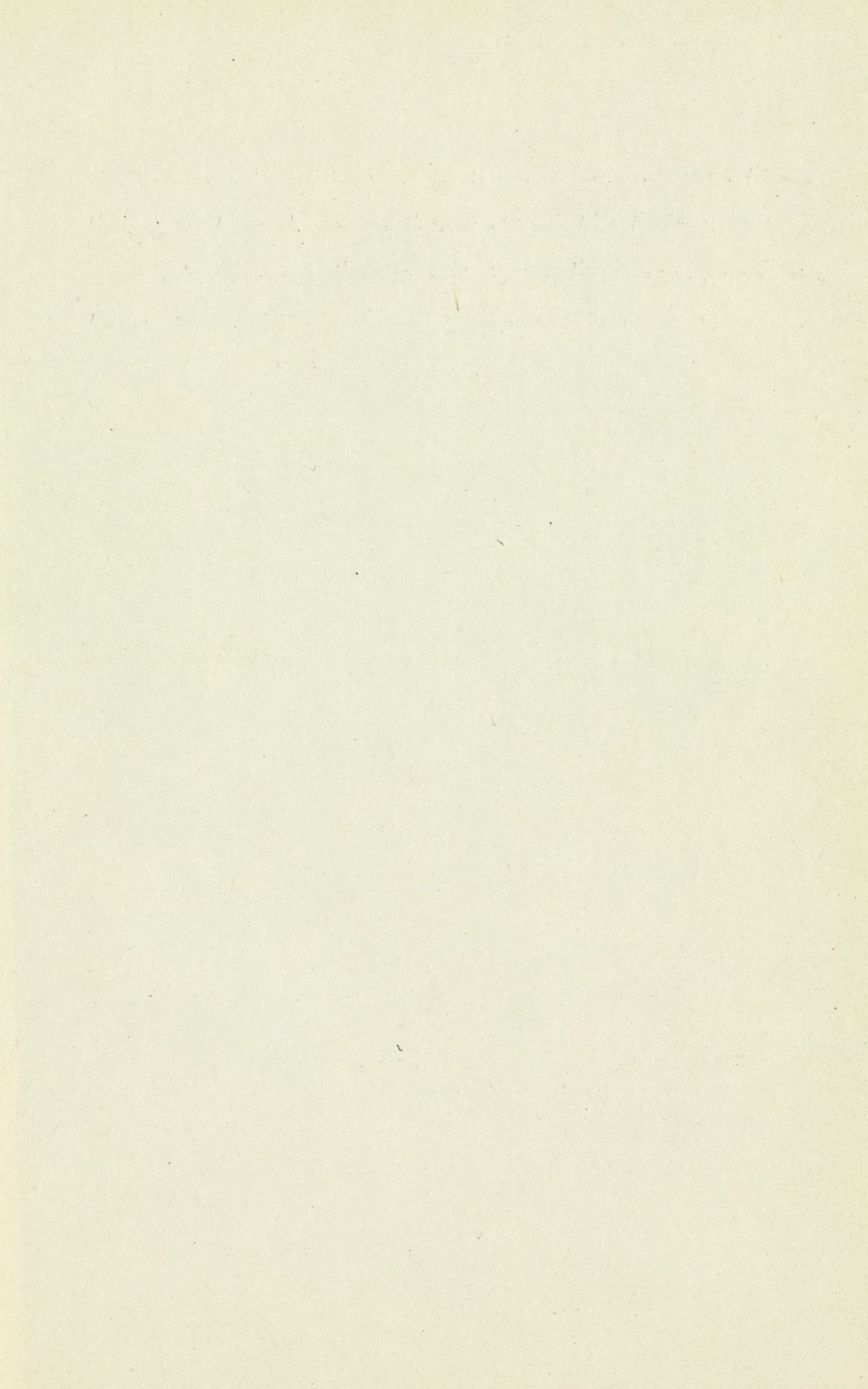
ان الشعب السوري عريق في بطولاته ، فقد دفع عشرات الالوف من القتلى في عهد الانتداب الفرنسي للتخلص من هذا الاستعمار البغيض . وهو في عهد الاستقلال ضحى من اجل الاقطار العربية ومن اجل حرية هذه الاقطار بكل ما يستطيع تضحيته . ففي فلسطين كانت تضحيتنا وما زالت اكبر من اي قطر آخر مع اننا أصغر الاقطار العربية حجما . ونحن لم نقصر ابدا في مد يد العون الى شعب الجزائر الشقيق ، وقد وقفنا المواقف المشرفة ضد الاستعمار لحماية استقلالنا ولمؤازرة الشعوب الاخرى .

واننا عندما نسير نحو اهدافنا الشريفة لا نحتاج لوصاية اي فرد من الافراد ، بل نسير الى هذه الاهداف بانفسنا . ونحن لا نصدق ابدا ان ديكتاتورا بجهازه البوليسي يتمكن من تحقيق الحرية والاشتراكية . ان الحرية والاشتراكية يأخذهما الشعب ولا يعطاهما من قبل البوليس .

انني لا أقول اننا نادينا هنا بوحدة العرب ، جميع العرب ، قبل عبد الناصر بكثير ، ذلك لان عبد الناصر لم يناد بهذا ابدا وانما نادى بتوسع الديكتاتورية الناصرية . وان اية دعوة عربية صحيحة لن تحرز تقدما الا بزوال الحكم الديكتاتوري الناصري قبل كل شيء . ونحن

نؤمن بالشعوب ايمانا راسخا لا يتزعزع ، لذلك نؤمن بقدرة الشعب المصري على ايجاد طريقه نحو الحرية والديمقراطية الحقة •

ثم ان الايام ، بل الساعات ، تعد في عمر الديكتاتوريين ، ولا تعد السنون في عمر الشعوب ولا تعد في الاتجاهات الصحيحة •



عبد الناصر .. واميركا .. و ثورة العراق

في أيام أزمة السويس والعدوان الاستعماري على بور سعيد كنت آمرا لقطعة سورية تعسكر في شمال الاردن وكان يعسكر الى جانبنا جحفل عراقي بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم .. وكانت ترد الى قيادة الجيش السوري في تلك الاثناء أخبار عن مؤامرة كبرى يحيكها نوري السعيد للاطاحة باستقلالنا . فتلقيت لذلك تعليمات من قيادة جيشنا بمحاولة الاتصال بالضباط العراقيين للاطلاع على آرائهم في الاوضاع العربية بصورة عامة وآرائهم بموقف حكومتهم التي كانت تتآمر علينا.

وقمت بالاتصالات اللازمة ، فهيأت في أواخر شهر تشرين الثاني عام ١٩٥٦ لقاء سوريا عراقيا في خيمة قرب مطار المفرق وكنت أنا في هذا اللقاء ، من الجانب السوري ، ورئيس الاركان توفيق نظام الدين وأمين النفوري وعبد الحميد السراج . وكان من الجانب العراقي الزعيم عبد الكريم قاسم والعقيد عبد السلام عارف . وبعد أخذ ورد طويلين أفضى الينا الزعيم قاسم بسر خطير يتلخص بأن هناك منظمة واسعة جدا من الضباط الاحرار العراقيين ، وأن هذه المنظمة والاكثرية الساحقة من الجيش والشعب العراقي غير راضين أبدا عن أوضاعهم في العراق وهم ينتظرون الفرصة الملائمة للقضاء على تلك الاوضاع

الفاسدة • وقد شرح لنا خطة المنظمة الآنفة الذكر للوصول الى هذا الهدف • وأضاف بأنه واخوانه لن يكرروا أخطاء حركة عام ١٩٤١ فيتركوا المجرمين يفرون الى خارج العراق ، ليعودوا بعد ذلك على رأس قوات أجنبية تساعدهم على اذلال الشعب العراقي مرة اخرى ، بل ان الثورة لن تندلع الا اذا ضمن الثوار وجود جميع اولئك المجرمين للقبض عليهم • ثم اننا التقينا بالضباط العراقيين بعد هذا اللقاء عددا من المرات ، وفي آخر مرة أي قبل عودة الجحفل الى بغداد ، طلب الينا الزعيم قاسم ان لا نحاول الاتصال به في العراق لانه هو الذي سيدبر هذا الامر بايفاده من يثق به الى دمشق وذلك حفظا للسر • الا أن أخباره انقطعت عنا حتى قيام ثورة ١٤ تموز •

وكان استمرار اتصالنا بالضباط العراقيين مفيدا لنا جدا في ظروف المؤامرات الاستعمارية التي كانت تحيط بسورية طيلة عام ١٩٥٧ • فبعد اكتشاف مؤامرة ستون جن جنون الاستعمار الاميركي ، وأخذ دلس وزير خارجية امريكا يحرض علينا شقيقاتنا الدول العربية : لبنان والعراق ، والاردن ، والسعودية • وقد أصدر بيانه الشهير بأن سورية تشكل خطرا على كيان واستقلال هذه الشقيقات • وكل سوري يتذكر جيدا تلك الظروف العصيبة التي مررنا بها حينذاك • وكان من الطبيعي انذاك أن نتذكر صداقاتنا في الجيش العراقي فطلبت من السراج رئيس الشعبة الثانية في جيشنا ان يفعل كل ما باستطاعته للاتصال بالزعيم عبد

الكريم قاسم • فقال لي ان هذا الامر صعب وغير مفيد لان لديه معلومات تدل على عدم اخلاص هذا القائد العراقي فأكدت أمري للسراج باقامة الاتصال بالضباط العراقيين الاحرار بأي ثمن ، لما في هذا الاتصال من فائدة كبيرة لنا بمنع نوري السعيد وطغمته من جر الجيش العراقي الشقيق الى مواقف تسيء الينا •

ثم ان الامور تطورت بعد ذلك ، واتجه الاميركان الى تحريض تركيا لغزونا وقام الحشد التركي بالفعل على حدودنا الشمالية الا أن فائدتنا من موقف ملائم للجيش العراقي آنذاك كانت وما تزال قائمة فسألت السراج مرة عما تم بمسألة الاتصال بالزعيم قاسم فأجابني ان شيئا لم يتم بعد لان قاسم على حد قوله يتهرب من كل اتصال بنا • وأضاف السراج قائلا ان لديه معلومات أكيدة تفيد بأن قاسم هو من جماعة نوري السعيد ، وكان كاذبا • لان اتصاله بالقائد العراقي المذكور لم ينقطع أبدا فكان الضباط الاحرار العراقيون يأتون الى دمشق بلا انقطاع وكانوا يتصلون بالسراج كممثل للقيادة السورية ، الا أن هذا الاخير كان يحتفظ بهذه الاسرار لا لقيادة جيشه السوري وهو رئيس الشعبة الثانية في أركان هذا الجيش وانما لعبد الناصر •

ومن المؤسف ان هذا الامر بقي مجهولا من قيادة الجيش ولم يدر به أحد الا بعد فوات الاوان • وهو يشكل كما يتضح جريمة بشعة ارتكبها السراج والناصرية •

وليس من حق السراج ان يكتم عن قيادة جيشه معلومات كهذه على درجة كبيرة من الخطورة • وكانت في وقتها في غاية الاهمية

والفائدة للدفاع عن استقلال سورية ، وليس من حق عبد الناصر ان يتصل بالسراج من وراء ظهر الجميع فيحرضه على كتم هذه المعلومات الخطيرة عن الجيش السوري الذي يشترك مع الجيش المصري في قيادة مشتركة في تلك الايام . لقد كانت سورية مستقلة آنذاك ، وهي دولة عربية كانت تحيط بها أخطار مميتة . فكانت بأمس الحاجة الى تلك المعلومات في تلك الظروف . بل ان تاريخ المنطقة كلها كان يتغير لصالح العرب قاطبة لو لم يخف عنا السراج ، بتحريض من عبد الناصر ، هذه الاتصالات بضباط الجيش العراقي الشقيق . ومن الواضح أن هدف عبد الناصر وهدف سياسته من هذا الفعل هو :

منع القوى العربية الثورية من الاتصال بعضها ببعض ليسهل عليه تشتيت هذه القوى وليسهل عليه بالتالي ابتلاع الاقطار العربية الواحد بعد الآخر . فسوريا مثلا تكون أكثر لينا للوقوع في شباكه عندما تجهل الاوضاع على حقيقتها في العراق . ثم ان ابتلاع العراق يكون أسهل بعد ابتلاع سوريا الخ ..

ولقد عرفت بعد قيام الوحدة مع مصر أن عبد الناصر كان يستخدم السراج لمعرفة تطورات الامور في العراق . فبلغني في أوائل تموز عام ١٩٥٨ ان رئيس المخابرات المصرية كمال رفعت جمع بعض اللاجئين العرب في دمشق وقال لهم أن يكونوا على استعداد لان أحداثا خطيرة ستقع عما قريب في العراق . وعندما اندلعت ثورة الرابع عشر من تموز كنت في القاهرة ، فعدت الى دمشق في ذات النهار على الرغم من عدم رضاء السلطات الناصرية . لقد كنت عضوا في مجلس وهمي

لا وجود له وهو مجلس التخطيط الاعلى وكنت أقضي وقتي بدون اي عمل في هذه الوظيفة الوهمية . وقد خمنت ان سوريا اصبحت في خطر من الاستعمارين الاميركي والانكليزي وان من واجبي أن أترك القاهرة الى دمشق ، لاشترك في الدفاع عن وطني اذا ما دعت الحاجة الى ذلك . وقبل مغادرتي القاهرة قابلت المشير عامر وكان عنده عدد من المسؤولين واذكر منهم السراج وعلي صبري ، وقد اخبرني السراج عندئذ بأنه أتى الى القاهرة في اليوم السابق اي عشية ثورة العراق . وعندما سألته فيما اذا كان على علم مسبق بالحركة اجابني بالايجاب وقال ان ضابطا عراقيا اتى اليه في دمشق واخبره بتوقيت الثورة . وكان مجيء هذا الضابط ، على حسب قول السراج ، في أوائل شهر تموز . أي في زمن قريب من ذلك الذي كان كمال رفعت يخبر فيه اللاجئين عن أحداث خطيرة ستقع في العراق .

وقد استدرك السراج ، بقصد التمويه علي ، فقال ان هذا الضابط من غير جماعة الزعيم قاسم .. وفي طريق العودة الى دمشق كنت مع السراج في طائرة واحدة ، وقد قص علي خلال السفر قصصا كثيرة عن الثوار العراقيين وذلك بقصد التبجح واظهار الخدمات الهائلة التي قدمها لعبد الناصر بالذات في العراق .. وكان في كل هذه القصص يخفي كل ما قام به العراقيون من اتصال بالجيش السوري قبل الوحدة .

وقد تبجحت الصحافة الناصرية بقولها ان عبد الناصر هو الـذي دفع الضباط السوريين ليتصلوا باخوانهم العراقيين في الاردن اثناء حوادث السويس عام ١٩٥٦ . وكان هذا التبجح بعد احداث الموصل الدامية وبعد

توتر العلاقات بين ناصر وقاسم ، وقالت هذه الصحافة ان الرئيس عبد الناصر استمر في الاتصال بالجيش العراقي بعد ذلك • – ليشرف – على تقدم العمل في تنظيمات الضباط الاحرار • وهنا لا بد لي من القول ، خدمة للتاريخ والحقيقة ، ان عبد الناصر ما كان في ايام العدوان الاستعماري على بور سعيد في وضع يسمح له بالتفكير في امر الاتصال بالضباط العراقيين ، وقد ذكرت آنفا الدوافع التي حدت بالقيادة السورية للقيام بهذا الاتصال ؛ وانني أجزم هنا بأن اخواننا ضباط الجيش العراقي كانوا عندما اتصلنا بهم ممتلئين عزما للتخلص من حكامهم الفاسدين وما كان يعوزهم أحد لتنظيم امورهم •

وقد اتضح لي الامر بشكل جلي عندما أتى العقيد عبد السلام عارف الى دمشق ليجتمع لاول مرة بالرئيس ناصر وذلك بعد ثلاثة أيام من قيام ثورة العراق • فقد كنت في قصر الضيافة واقترب مني أحد مرافقي عبد السلام عارف وقدم نفسه الي بصفته احد ضباط الثورة واحد الذين كان يرسلهم عبد الكريم قاسم الى قيادة الجيش السوري ، وفهمت منه أن السراج كان يمنعه من مقابلتي ومن مقابلة أي ضابط من ضباط الاركان ، في كل مرة كان يأتي فيها الى دمشق ، وذلك بمختلف الحجج •• وقد أصابني الذهول مما سمعت عندئذ وبدأت تشرق في ذهني الحقيقة عارية ، حقيقة الناصرية المتآمرة مع السراج (عيننا واذننا) منذ ذلك التاريخ القديم •

ومن الخطأ الفادح ان نتوهم ان الاستعمارين الاميركي والبريطاني ، يتفقان ويتصافيان في أمر اقتسامهما بترول العرب • فالوحوش الكاسرة قلما تتفق على اقتسام فريسة ، وكلنا نذكر كيف عمل الاميركان على

ـ تشليح ـ الانكليز قسما كبيرا من حصتهم في بترول ايران باجهاضهم الحركة الوطنية الايرانية ، ثم ضربهم اياها وسحقها • وان كل الدلائل تشير الى أن شهية امريكا ما زالت متفتحة لابتلاع ما بقي من بترول بيد الغول الانكليزي ، في العراق والكويت والجنوب العربي• والطريق الى هذا واضح بالنسبة الى الاميركان وهو اجهاض الثورات الوطنية ضد الحكام الخونة الخانعين للاستعمار البريطاني وتحويل هذه الثورات الى حركات انتهازية تنزلق في النتيجة لتقع في شباكهم ، وذلك تحت مختلف الشعارات الزائفة التي ظاهرها وباطنها العذاب المقيم •

ومن الواضح أن مثل هذه السياسة اذ تسمح لامريكا بابتلاع حصص شركائها المستعمرين الاخرين تضمن لها المحافظة على حصصها الاصلية أيضا من أن تعصف بها حركات التحرر •

ان الحركات الوطنية في العالم العربي لا تنفصل عن بعضها البعض ابدا وهي تنفعل ببعضها البعض • وسوريا التي سبقت جميع الاقطار العربية بالتحرر من قيود الاستعمار تقع في القلب من كل حركات التحرر العربي • لذلك كانت أنظار الاستعمار متجهة اليها بشكل دائم وعلى الاخص أنظار الاستعمارين الاميركي ، والانكليزي ، فالاستعمار الاخير يرى أن استقرار نفوذه التقليدي يرتبط بالسيطرة على سورية • والاستعمار الاول يرى ان اجهاض الحركات الوطنية في البلاد العربية ، وفي بلاد البترول على الاخص ، وتحويل هذه الحركات الى حركات انتهازية يقودها عملاؤهم ، يرتبط بالسيطرة أيضا على سورية • لذلك

كانت كل خطوة يخطوها بلدنا نحو تعزيز استقلاله وتوطيد حريته تبعث الخوف والقلق لدى كل من هذين الاستعمارين • وقد رأينا كيف كان الجنون ينتاب هؤلاء المستعمرين جميعا عندما كنا نكتشف مؤامراتهم ونستمر قدما في توطيد حريتنا واستقلالنا •

وكان الاستعمار البريطاني يتهالك قبل الحكم الناصري وفي أثناء الحكم الناصري على ضم سورية الى تشكيلة عربية تخضع لنفوذه ، وبذلك كان يأمل أن يستريح الى أمد طويل ، وان يستنزف ثروات العرب البترولية وثروات أسواقهم بدون مزاحم ثقيل الظل كالاميركان• وكان الاستعمار الاميركي يتهالك قبل الحكم الناصري على اخضاع سورية باقامة ديكتاتوريات تأتمر بأمره ، أملا ان يقفز على ظهر هذه الديكتاتوريات الى البلدان الاخرى للمنطقة وأن يطرد الاستعمار البريطاني منها ليحل مكانه في التنعم وحيدا ببترولها وثرواتها• الا أننا نجد أن الاستعمار الاميركي لم يحرك ساكنا ضد الاوضاع في سورية طيلة الحكم الناصري ونجده قد انزعج كل الانزعاج لتخلصنا من هذه الاوضاع •

جرى قبيل الحشد التركي على حدودنا اجتماع لمنظمة حلف بغداد في اسطمبول • وقد حضر هذا الاجتماع وكيل وزارة الخارجية الامريكية : هندرسون • وعندما قامت ثورة ١٤ تموز في العراق فضح الثوار بعض وثائق حلف بغداد الهامة • ومن جملة هذه الوثائق قرار المجتمعين المذكورين ، وكان البند الاخير من هذا القرار يقول :

ترى امريكا ضرورة تنبيه الرئيس جمال عبد الناصر الى خطورة التطورات الاخيرة في سورية •

ان الرئيس عبد الناصر لم يكن نائما عندما فضحنا مؤامرة ستون وطردناه من سورية فهو لم يكن بحاجة الى التنبيه .. وهذا التنبيه اللطيف لايمكن أن يأتي الا من صديق يطمع كثيرا في مساعدة صديقه .

.. وتمر الايام وتقوم ثورة العراق ، وكان لبنان آنذاك مسرحا لصراع دام بين الشعب اللبناني وبين حكومته الخانعة للنفوذ البريطاني. وكان الاردن يتململ ليطرد العملاء الانكليز من بلاده ، فأية محنة تلك التي كانت تمر فيها بريطانية ، تلك الايام ، في منطقتنا . أما أمريكا فقد رأت أن الفرصة مناسبة لتحويل ذلك المد الثوري الى مد انتهازي يقع في قبضتها ، فتضرب عصفورين بحجر واحد :

طرد الانكليز والحلول مكانهم بعد قمع الثوار الحقيقيين : أعداء الاستعمار .

وقد نزل الامريكان في بيروت بسرعة مذهلة تدل على معرفتهم التامة بتوقيت ثورة العراق ولسنا بحاجة الى استنتاج هذا الامر لان امريكا ذاتها اعترفت فيما بعد بأنها كانت على علم مسبق بثورة العراق ، فمن أين أتاها هذا العلم يا ترى ، ولم يكن لضباط الثورة العراقية أي اتصال الا بالمخابرات الناصرية !؟

ولقد كان الاطمئنان يسود جميع الدوائر المسؤولة في الجمهورية العربية المتحدة عند النزول الاميركي في لبنان . وكان هذا الاطمئنان يخالف كل منطق سليم في حالة وجود توتر بين بلادنا وبين اميركا . ان ثورة العراق كانت ضربة مخيفة لجميع المستعمرين ، وقد أعلنت سلطاتنا من اليوم الاول وقوفنا الى جانبها ، فيجب اذا أن تتوتر العلاقات

بيننا وبين جميع المستعمرين واميركا من ضمنهم . والواقع ان اميركا كانت موافقة كل الموافقة على اجهاض الثورة الوطنية العراقية وتحويلها الى حركة ناصرية ، بينما كان الانكليز يأملون في اجهاض هذه الثورة وتحويلها الى حكم خاضع لنفوذهم بمساعدة أعوانهم في العراق وفي المنطقة . وسأحاول فيما يلي رواية ما شاهدته بعيني عند قيام ثورة العراق .

عندما قابلت المشير عامر قبل عودتي من القاهرة الى دمشق في اليوم الرابع عشر من تموز قلت له ان الامريكان لا بد نازلون في لبنان في الايام القليلة المقبلة كما أن الانكليز لا بد نازلون في الاردن فعلينا لذلك أن نتخذ جميع ما يلزم من احتياطات للدفاع عن سوريا ولمساعدة العراق اذا لزم الامر . فأجاب ، وعلائم الاطمئنان بادية بوضوح على وجهه ، ان لا خطر يهدد سوريا ، وقد استغربت آنذاك أشد الاستغراب لهذا الجواب الابله في الظاهر .. كما دهشت لاطمئنان المشير .

وفي اليوم التالي لوصولي الى دمشق أي في ١٥ تموز حضرت جلسة المجلس التنفيذي الذي كان مجتمعا في قصر المهاجرين . وقد لاحظت أن الوزراء أعضاء المجلس كانوا في حالة ضيق شديد بسبب ورود الاخبار عن الانزال الاميركي في لبنان ، وهم لا يستطيعون فعل شيء بسبب غياب الرئيس ناصر خارج البلاد في زيارة ليوغوسلافيا ، ولان هذا الرئيس لم يترك لهم من الامر شيئا . وأذكر انني تدخلت في المناقشة وقلت لاعضاء المجلس أن سورية تمر بظرف دقيق جدا وأن سلامتها مهددة بأشد الاخطار من الغزو الاميركي ، فيجب والحالة هذه

عدم اضاعة الوقت واتخاذ بعض الخطوات اللازمة التي تجعلنا في وضع أفضل للدفاع عن أنفسنا ؛ وأضفت أن غياب الرئيس لا ينزل عن كاهلنا مسؤولية العمل حالا لرد غزو أميركي لا يضمن أحد أبدا عدم وقوعه على سوريا • عندئذ تدخل السراج وعارض أية خطوة تتخذ في سبيل تعزيز مواقعنا • وكان ينفذ بدون شك الاوامر التي تلقاها من القاهرة عندما كان فيها بالامس •

وبعد يومين من هذا التاريخ وصل عبد الناصر الى دمشق من موسكو • وكان وصوله هذا مثار دهشة الجميع • فكل الناس كانوا يعرفون أنه كان في يوغوسلافيا • ولم يكن منتظرا أبدا ان يأتي من موسكو وكنت قد حضرت أول اجتماع له بالوزراء السوريين في قصر الضيافة ، وسمعته يروي قصة ذهابه الى الاتحاد السوفياتي فقال : سمعت بثورة العراق وأنا أغادر يوغوسلافيا عائدا الى مصر • عندئذ عدت ونزلت في البر اليوغسلافي حيث أخذت طائرة أوصلتني الى موسكو • وقد تداولت هناك مع المسؤولين السوفييت في قضايا منطقتنا على ضوء التطورات الاخيرة التي سببتها ثورة العراق الخ ••

ومن الواضح أن هذه الرواية غير صحيحة ، فهو لم يسمع بثورة العراق وهو في طريق عودته الى مصر لانه كان كما رأينا وكما اعترف هو بذاته فيما بعد على علم مسبق بتوقيت هذه الثورة • وهو بعد ان ضمن موافقة الامريكان على ضم العراق الى الناصرية أراد أن يضمن السوفييت لمخططه ، وقد وقت زيارته في الايام التي كانت ستقع فيها الثورة العراقية وذلك ليهرع من هناك الى موسكو متظاهرا بالفزع من

الاستعمار وبضرورة ضم العراق اليه • وتبين فيما بعد أنه قال للسوفييت ان الثوار العراقيين من رجاله وانه هو الذي أشعل هذه الثورة ضد الاستعمار الخ •• وقد سمعت هذا الخبر من أحد الوزراء السوريين في القاهرة بعد عودتي اليها كما شاع بين الكثيرين هنالك •

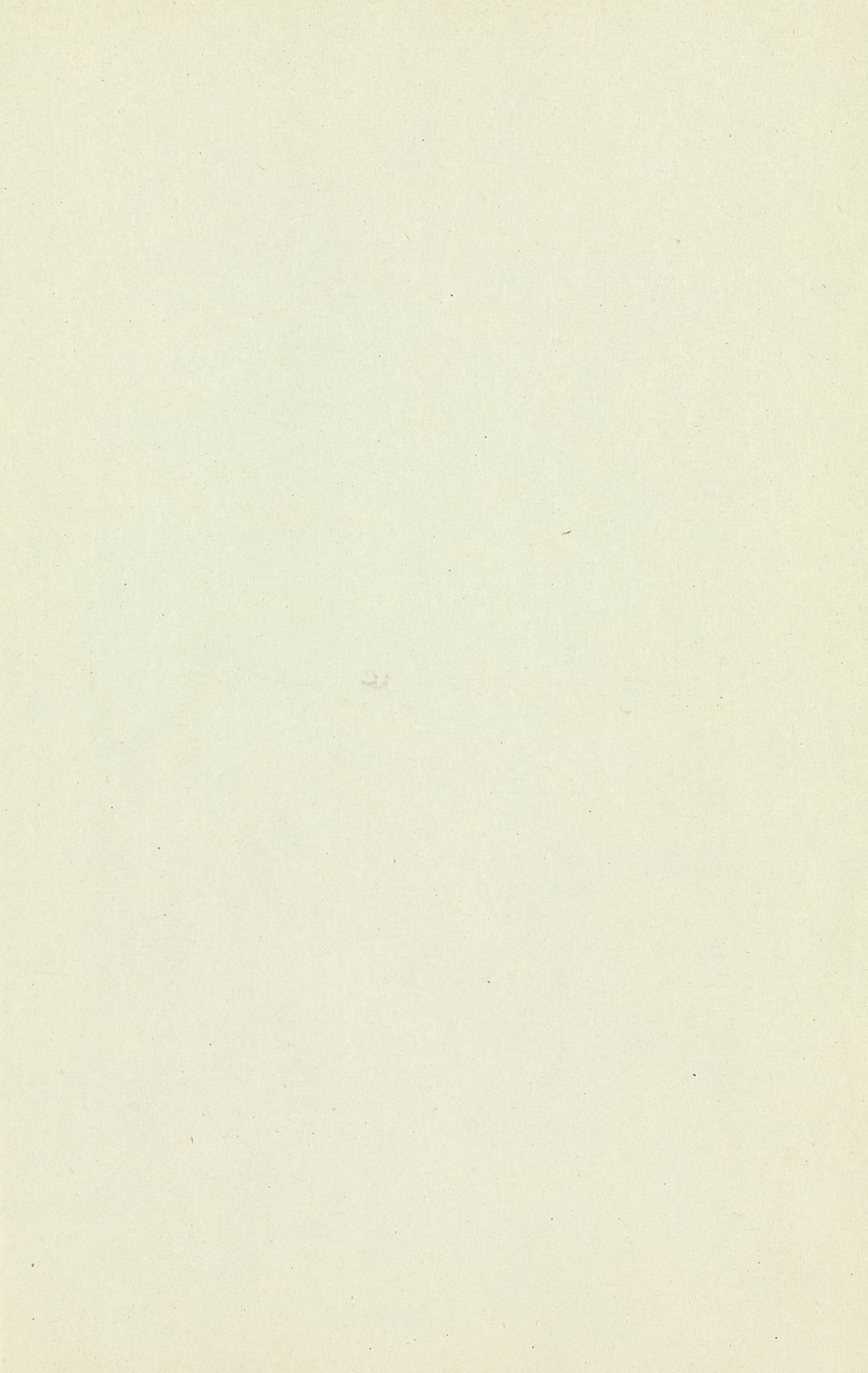
ولم تتخذ السلطات الناصرية في سورية عند نزول الامريكان في لبنان أي اجراءات عسكرية جدية • لم تعلن التعبئة ، وبدلا من تعزيز سليح المقاومة الشعبية جمعت أسلحة هذه المقاومة • أما في قصر الضيافة فقد كان الجو جو سلم بكل ما في الكلمة من معنى • وكانت مشاغل الرئيس عبد الناصر بعيدة كل البعد عن الاستعداد للخطر الاميركي القابع على بعد مائة كيلو متر فقط : في بيروت ، فكان يجمع فؤاد جلال وخريجيه ويتكلم معهم عن كيفية بث الدعاية له في العراق • ومن المعروف ان فؤاد جلال هذا تحت اسم جماعة الخريجين التي يرئسها والتي تمتد في جميع البلاد العربية ، يقوم بنشاط ناصري محموم • وهو يعد من أول مساعدي عبد الناصر في شؤون الدعاية في البلاد العربية • ثم انه لم يمض وقت طويل على وصول ناصر من موسكو الى دمشق حتى أخذ فؤاد جلال ومعاونوه طائرتين مليئتين بصور الرئيس ناصر وبالمنشورات الناصرية وذهبوا جميعا الى العراق • وتدفق بهذا الشكل سيل الناصريين على القطر الشقيق منذ الايام الاولى للثورة • وامتلأ العراق بهم • وكان من الواضح كل الوضوح ان عبد الناصر كان يعمل لتوجيه الثورة لصالحه • وكان في ذات الوقت مطمئنا كل الاطمئنان من جهة الامريكان •

واعترف الرئيس عبد الناصر بخطاب له أثناء وجوده بدمشق أيام ثورة ١٤ تموز أن اتصالات كانت تجري بينه وبين الامريكان وانه اتفق معهم على تغيير الحكم في لبنان وحتى وعلى أسماء الحكام الجدد وذلك بحجة انهاء الحرب الاهلية التي كانت تقوم في القطر الشقيق آنذاك • وهذه حجة واهية جدا اذ ليس من حق أي عربي يحترم نفسه أن يعترف لمستعمر بحق التدخل في الشؤون الداخلية لبلد عربي شقيق • الا أن هذا الامر يدل بوضوح تام على الصلات الوثيقة التي كانت تربط عبد الناصر بالاميركان عشية ١٤ تموز ، يضاف الى هذا أن الحوادث كذبت ادعاءات الاميركان من أنهم أتوا لحماية الحكومة الشرعية في لبنان : أي حكومة شمعون • وانتهى الامر الى تنفيذ اتفاقهم مع عبد الناصر بحذافيره وبحماية حرابهم ، ضد نظام الحكم الذي أتوا لنجدته •

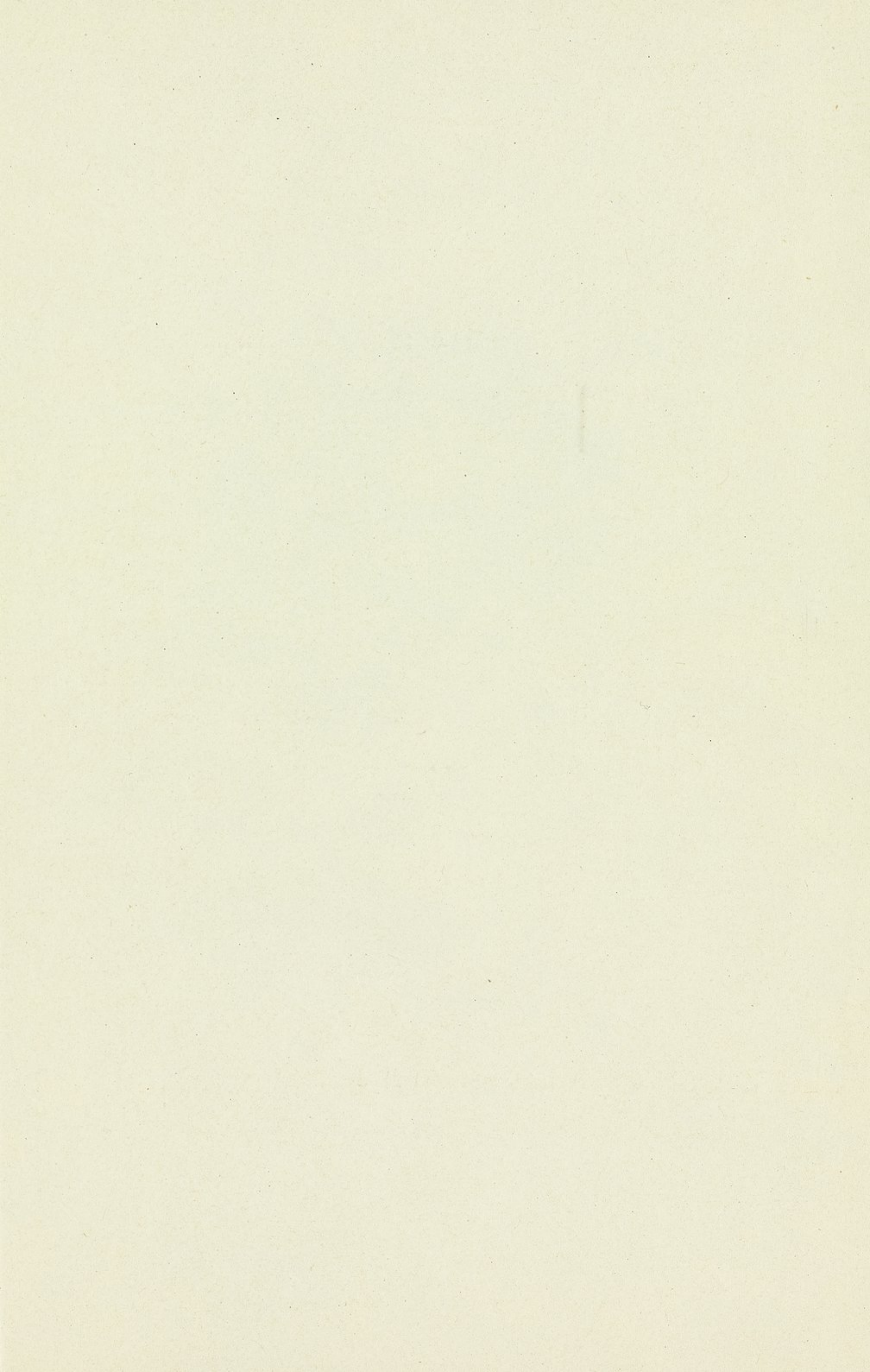
وبعد فمما لا شك فيه أنهم أتوا لنصرة سياسة عبد الناصر في المنطقة عند اندلاع لهيب ثورة العراق ، الثورة التي كانوا على علم بها • وكان عبد الناصر على علم بها كما بينا آنفا :

- **بتصفية النفوذ البريطاني في لبنان واحلال نفوذهم مكانه •**

- **بتهديد العناصر الوطنية المشتركة في ثورة العراق ، واخافتها ودفعها بالتالي الى الارتماء في أحضان عبد الناصر •**



عبد الناصر يعمل على اجهاض ثورة الجزائر



كي نفهم بوضوح تطورات الاحداث في الجزائر لا بد لنا من ان ننظر الى جميع القوى المشتركة في الصراع هناك ومـن ان ننظر الى موضوع هذا الصراع •

كان القطر الجزائري ، قبل الحرب العالمية الثانية ، يوفـر للمستعمرين الفرنسيين موردا كبيرا من اليد العاملة الرخيصة الثمن وكان هذا القطر يشكل مجـالا واسعا لقيام الاستثمارات الزراعيـة الرأسمالية :

الحمضيات ، الخمور ، الفلين ، الحلفا ، الدوم (نوع مـن النخيل يفيد في صناعة الورق) الخ ••

وفي الجزائر توجد معادن الحديد التي تصدر الى انجلتره ، وفيها الفوسفات ، والـذهب والرصاص والالمنيوم الخ •• وهنـالك بعض الصناعات الخفيفة • كما ان هــذا القطر كان يشكل سـوقا للتجارة الاستعمارية الفرنسية ، وكان يشكل مهجرا قريبا لكل فرنسي لا يجد عملا في وطنه الاصلي •

ومن المعلوم ان الاقتصاد الرأسمالي الاستعماري قد تطور منذ أمد بعيد الى اقتصاد احتكاري يضم مجموعات من الاحتكارات الجبارة •

فملوك الاحتكار يجلسون على قمة هرم اقتصادي يشرفون منها على قطاعات اقتصادية كاملة تضم عشرات الشركات التي تنتج شتى السلع • لذلك لم تكن النشاطات الاقتصادية التي أشرنا اليها آنفا في القطر الجزائري بعيدة عن التبعية للاحتكار الفرنسي • الا أنه يجدر بنا ان ننتبه الى ان المصالح العليا للاحتكار لا تتفق على الدوام مع مصالح اتباعه ، وعند وقوع اختلاف المصالح يكون الحل دوما في مصلحة الاسياد ضد مصلحة (التبع) •

وبعد الحرب العالمية الثانية بدأت روائح البترول الجزائري تتصاعد بشدة ، وبدأت الجزائر لذلك تكتسب اهمية خاصة وتثير الانتباه الاحتكاري اليها • وحتى هذا التاريخ كانت الاحتكارات الفرنسيه في مركز التبعية المخزي في « الكونسرسيوم » البترولي العالمي الكونسرسيوم الذي تتزعمه امريكا وانكلترا معا • والسبب واضح : فليس لفرنسا ممتلكات فيها ثروات بترولية • وعندما تدفق البترول الجزائري صاح رئيس وزراء فرنسا بورجيس مونوري :

« •• ان ثروات الصحراء ومعادنها ستكون العامل الفعال في رفع مستوى معيشة الفرنسيين »

وتتالت الصيحات ، فقال بعض الاقتصاديين الفرنسيين عن البترول الجزائري :

•• انه بداية تحول خطير ، لكي تصبح الجزائر موردا يرفع معيشة الفرنسيين ، وكنزا يغدق عليهم الرخاء بعد طول الحرمان •

وبالفعل وجد ان مناطق البترول الجزائري الثلاث ، حاسي مسعود والرميلة والاغواط تتضمن احتياطيا من هذا الذهب الاسود يقدر بسبعة مليارات برميل ، وهذا تقدير اولي وقد بلغ الانتاج في عام ١٩٦١ نحو ٦٠ مليون برميل ، وسيبلغ في عام ١٩٦٣ نحو - ٧٠ - مليون برميل ، اي ما يقرب من نصف احتياجات فرانسا من هذه المادة الثمينة • اما احتياطي الصحراء الجزائرية من الغاز فيبلغ الفي مليار متر مكعب في منطقة واحدة منها فقط : منطقة حاسي الرميل ، التي تعد اول منطقة في العالم من حيث الغنى بالغاز • يضاف الى هذا مناطق صحراوية أخرى لم يجر تقدير ما فيها من غاز ، كما ان هناك - ٢٠٠ - متر مكعب غاز تخرج مع كل طن زيت • ثروات خيالية تستحق صيحات الحماس الفرنسية الآنفة الذكر •••

ولو ان الشعب الجزائري استكان للاستعمار الفرنسي لما كانت هنالك اية مشكلة أمام هذا الاستعمار : كانت الاحتكارية الاستعمارية الفرنسية تستطيع الاتفاق تماما مع اتباعها الفرنسيين أصحاب المصالح المباشرة في الجزائر القديمة ، الجزائر التي قلنا عنها انها لا تتضمن الا اليد العاملة الرخيصة ، والا الحمضيات والخمور الخ • وذلك لان الاحتكار الاستعماري الفرنسي يضرب عصفورين بحجر واحد في حالة سكوت الشعب الجزائري : يسرق بترول الجزائر ، ويضمن لاتباعه استمرار سرقاتهم من هذا القطر : الاتباع الذين يدعون في العادة بالمستوطنين الفرنسيين • الا ان الشعب الجزائري لم يسكت وقام بثورته اللاهبة عام ١٩٥٤ • وقد حاولت الاحتكارات مع اتباعها المستوطنين

اخماد هذه الثورة بالقوة • فتقدم مندوبوا الاحتكارات الفرنسيةالكبرى بطلب الى حكومتهم بعدم منح اي نوع من الحريات للجزائر • واقترح هؤلاء المندوبون مساعدات مالية ضخمة تدفعها احتكاراتهم لميزانية الحرب الاستعمارية في القطر الجزائري • وعندما عجزت الحكومات الفرنسية المتتابعة عن اخماد هذه الثورة الجبارة ، قامت الاحتكارات الفرنسية مع المستوطنين الفرنسيين بانقلاب عسكري اتى بالجنرال ديغول الى الحكم • وكان هؤلاء يظنون ان قلة حزم الحكومات البائدة كان هو السبب في فشل الجيش الفرنسي في قمع الثوار الجزائريين • الا ان الاحداث بينت ان حزم ديغول لا ينفع شيئا امام البطولات الخارقة للشعب الجزائري ، وامام الفطنة والادراك الكبيرين لقادة هذا الشعب الثائر وامام الشعوب العربية التي لم تضن ابدا بالمساعدة للثوار ، وامام الرأي العام العالمي الحر المعادي للاستعمار • عندئذ لم تجد الاحتكارات الفرنسية بدا من ان تفعل شيئا لانقاذ الاهم ، انقاذ المصالح البترولية في الصحراء ولو كان على حساب المصالح التافهة نسبيا للمستوطنين •

لقد شعرت الاحتكارات الفرنسية بأن فرنسا اصبحت دولة ثانوية بسبب حرب الجزائر • فجيشها الذي يخوض حربا استعمارية منذ مدة طويلة يخسر من جميع النواحي : في قتال الثوار ، في معنوياته وفي تدريبه • ان الحرب ضد المستعمرات تختلف عن الحرب ضد جيوش كبيرة • فهي لا تفيد شيئا في التدريب في عصر تطورت فيه الاسلحة تطورا كبيرا • فلا بد اذن من انقاذ الجيش الفرنسي ولا بد من انقاذ المصالح البترولية • لذلك وجدنا ديغول يهرع الى تقديم عدد كبير من العروض على الشعب الجزائري منذ عام ١٩٥٩ وانتهى الامر

الى اجتماع ـ ايفيان ـ الاول بين الثوار وبين الفرنسيين • وقد دب الخلاف عندئذ بين الاحتكارات في فرنسا وبين المستوطنين ، لان الاعتراف للجزائر بحق تقرير المصير مع انقاذ المصالح الاحتكارية في بترول الجزائر وانقاذ الجيش الفرنسي من الحرب الاستعمارية الجزائرية ، ينقذ الاحتكار الفرنسي الاستعماري ويرفعه الى سوية زميليه الاميركي والبريطاني في اوروبا ، الا انه يفقد المستوطنين وضعهم كسادة لشعب مغلوب على أمره •

وهنا نتمكن من رؤية قوى أربع تصطرع في الجزائر في الاعوام ١٩٦٠ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٢ •

١ ـ الشعب الجزائري بقيادة حكومته الثائرة ، ومن ورائه الشعوب العربية وكل الشعوب الحرة بما فيها احرار فرنسا ذاتها •

٢ ـ الاحتكار الفرنسي الاستعماري الذي يريد ضمان مصالحه البترولية في صحراء الجزائر ••

٣ ـ المستوطنون الفرنسيون اصحاب المصالح التافهة نسبيا ـ عند المقارنة بالمصالح البترولية ـ وانصارهم من غلاة المستعمرين في فرنسا ••

٤ ـ الاستعمار الاميركي الذي سنرى فيما يلي علاقته بهذا الصراع •

ان رائحة دماء الضحية التي تنزف بمخالب الوحش المفترس تثير شهية وحش مفترس أضخم • لذلك نجد ان الاميركان يهرعون الى معمعمة الجزائر وفي جعبتهم المدفع والدولار •• فمنذ أول أيام الثورة ، عندما لم يكن أحد من المستعمرين يتمكن من رؤية انتصار الشعب الجزائري ، اغدق المستعمرون الاميركان مساعداتهم على المستعمرين الفرنسيين •

كانت مدافع ودبابات وشاحنات وطائرات وذخائر امريكا تقتل الجزائريين الصابرين في جميع ميادين الجزائر الصامدة . وكانت دولارات امريكا تنهال على خزائن الحكومة الفرنسية المفلسة ، لمساعدتها على تموين الحرب القذرة ضد شعب الجزائر . وقبضت الاحتكارات البترولية الامريكية ثمن هذه المساعدة حصة كبيرة من بترول الصحراء ، وجاء الفنيون الامريكان يشاركون الفنيين الفرنسيين في التنقيب عن هذا البترول .

ثم ان الحرب الجزائرية طالت ، وما كان مضي الايام الا ليزيد في قوة الثوار والثورة ، والا ليزيد في نفوذ الحكومة الجزائرية لدى شعوب الارض . وظهر اخيرا ان الشعب الجزائري لا بد منتزع النصر في النتيجة مهما طالت الايام . ثم بدأت الاحتكارات الفرنسية الاستعمارية تتراجع ، وبدأت تفتش عن حل سلمي يحفظ لها مصالحها البترولية وينقذ لها جيشها من الحرب الاستعمارية الخاسرة . عندئذ لاحت امام ناظري الاستعمار الامريكي آمال جديدة : لم لا يطرد الاستعمار الفرنسي نهائيا من الجزائر ليحل محله هو ؟!

وبدأ التدخل الامريكي بشكل سافر منذ أواخر عهد - ايزنهاور - وكانت الصحافة الفرنسية تكتب حينذاك الابحاث الطويلة عن المطامع الامريكية في بترول الجزائر . وبلغ الامر الى أن مصافي البترول الموجودة في فرنسا والتي تخضع للكونسرسيوم البترولي العالمي الذي يسيطر عليه الامريكان ، اخذت عام ١٩٦٠ ترفض معالجة البترول الآتي من الجزائر ولم يكن في وسع الاحتكارات الفرنسية ان

تبني مصافي جديدة للبترول ، لما يتطلبه هذا الامر من مال كثير ووقت طويل •• وفي ذات الوقت كان الضغط السيـاسي يرافق الضغط الاقتصادي فكنا نسمع من الطرف الامريكي مثلا ان امريكا لا تستطيع مساندة فرنسا طويلا في قضية الجزائر امام الامم المتحدة وفي المحافل الدولية • وكان هذا التهديد لا يفيد العرب شيئا من الناحية العملية ، لان قضية الجزائر كانت قد اكتسبت منذ زمن بعيد الرأي العام العالمي على الرغم من معارضة جميع المستعمرين ، ومن جملتهم الامريكان • ولان اسلحة حلف الاطلسي والاسلحة الامريكية كانت لا تنفك تفتك بالجزائريين الابطال • الا انه أي التهديد الامريكي يبين بوضوح طبيعة الشركة بين الاستعمارين ويفضح الاطماع الامريكية في بترول الصحراء ويفضح ضغطهم على المستعمرين الآخرين : على الفرنسيين لزيادة حصتهم •

وكان الأمريكان يحاولون بشتى الوسائل ايقاع القادة الجزائريين في شباكهم منذ وقت مبكر من الثورة الجزائرية • الا ان طبيعة هـذه الثورة ووطنية قادتها كانتا تمنعان اية مساومة بين الثوار وبين استعمار كالاستعمار الامريكي •

وقد فضح الرسميون الجزائريون هذا الاستعمار في أكثر مـن مناسبة ، وبينوا مدى اجرامه في مشاركته المستعمرين الفرنسيين في تقتيل أبناء الجزائر • ومع ذلك فقد اتصل السفير الامريكي في تونس أكثر من مرة بحكومة الثورة الجزائرية عام ١٩٦١ • وكانت وزارة الخارجية الامريكية تعلن في كل مرة ، ان هذا الاتصال لا يشـكل

اعترافا بحكومة الجزائر الثورية • وكان القصد الامريكي من هـــذا الاعلان مراعاة عواطف حلفائهم الفرنسيين •

ان الامريكان في الواقع وفي نهاية الحساب كانوا يعتمدون على عبد الناصر للعمل على اجهاض الثورة الجزائرية وتحويلها الى حركة انتهازية في حالة نجاحها ضد الفرنسيين • ان عبد الناصر فعل الكثير من اجلهم في المشرق العربي ، فكانوا يأملون منه ان يفعل الكثير أيضا من اجلهم في المغرب العربي •

وعندما كنت في مصر ، بعد قيام الوحدة ، كنت كثيرا ما التقي بأعضاء لجنة التحرير الجزائرية • وقد سمعت من بعضهم مر الشكوى من المعاملة السيئة التي يلقاها الثوار الجزائريون من عبد الناصر • هؤلاء الثوار الذين قادوا ضد الاستعمار معركة الجزائر التي رفعت جبين العرب ، بل جبين الجنس البشري بما حققته من بطولات ، أقول هؤلاء الثوار لم يكن لينتبه اليهم في مصر الا ضابط صغير في مباحث عبد الناصر • حتى أن كبيرا فيهم لم يشاهد الرئيس طيلة سنتين الا كما يشاهده الناس العاديون من الشرفة ••

وقد قص علي أحدهم قصة اربع ممرضات جزائريات أتـــين للتدريب في القاهــــرة ، فقال لي ان المباحث النـاصرية حـاولت أن تشتريهن • وقد احتج الجزائريون على هذه المحاولة وقالوا للمسؤول المباحثي : اننا لا نخفي عنكم شيئا ، فاذا أردتم معرفة أي شيء فمـا عليكم الا أن تسألونا نحن • ثم ما هي حاجتكم وحاجة مصر الى معرفة ما يدور في أرض الجزائر ؟ ان ما يدور في هذه الارض هو من

شأننا نحن فلا يفيدكم شراء احد من جنودنا او ممرضاتنا ليخبركم عما يدور هناك .. وقد تبين أن مباحث عبد الناصر كانت تريد التجسس على الزعماء الجزائريين الذين يعملون في الجزائر ، لذلك حاولت شراء الممرضات المذكورات . وهذه المحاولة لم تكن الاولى ولا الاخيرة من نوعها .

وكانت تحجز الاعانات النقدية التي تجمع من الشعب المصري ، ويعطي بدلا عنها اعانات عينية كالرز والملابس وغيرها . ومن الواضح ان الجزائريين كانوا بأمس الحاجة الى النقد لسهولة ادخاله الى الجزائر ، اذ لا يستطيعون حمل البضائع كالرز وغيره تحت أنف سلطات الاحتلال الفرنسية في ذلك القطر .

ان هذا الذي يتبجح ويمنن الجزائريين في كل مناسبة لم يخصص في ميزانية مصر أي مبلغ لثورة الجزائر حتى عام **١٩٥٩** ، وقد طلبت بنفسي عند قيام الوحدة ان نتبرع بمليون جنيه استرليني أتت من مؤامرة اجنبية فرفض الرئيس بذاته هذا الطلب ، وقال اننا سنخصص هذا المبلغ لمشاريع الانماء .. ثم اختفى المبلغ ولم يظهر له أي أثر .. ومما لا شك فيه ان المباحث التي كانت تستعد لخوض معركة ضد شعب سوريا كانت بحاجة اليه .

وهنالك قصص كثيرة ، وقد ترك الجزائريون القاهرة في نهاية الامر هربا من الناصرية . ومع ذلك لم تنته تدخلات المباحث ومضايقاتها بعد انتقال الحكومة الموقتة الى تونس : منعت مصر مرور اسلحة صينية وحاولت فرض شروط سياسية على حكومة الجزائر ، وهنالك

تساؤلات كثيرة عن فقدان باخرة الاسلحة ـ أتوس ـ وكانت مصر تماطل في دفع نصيبها من ميزانية الجزائر : الميزانية التي فرضتها الجامعة العربية الخ ..

هذه الاساليب في معاملة الناصرية للمسؤولين الجزائريين نعرفها نحن السوريين جيدا . ان الغاية منهـا هو تفريق الصف وخلق التناقضات في صفوف الجبهة العربية التي يريد عبد الناصر ابتلاعها . محسنين هيكل ، الناطق بلسان عبد الناصر ، كتب في تحقيقه الصحفي الاخير بتاريخ ٦ تموز ١٩٦٢ ، ان ضابطا جزائريا شكا له مر الشكوى من قادة الثورة لتقصيرهم في أمداد الجيش العامل على أرض الجزائر ، وهذه الشكوى لا تتفق مع الواقع ، لان كل من اتصل وعمل مع قادة الثورة الجزائرية يعلم علم اليقين مدى اخلاص وتفاني هؤلاء القادة . وأنا أصدق عبد الناصر عندما ينقل شكوى الضابط الجزائري بقلم هيكل ، لكنني أجزم بأنه عندما كان يضايق القادة الجزائريين فيمنع عنهم النقد مثلا ويعطيهم بدله ارزا ، كان يرسل من يشيع بين صفوف الثوار الجزائريين بأنه هو الذي يفعل كل شيء ، بينما لا تفعل لجنة تحرير الجزائر شيئا .. ألم يفعل ناصر ذات الفعل هذا عندنا في سورية؟

وقد سمعنا في الايام الاخيرة ، والاسى يملأ قلوبنا ، ان انشقاقا وقع في صفوف الثوار الجزائريين . وسمعنا والاشمئزاز يملأ نفوسنا ان عبد الناصر « تبرع » وهو قابع في جنات فاروق ، بأعصابه ودمه ـ لرأب ـ الصدع الذي نجم عن هذا الانشقاق ، تماما كما تبرع في أثناء حوادث حلب المشهورة .

وليس من قبيل الصدفة أن يأتي بن بيلا الى القاهرة بعد خروجه من السجن في ظروف عربية لا تستدعي هذه الزيارة • وليس من قبيل الصدفة أن ينتهي عبد الناصر الى أن يأخذ طرف بن بيلا ، بعد ان تظاهر بالحياد مدة يوم أو يومين •

لقد اجتمع عبد الناصر بعبد السلام عارف في أعقاب ظفر ثورة ١٤ تموز فدب الشقاق بين قادة هذه الثورة بعد هذا الاجتماع ثم ظهر ان عبد الناصر كان يعمل في السر والعلانية على اجهاض الثورة العراقية وتحويلها الى مد انتهازي يسمح له بابتلاع العراق • وكان الامريكان من ورائه يساندونه طمعا ـ بتشليح ـ الانكليز حصتهم من بترول العراق ، وطمعا بطرد الانكليز نهائيا من هذه المنطقة ليبقوا فيها وحدهم • ان الاستعمار وأعوانه يسقطون الشعوب دوما من حسابهم • ثم اننا اذا نظرنا الى ما يحدث في الجزائر حاليا ، على ضوء ما قلناه آنفا نجد ان عبد الناصر يحاول تكرار ما فعله بالعراق ، فهو طيلة سنوات الكفاح الجزائري الدموي لم يوفر جهدا في مضايقة قادة هذه الثورة وفي الدس بين رجالها ، وفي محاولة شراء من يستطيع شراءه حتى وصل الى محاولة شراء الممرضات كما ذكرنا • أما صلاته بالامريكان فهي معروفة من كل الناس كما ان المطامع الامريكية في بترول الجزائر واضحة كل الوضوح • فلم يبق اذن الا أن نستبدل العراق بالجزائر والانكليز بالفرنسيين لنرى بوضوح كيف حاول عبد الناصر اجهاض الثورة الجزائرية لحساب الاحتكارات البترولية الامريكية •

رأينا آنفا مختلف القوى التي تصطرع في الجزائر : الشعب الجزائري ، والاستعمار الفرنسي ، والاستعمار الامريكي • ورأينا ان الاستعمار الفرنسي انقسم بتوالي الاحداث وصمود الشعب الجزائري ، الى قسمين : واحد يمثل المستوطنين • الا أن هذا القسم الاخير ، الذي يمثل الاستعمار القديم وطراز الاحتلال المباشر واستيطان بعض رعايا المستعمر في المستعمرات يشكل قوة تسير في طريق الانحلال • وقد القى معظم رجال المقاومة السرية الفرنسية سلاحهم بالفعل ، عشية الاستفتاء على الاستقلال في الجزائر • الا أن المستوطنين اذا كانوا فيما مضى يعارضون استقلال الجزائر ، ضد الشعب الجزائري وضد حكومة فرنسا التي رأينا انها اضطرت الى التسليم بهذا الاستقلال فانهم بعد استقلال الجزائر سيعودون الى مسايرة فرنسا والاحتكارات الفرنسية في هذا القطر • ذلك لان استقلال الجزائر سياسيا يصبح امرا واقعا ولا فائدة في معارضته •

ان الشعب الجزائري بعد حصوله على استقلاله يصبح السيد المطلق لبلاده من الناحية الدولية اما الاحتكاريون الفرنسيون والامريكان فهم ليسوا أكثر من مستعمرين طامعين • فبامكان الجزائر ان تتبع سياسة حازمة ضد هؤلاء المستعمرين لتخلص حقوقها منهم ، وهي بهذا في حاجة الى وحدة الصف ووحدة جميع القوى الوطنية ، سيما منها التي اشتركت في قيادة الثورة الجزائرية ، من اولها الى نهايتها • ان هذا الظفر الذي حققه الشعب الجزائري بعد الكفاح المرير الذي دام

قرابة الثمانية اعوام . يجسد جميع تجارب الكفاح الماضية ويكسب الجزائر مناعة كبيرة ضد مطامع المستعمرين . الا ان تفرق كلمة قادة الثورة الجزائرية قبل توطد استقلال بلادهم يوقع الجزائر في مهالك تكلفها الكثير من التضحيات الاضافية . ففي هذه الحالة تسهل اقامة ديكتاتورية خائنة يسندها الاستعمار الامريكي ، أو اقامة حكومة ممالئة للاستعمار الفرنسي ، وفي كل من هاتين الحالتين يحرم الشعب الجزائري نعمة الحرية التي ناضل من أجلها كل تلك السنين الطويلة اضف الى هذا ، أن تفرق الصف الوطني الجزائري ، يفتح الباب على مصراعيه لايجاد تسويات بين الاستعمارين الامريكي والفرنسي على حساب شعب الجزائر . الامر الذي لا يتيسر لهؤلاء المستعمرين فيما لو وقف الجزائريون صفا واحدا امامهم .

ولا يمكن لاي اتفاق بين الفرنسيين والامريكان ان يكتسب اية قيمة عندما يوجد صف وطني جزائري واحد متماسك يعارض كل مشروع استعماري . وهنا يتضح في ذهننا بكل جلاء مدى الجريمة النكراء التي ارتكبها عبد الناصر في اذكاء الخلاف والبغضاء في الصف الوطني الجزائري . لقد شيد استقلال الجزائر على دماء مليون شهيد ويريد عبد الناصر أن يطعن هذا الاستقلال لمصلحة الاستعمار الامريكي .

الفهرس

القسم الاول **صفحة**

الاستعمار الحديث

الاستعمار الاميركي

النهب الاستعماري الحديث

جملة الاستعمار الحديث وتناقضاتها

القسم الثاني

البلاد المتخلفة

التقدم والرجعية في بلد متخلف

موقف الديكتاتورية في مصر

القسم الثالث

اسرائيل

الصهيونية خادمة الاستعمار

اسرائيل والمياه العربية

مشروع تحويل الاردن الى النقب

الجهل والدجل في خدمة اسرائيل والاستعمار

القسم الرابع

الناصرية

مصر قبل الثورة

بعض شخصيات الزمرة الناصرية

جملة الاستعمار الحديث في الشرق الاوسط

الموقف في مصر حتى ثورة ٢٣ يوليو

الزمرة الناصرية تجهض الثورة وتحولها الى مد انتهازي

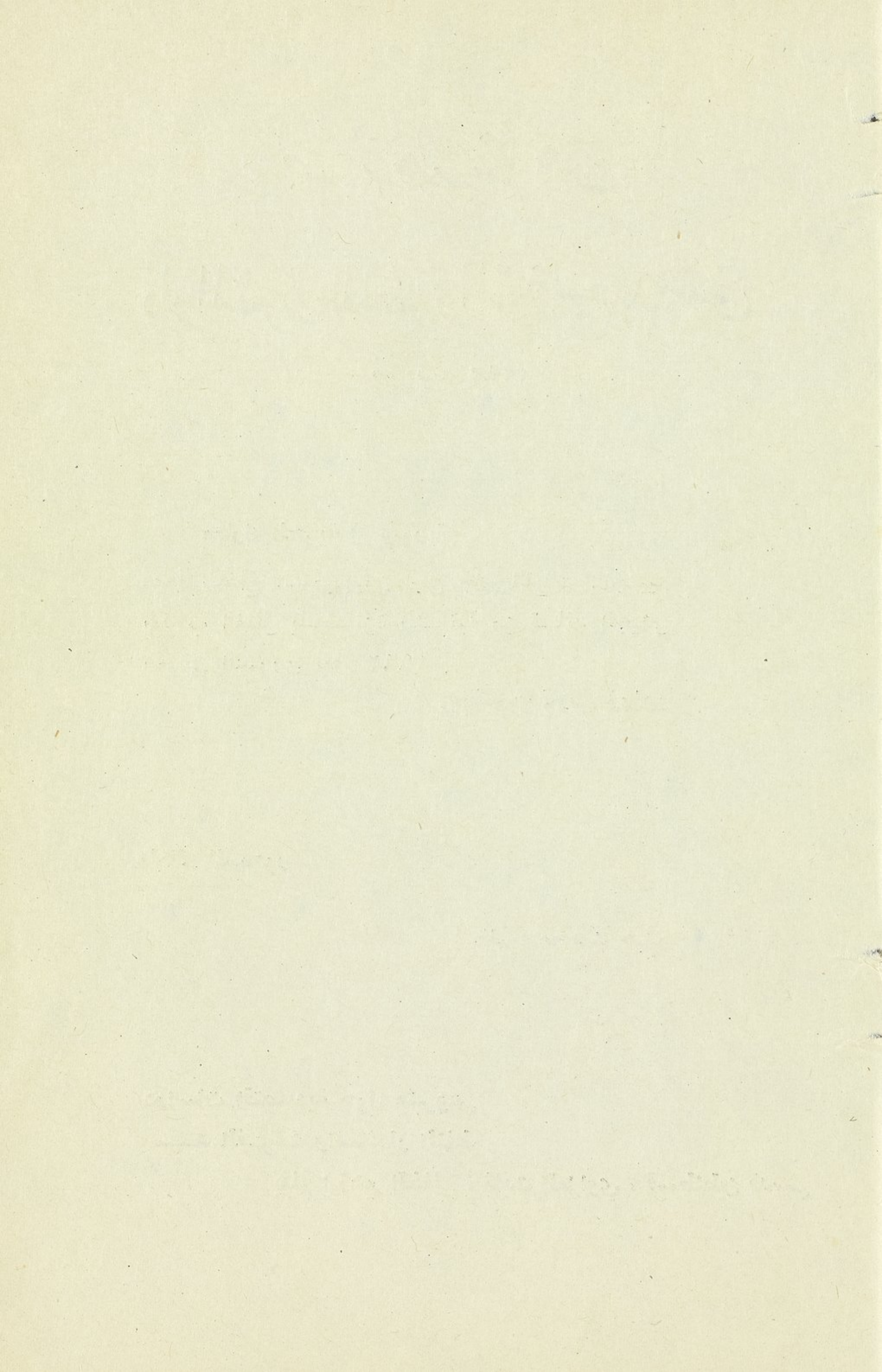
بانتظار الجلاء لاطلاق الناصرية على مواقع الانجليز في المنطقة

حلف بغداد

الانتهازية والملكية الرجعية في الحركة الوطنية العربية

الناصرية تنطلق لاجهاض الثورات العربية

ملحق



صدر حديثاً عن

دار الشرق للنشر والتوزيع بدمشق

ص.ب. ٢٣٨٢

معارك الحرية في سورية

قصة الكفاح الشعبي من اجل جلاء القوات الاجنبية
الكتاب الفائز بالجائزة الثانية من قائد الجيش العربي السوري لعام ١٩٦٢

بقلم : فارس زرزور

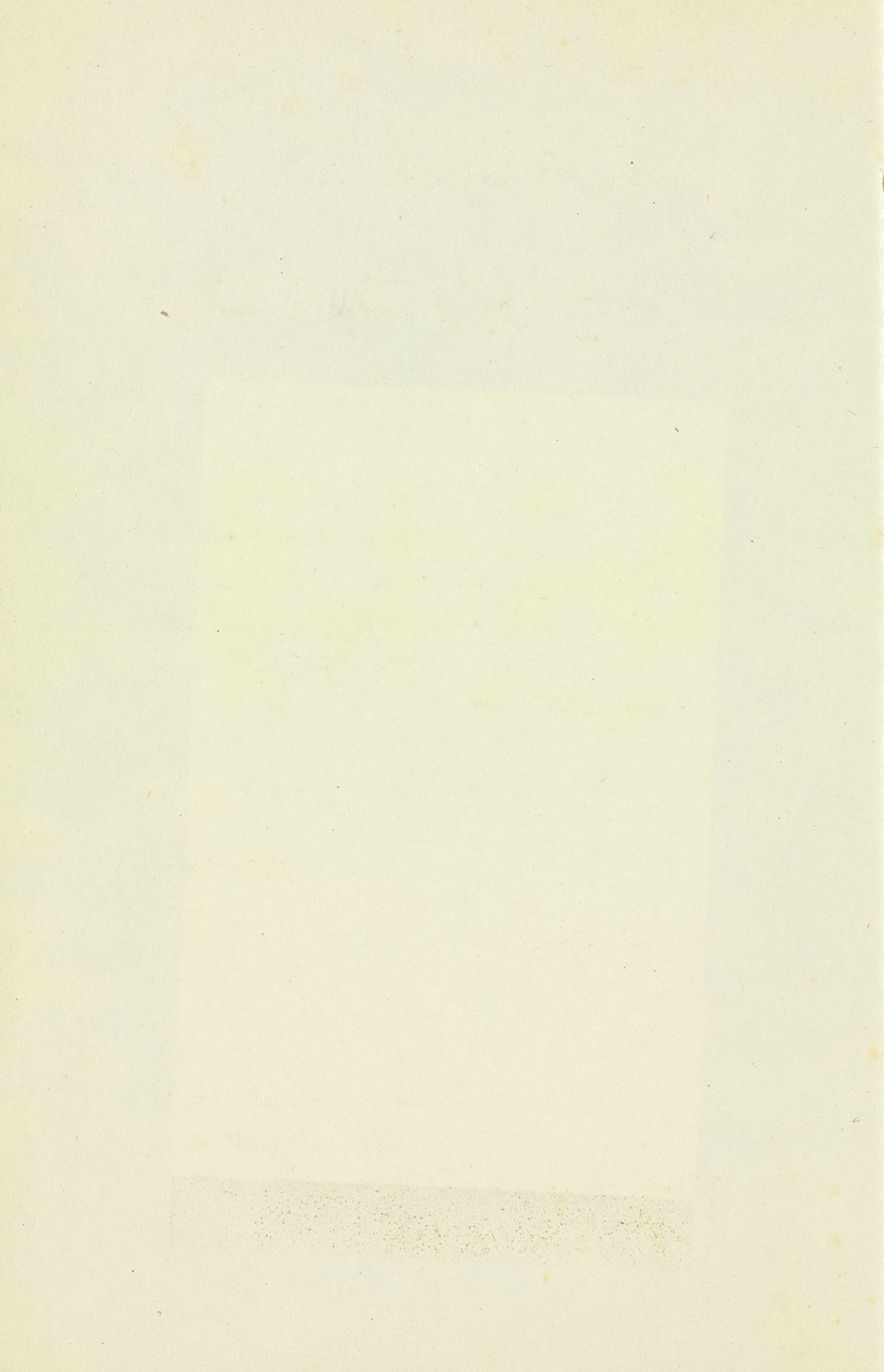
العالم المسحور

قصص

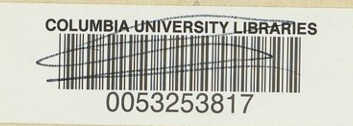
بقلم : محمد حيدر

دراسات اقتصادية حول مشروعي
سد الفرات واستثمار النفط

بقلم : زهير الخاني ، ثابت العزاوي ، قسطنطين قدسي






COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0053253817





هذا الكتاب

- خلاصة التجربة والدراسات السياسية التي قام بها الفريق عفيف البزري ، خلال مرحلة كبيرة من مراحل النضال العربي ضد الاستعمار .
- دراسة وافية عن الاستعمار الحديث وأساليبه الجديدة للسيطرة على ثروات البلدان المتخلفة .
- دراسة علمية مقرونة بالوقائع ، لموقف الناصرية من هذا الاستعمار ، ودورها الكبير في توطيد مراكزه في بلدان الشرق الاوسط بالتعاون مع اسرائيل .
- عرض مركز للحركة الصهيونية وعلاقتها بالاستعمارين : القديم والحديث .. وتوسعها تبعا لتطور شكل الأستعمار .
- دروس مستخلصة من التجارب الكبيرة التي مرت فيها الشعوب العربية ، توضح السبيل الواجب اتباعه للحيلولة دون وقوع الكارثة التي يدفعنا اليها الاستعمار .
- حلول عملية للمشاكل السياسية والاقتصادية التي تعانيها البلاد العربية عامة وسوريا خاصة ؛ يضعها الكتاب في متناول الشعوب العربية والسياسيين العرب .
- كتاب يسد فراغا كبيرا في المكتبة العربية ... وتحتاج اليه البلاد اليوم في ظروف كفاحها المرير ضد الاستعمار الحديث وعملائه .

●

دار الشرق للنشر والتوزيع

دمشق

مطبعة الجمهورية : دمشق

الثمن : ١٠٠ ل س

